مطبوعات

أخبار اليوم

قطاع الثقافة

رئيس مجلس الإدارة :

إبراهيم سعده

٦٤٧

أخبار اليوم

قطاع الثقافة

دار أخبار اليوم
قطاع الثقافة
جمهورية مصر العربية
٦ ش الصحافة القاهرة
تليفون وفاكس : ٥٧٩٠٩٣٠

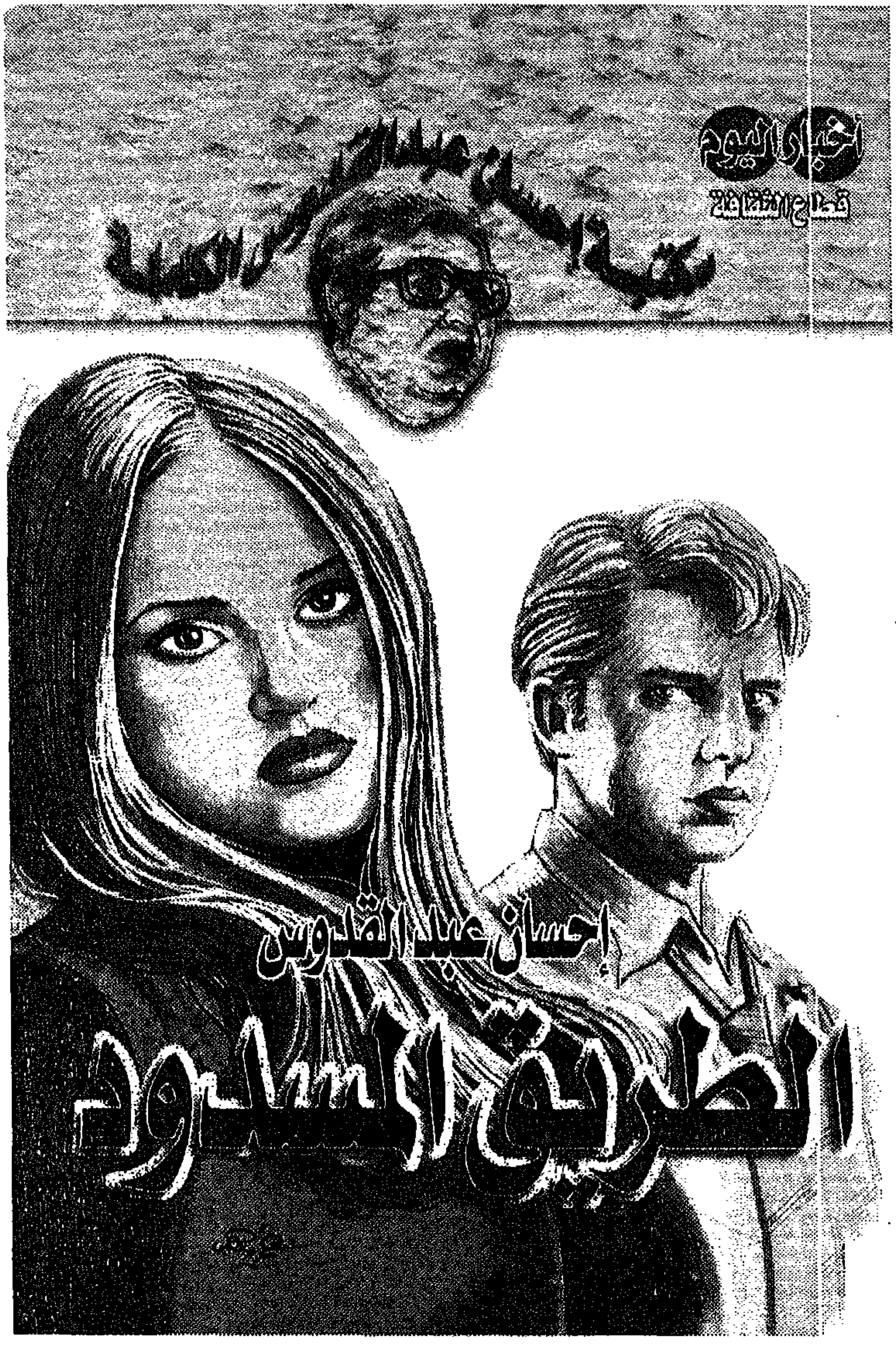
أخبار اليوم
قطاع الثقافة
إحسان عبد القدوس
الطريق المسدود

الاخـــراج الفـــنى :

أحمـــــد الســــعيد

الغلاف بريشة الفنان :

عمـــــرو فهـــمى

ان الخطيئة لا تولد
معنا، ولكن المجتمع
يدفعنا اليها..

«احسان»

١

كانت راقدة فى فراشها.. كل شىء فيها نائم إلا عينيها وقلبها..

ولو حسبت الساعات التى تقضيها راقدة فى فراشها، لوجدت انها تستغرق نصف عمرها..

دنياها كلها فوق هذا الفراش.. خيالها فوق الوسادة، وآلامها تحت اللحاف.. دنيا لا يشاركها فيها احد.. فلا احد يشاركها خيالها، ولا احد يحس بآلامها..

انها تعود من المدرسة، فتلقى تحية عابرة لمن يصادفها.. ثم تدخل حجرتها وتغلق بابها بالمفتاح، وتلقى بشبابها فوق الفراش..

أو تتناول طعامها، وتأكل معه تهكمات أختيها، وتأنيب أمها.. ثم تقوم الى حجرتها وتغلق بابها بالمفتاح، وتلقى بنفسها فوق الفراش..

لم يستطع شيء في حياتها ان يبعدها عن فراشها..

ولم يستطع احد ممن حولها ان يمنعها من ان تغلق باب حجرتها بالمفتاح..

وكانت الساعة في تلك الليلة قد بلغت الحادية عشرة..

وعيناها لا تزالان مفتوحتين، وقلبها لم ينم.. وبين يديها كتاب..

وسمعت أكرة الباب تدور في عنف..

ولم تتحرك..

وسمعت طرقات عنيفة على بابها..

ولم تتحرك ايضا.. إنما رفعت عينيها عن الكتاب، دون أن يبدو تعبير جديد على وجهها، وأخذت تنظر الى سقف الحجرة، وكأنها لا تزال هائمة في خيالها، أو هائمة في سطور الكتاب الذي تقرأه، وكأن هذه الطرقات ليست على بابها..

واشتدت الطرقات فوق الباب، والأكرة تدور ناحية اليمين وناحية اليسار كأنها تحاول ان تتخلص من يد مجنونة تقبض عليها.. ثم سمعت صوتا مخمورا يصرخ في كلمات متعثرة:

- انتم قافلين الباب ده ليه.. مخبيين عنا ايه جوه؟!..

ثم سمعت صوت اختها خديجة، تقول بين طيات ضحكات خليعة مفتعلة:

- ابعد عن الباب ده.. مالكش دعوة بيه!..

وقال الصوت المخمور:

– ماليش دعوة ازاى.. ليه دعوة ونص.. ده انا خلاص.. بقيت صاحب بيت.. والا ايه؟!..

وسمعت اختها تقول وهى لا تزال تلقى كلماتها بضحكاتها الخليعة المفتعلة:

– صاحب كل البيت، إلا الأودة دى..

وسمعت المخمور يقول وقد رفع يده عن اكرة الباب:

– ودى تبقى أودة مين دى؟..

وسمعت خديجة ترد:

– دى اودة الشيخة فايزة.. اللى يخشها ينزل عليه سهم الله.. ويطلع مبلم!..

وقال الرجل:

– شىء لله يا ست فايزة.. ما تفتحى علشان تحصل لنا البركة!!..

ثم سمعت أختها تقول للمخمور:

– تعال بس وطاوعنى.. تعال قبل الويسكى ما يبرد!!..

وقهقه الرجل فى صوت عال كريه:

– كويسة دى.. قبل الويسكى ما يبرد.. كويسة دى!!

وابتعدت الضجة عن الباب..

وعادت فايزة الى كتابها، وكأن شيئا لم يحدث..

ولم تكن تقرأ هذا الكتاب للمرة الأولى.. انها تقرأه للمرة العشرين، بل انها تستطيع ان تتلو صفحات منه وهى مغمضة العينين..

ما أرق مؤلف هذا الكتاب.. وما أطيب قلبه.. وما أسمى

خياله.. ان كل كلمة يكتبها تكاد تتنهد فوق الصفحات ، وكل قصة ينشرها ليس لها إلا نهاية من نهايتين: اما الزواج واما الانتحار!!..

انه يعيش مع قلمه فى سماء نقية طاهرة، فلا يدرى أن على الأرض قوما لا يتزوجون ولا ينتحرون!!..

ومنذ سنوات وهى تعيش مع الأستاذ منير حلمى فى سمائه.. تقرأ كل ما يكتبه، وتبكى اذا بكت احدى بطلات قصصه، وتضحك اذا مرت ضحكة بين سطوره، وتتمنى الزواج كلما اقام بقلمه حفلة زفاف، وتتمنى الانتحار اذا أراد لبطلته ان تنتحر!!..

انه الانسان الوحيد الطاهر فى هذه الدنيا..

ترى كيف كانت تكون الدنيا، ولو لم يلتق خيالها بخياله، وتضم عيناها سطور قصصه ومؤلفاته..

وكم تمنت ان تراه رؤية العين، ولكنها لم تر منه الا صورته التى تنشرها له بعض الصحف.. صورة وجهه الهادىء الوسيم كأنه طيف من عالم الخيال، وعينيه الصافيتين كأنهما لم تقعا ابدا على شر يعكرهما، وشفتيه الغليظتين كأنهما اكتنزتا بتنهداته، والشعرات البيض فى فوديه كأنها أجنحة ملاك، وابتسامته الحنون كأنها رسالة يحملها نبى لإسعاد البشرية..

وكم تمنت ان تكتب له قصتها ليهديها الى نهايتها.. ولكنها خافت ان تعكر بقصتها صفو سمائه..

ان السماء التى يعيش فيها الكاتب الكبير، ليس فيها كل هذا العذاب الذى تعانيه، وليس فيها كل هذا البشر الذى يحيط بها، وليس فيها صراخ الحيوانات التى تعيش معها، ولا دبيب البهائم التى تسعى حولها..

انه يكتب على الانسان.. عن قلب الانسان، ودموع الانسان.. ولا يدرى ان الحيوانات لها ايضا قلب، ولها دموع ومن حقها ان تسعد!!..

وازاحت الكتاب من امام عينيها وأسقطته فوق ركبتيها، وألقت برأسها فوق الوسادة، وراحت تستعرض قصتها، كما تعودت ان تستعرضها كل ليل..

●●●

ان قصتها تبدأ فى خيالها منذ اليوم الذى وقفت فيه بجانب والدها وهو مسجى على فراش الموت..

كان كل شىء فيه يموت.. عيناه.. شفتاه.. أنفاسه.. وكان وجهه ناصع البياض، كأن الحياة قد انسحبت منه وتركته فراغا..

وكانت تقف بجانبه صامتة، تبحلق فيه كأنها تبحث فى هذا الجسد عن والدها الذى عرفته.. عن الرجل الذى كان يضحك دائما، وينثر السعادة من حوله.. والذى كان يغالى فى تدليلها دو ن أختيها.. والذى كان لايفتح عينيه فى الصباح إلا اذا قبلته بينهما، ولا يغمضهما لينام إلا اذا قبلها بين عينيها..

ترى لو قبلته الآن بين عينيه، هل يصحو؟..

وانحنت فوقه تقبله.. وأحست بذراعه تتحرك وكأنه يهم بأن يضمها الى صدره، ولكن الذراع ما لبثت ان ارتخت قبل ان تصل اليها..

ثم سمعت امها تصرخ..

وعرفت ان اباها قد مات.

كانت فى الثانية عشرة من عمرها فى ذلك الحين.. وكان حزنها على والدها ذهولا اكثر منه حزنا، كأنها لم تكن تصدق ان الموت يستطيع ان يمتد حتى الى والدها.. وكانت فى ذهولها ترقب الضجة الكبيرة التى اقامتها امها فى ليالى المأتم، دون ان تشترك فيها.. كل ما تذكره انها هرعت فى الصباح التالى للوفاة الى حجرة امها، تريد ان تلقى بنفسها بين احضانها وتبكى معها.. فقد استيقظت خائفة من حلم مر بها وهى نائمة، وخائفة من يوم تصحو عليه دون ان تجد فيه اباها.. ولكنها وجدت امها امام المرآة كعادتها دائما، وكانت تربط الطرحة السوداء فوق رأسها بعناية ثم تميلها على جانب رأسها حتى تمس حاجبها وتشده الى اعلى فيبدو كأنه السيف المشهور..

ثم رأت امها تمسك بعلبة البودرة، وتلقى بعضا منها على وجهها وعنقها وما يكشف عنه الثوب من صدرها، ثم تمسك بعلبة «احمر الخدود» وتلقى منها ظلا خفيفا على خديها حتى يبدو أحمرارهما طبيعيا..

ووقفت ترقب امها وهى امام مرآتها، وقد بدأ صدرها يمتلىء بالسخط، دون ان تدرى بالضبط السبب الذى يدعوها الى السخط وأحست انها تريد ان تلوم امها ولكنها لم تكن تدرى ايضا سببا واضحا يدعوها الى لومها..

لقد كانت تحس دائما فى حياة والدها، ان امها بعيدة عنها وعن والدها.. وقد احست فى ذلك اليوم ان امها ابتعدت عنها اكثر، حتى لم تعد تراها الا كما ترى مسألة حسابية معقدة لا تستطيع حلها..

ولمحتها امها فى صفحة المرآة، فقالت لها دون ان تلتفت اليها:

– يا للا يا فايزة.. روحى البسى فستانك الأزرق لغاية ما تيجى خالتك نبيهة الخياطة وتخيطلكم الفساتين السودة.. ياللا يا حبيبتى، زمان الناس جايه!!

قالتها فى لهجة طبيعية نشطة كأنها تستعد لاقامة فرح أو حفلة ساهرة، وكأن الناس الذين تنتظرهم سيجيئون مهنئين لا معزين.

لم يكن يبدو عليها حزن.. إلا هذا الثوب الأسود الأنيق، وهذه الطرحة السوداء التى تشد حاجبها الى اعلى..

ولم تحاول ان تواسى ابنتها فى ابيها الذى لم يمض على موته سوى ليلة واحدة، ولم تحاول ان تعوضها عنه بقبلة فوق جبينها أو بضمة الى صدرها، أو بدمعة تختلط بدموعها..

كان كل مايبدو عليها.. انها مشغولة.. مشغولة جدا.. وانها تستعد ليوم ستكون هى فيه «العروسة» التى يفد الناس اليها، ويحيطونها باهتمامهم.

ولم تخرج فايزة من حجرة امها، انما بقيت ترقبها فى اهتمام كأنها ترقب عالما غريبا لم تسمع عنه من قبل..

ولم تهتم امها بوجودها، انما قامت من امام المرآة بعد ان فرغت من زينتها، واتجهت الى الدولاب، وفتحته واخرجت منه منديلا صغيرا حليت أطرافه بالسواد، ثم خرجت من الغرفة وفايزة وراءها..

وما كادت الأم تتبين ان بعض المعزيات قد وصلن فعلا، وجلسن فى «الصالة» حتى رفعت المنديل الى عينيها وانهمرت دموعها تدفقا.. وقامت السيدات المعزيات يحتضنها، ويبادلنها دموعا بدموع و:

- البقية فى حياتك يا ختى.. شدى حيلك يا حبيبتى..

وسمعت امها تنهنه قائلة:

- هوه انا باقالى حياة ولا حيل.. ده كان حياتى وحيلى.. يا وحدتى فى ليلى من بعدك يا حبيبى.. يا ريت ما طلع على صباح من غيرك ياخويا.. أهوه كان بيقعد على الكرسى ده يا سنيه هانم.. راجل ولا كل الرجالة.. وكان بيدخل على من الباب ده يا عزيزة هانم، والخير بين ايديه والسعد فى رجليه.. فين هو.. راح فين.. آه يا حبيبى!!..

واستمعت فايزة الى نهنهة امها كأنها تستمع الى حوار فى فيلم سينمائى تلقيه زينات صدقى.. وربما لو لم يكن ابوها هو المقصود بهذه الكلمات لضحكت.. ولكنها لم تضحك ولم تزد كلمات امها من حزنها ولا استدرت منها دموعها.. واتجهت الى غرفتها وهى لاتزال فى ذهولها، ولا يزال فى صدرها الخوف الذى استيقظت عليه.. ولكنها فى هذه اللحظة لم تكن تخاف حلمها، ولا صباحها.. كان الخوف قد اتسع امامها حتى خيل اليها انها تخاف حياتها كلها..

وكانت تشارك اختيها فى غرفتيهما، ووجدتهما وقد فتحتا فرجة فى الباب اخذتا ترقبان منها السيدات الوفدات.. ودخلت بينهما، وخديجة تقول لفوقية:

- شوفى يا اختى عزيزة هانم عاوجه الطرحة ازاى.. حقه ما فيش زى الست دى فى قمطة الطرحة!!..

وقالت فوقية:

- انا نفسى اشوف تيزه عفيفة حاتيجى عاملة ايه النهاردة، شفتى الأساور اللى جت بيهم ساعة الجنازة.. اتناشر اسورة،

واحدة فوق واحدة عيار اربعة وعشرين.. وحتة بروش اد الكف على صدرها.. يا حسرة علينا.. يدى الحلق للى بلا ودان!!..

وقالت خديجة وهى تقفل فرجة الباب:

- يا للا يا فوقية.. احسن نينه تسود عيشتنا!!..

واتجهت كل منهما الى مرآتها.. وجلست فايزة على سريرها ترقبهما كما كانت ترقب امها..

ان كلا منهما صورة طبق الأصل من امها.. وكانتا دائما اقرب الى الأم منها.. ورغم ذلك فهما ليستا بعيدتين عنها كأمها.. انها تحس بهما فى خفقات قلبها منذ كانت صغيرة تشاركهما فراشا واحدا.. ثم بعد ان كبرت معهما واصبح فى الحجرة سريران.. سرير لأختيها، وسرير لها وحدها..

كل ما كان يضايقها منهما، انهما تصران على اعتبارها صغيرة، فلا يشركانها فى اسرارهما، ولا يصحبانها فى زياراتهما، ولا يحاولان ابدا ان يفهما مشاكلها..

وسمعت اختها خديجة تلقى بالمشط من يدها فى عنف، وتقول فى تأثرعميق:

- انا بابا وحشنى.. يا حبيبى يا بابا..

ثم تنكفىء فوق حافة «التواليت» وتبكى بحرقة..

وهرعت اليها فوقية تربت على كتفها قائلة:

- جرى ايه يا ديدى ما كنا عقلنا.. يعنى حنعمل ايه.. اهوه ربنا ريحه من مرضه وعذابه.. الدور والبقية على عذابنا احنا..

ثم لا تتمالك نفسها فتبكى مع اختها..

وترقبهما فايزة من خلال ذهولها.. ثم.. ولأول مرة فى هذا

الصباح تنهمر دموعها.. وكانت دموعا صامتة فى اول الأمر، ثم غلبتها دموعها حتى كادت تختنق، فأخذت تنهنه كأنها تلتقط انفاسها من الهواء، ثم استبد الحزن بأعصابها فانكفأت على فراشها تبكى بصوت عال، وتضرب الوسادة بقبضتيها، و«المرتبة» بقدميها، كأنما اصيبت بنوبة من نوبات الهوس..

وقامت اليها اختاها، تمسحان دموعهما..

والتفتا حولها..

واختلطت دموع الثلاثة.. دموع صادقة حارة.. دموع البنات اللاتى اكتشفن انهن اصبحت يتامى!!..

وفجأة فتح الباب فى عنف، كأن عاصفة اقتلعته، وظهرت الأم صائحة:

- جرى ايه يا بنات.. انتو سايبينى اشيل الهم لوحدى ولا ايه.. يا للا يابت انت وهى بلاش دلع بنات.. اللى عايزه تعيط تطلع تعيط بره مع الناس!!..

وقالت فوقية بين دموعها:

- حاضر يا نينه..

وقامت خديجة وفوقية الى مرآتهما تجففان دموعهما وتمشطان شعرهما وتسويان ثوبيهما.. ثم لما وجدتا فايزة لا تتحرك ودموعها لا تزال تغسل وجنتيها، قامتا اليها تبدلان من ثوبها، وتمشطان شعرها.. ثم تركتاها لتتم استعدادها وخرجتا لتنضما الى المعزيات..

وهمست خديجة فى اذنها قبل ان تخرج من الغرفة:

- خدى بالك من التليفون.. لو حد سأل على «انده‌يلى»!!

وهزت فايزة رأسها علامة الموافقة.. ثم جلست على فراشها وقد جفت الدموع فوق وجنتيها، وعاودها ذهولها وعاودها معه خوفها، وأحست بنفسها كأنها تبتعد عن هذا البيت.. بل رأت فى خيالها كأن البيت نفسه يبتعد عنها، ويتلاشى فى الأفق حتى يختفى.. ثم وجدت نفسها فى فراغ كبير، ربما كان صحراء واسعة لا أول لها ولا آخر، وربما كان هذا الفراغ سماء ليس لها أفق ولا حدود.. وهى تسير فى هذا الفراغ.. تسير متعبة خائفة حافية القدمين ممزقة الثوب.. تبحث عن شىء.. تبحث عن ابيها.. وهى تتلفت حولها، وتصرخ «بابا.. بابا» ولكنها لا ترى شيئا، ولا يجيبها إلا طنين قوى يملأ اذنيها ويحطم رأسها.. ثم هى تحس بالتعب من كثرة طوافها فى هذا الفراغ بحثا عن ابيها، وتحس بهواء بارد يضرب جسدها كله من خلال ثوبها الممزق، وتحس برعشة تسرى فى كل اعضائها.. انها يائسة.. لا تريد ان تستمر فى البحث عن ابيها.. تريد ان تنام.. تريد ان تريح جفونها المثقلة.

ولكنها قبل ان تسدل جفونها فوق عينيها، تلمح باب الغرفة يفتح، ويدخل خالها -شقيق امها- وتراه من خلال عينيها المحمومتين كأنه الشبح المخيف، ثم تسمعه يقول لها وهو يربت على كتفها بيد ثقيلة:

- ازيك يا فايزة.. مالك.. بلاش الحاجات دى أمال.. اذا كان أبوكى مات، انا لسه فاضلك.. ياللا قومى استقبلى الناس..

ثم يضع يده الثقيلة على وجهها ويقول:

- انت عيانه ولا ايه.. فين نينتك؟..

وقبل ان تحاول ان تجيبه، تلمح من بين جفونها المتعبة، امها وهى تدخل وكأنها ازدادت بدانة، وكأن الاصباغ فوق وجهها قد

اختلطت فيها الوان فاقعة مضحكة كالألوان التى تغطى وجه البلياتشو..

ثم تسمع خالها يقول:

- صباح الخير يا توحيدة..

وتسمع امها تجيب:

- أهو صباح والسلام.. فين الخير ده يا خويا!..

ويصمت خالها قليلا، ثم يصرخ كأن الشيطان ركبه:

- أنا عايز أعرف ابن كلب مين اللى كتب النعى فى الأهرام.. يحط اسمى بعد اسم خليل زهران الموظف السنكوح اللى فى الدرجة العاشرة.. ده كان نسب مهبب فى اوله وفى آخره..

ولا تسمع فايزة شيئا بعد ذلك.. وتسقط فوق فراشها كأن صاعقة مستها..

وتلتفت اليها أمها قائلة:

- مالك يا بت يافايزة..

ثم تضع يدها على جبينها، وتقول كأنها تحادث نفسها:

- البنت سخنة زى النار.. بقى دى عملة تعمليها يا مقصوفة الرقبة.. ما لقيتيش يوم تتعيى فيه الا النهاردة.

ثم تلتفت الى اخيها:

- عن اذنك يا خويا.. لما اشوف قرصين اسبرين لفايزة!

وبقيت فايزة فى فراشها خمسة عشر يوما.. محمومة، ضعيفة، مذهولة، تمر عليها فى ذهولها أشباح من حزنها تملأ قلبها بالخوف والحيرة..

ولم تشهد شيئا من المشاكل التى تعقب الوفاة عادة.. ولم تكن

تعتقد ان هناك مشاكل، فإن والدها ترك لهن معاشا يكفيهن وارثا صغيرا يعينهن على الحياة دون حاجة الى احد.. كانت المشكلة الوحيدة التى تخطر على بالها هى انه لم يعد للبيت رجل.. رجل يحميه، ويقوم على شئونه، ويتولى امرها فى المدرسة.. فقد تركهن ابوهن.. ثلاث بنات وأم.. ليس لهن أخ، وليس لهن احد من أقاربهن يثقن به، أو بينه وبينهن ود كبير..

وهى تذكر كلمة قالتها أم نبيهة الخياطة وهى تندب ساعة صراخ النساء وعويلهن: «قالوا لى ليه النعش مايل، قلت ماليش بين الرجال ابن شايل»!!.

وهى تذكر ان عويل النساء وصراخهن قد اشتد عقب ان قيلت هذه الكلمة، كأن كلا منهن قد احست بفداحة مصاب العائلة، اذ مات رجلها دون ان يترك احدا يملأ مكانه.. ويحمل «نعشه»!

ولكن فايزة قامت من فراشها وخرجت من غرفتها وجدت فى البيت رجلا!

كان بدينا، كل شىء فى وجهه منتفخ.. عيناه وانفه وخداه وشفتاه.. وكان متأنقا فى ملبسه اكثر مما يحتمل سنه، وكان اصلع الرأس، يكسو فوديه شعر أسود كالح كأن الصبغة لم تجف عليه بعد.. وكان يجلس بلا كلفة كأنه صاحب بيت، وامها بجانبه تحيطه باهتمامها، وقد أثقلت من الأصباغ فوق وجهها وتركت ثوبها الأسود يكشف عن مساحة اكبر من صدرها..

وأشارت لها امها قائلة:

– تعالى يا فايزة سلمى على عمك شوكت بيه..

ثم التفت اليه واستطردت وبين شفتيها ابتسامة واسعة:

- وادى يا سيدى دلوعة البيت كله الست فايزة..

ونظر اليها الرجل نظرة بلغ من وقاحتها ان أقلقتها وكأنه نزع ثوبها عنها بعينيه، وقال كأنه يشتهى طبقا من الطعام اللذيذ:

- ما شاء الله.. دى كل واحدة احلى من التانية.. و.. وقاطعته امها قائلة:

- دى بأه ، زيادة عن اخواتها، غاوية مدرسة.. حتطلع دكتوره باذن الله..

وقهقه الرجل قائلا:

- ولا دكتورة ولا حاجة.. كلها سنة ولا اتنين وتكون اتجوزت وشبعت جواز.. الحلو ما يفضلش فى المدرسة!!

ومد ذراعه كأنه يحاول ان يختطف احد نهديها، وقال:

- تعالى يا فايزة.. تعالى جنبى هنا واحكيلى عن مدرستك.

وتسمرت فايزة مكانها كأنها قد وقعت فى شرك عنكبوت.. ولا تستطيع ان تتقدم، ولا ان تهرب خارج الغرفة، الى ان انقذتها امها قائلة:

- روحى انت يا فايزة.. وابتدى ذاكرى احسن زمانك اتأخرت عن دروسك..

وقال الرجل وفى عينيه حسرة وتوسل:

- ما تخليها معانا شوية يا توحيدة..

وقالت الأم بعد ان نظرت الى ابنتها نظرة تأمرها بالخروج:

- لا والنبى تسيبها يا شوكت بيه.. دى بقالها جمعتين عيانة وما ذكرتش حاجة من أيام المعزى..

وخرجت فايزة وقد امتلأ رأسها بسحب من الفكر الأسود..

كان هناك معنى لا تفهمه، أو لا تريد ان تفهمه.. ولكنها مع مرور الأيام بدأت تفهم، أو اضطرت ان تفهم.. فقد بدأ شوكت هذا يتردد على البيت كل مساء.. وتتردد معه زجاجات الويسكى ويعد له الطعام الفاخر.. طعام لم تتعوده فايزة فى حياة ابيها..

وبدأ شوكت ايضا يصحب معه بعض اصدقائه.. وبدأت اختاها خديجة وفوقية تشتركان مع امهما فى استقبالهم. وبدأتا تشربان الويسكى، وتثقلان من الطلاء على وجهيهما، وتشتريان ثيابا لم تكونا تحلمان بها، وتضحكان فى خلاعة لم تألفها منهما، وتتحدثان فى مواضيع جريئة يحمر لها وجه فايزة خجلا لمجرد سماعها..

وكانت فايزة ازاء كل هذا صامتة.. تغرق فى ذهولها اكثر واكثر.. ولم يدعها احد الى الاشتراك فى تلك الليالى، ولم يسألها احد رأيها، ولم يلحظ احد كل هذه الحيرة التى تضطرب فى رأسها، وكل هذا العذاب الذى يزحف على صدرها..

واصبحت تحس انها تحمل بأمها واختيها جرما لا تستطيع ان تواجه به الناس.. وكان يخيل اليها ان الجيران كلهم يشيرون اليها كلما مرت بهم ويتهامسون عليها.. وان صديقاتها فى المدرسة يتقولن عنها ويعلمن الكثير عما يجرى فى بيتها..

ولم تستطع ان تفعل شيئا ازاء كل هذا إلا ان تزداد انطواء على نفسها.. وتزداد صمتا.. وهى فى انطوائها وصمتها تزداد تعلقا بذكرى ابيها.. ولو كان حيا ما حدث ما يجرى حولها، ولو كان حيا لصان سمعتها وسمعة امها وأختيها، ولو كان حيا لاستطاعت به ان تواجه الجيران وان تقف مع زميلاتها على قدم المساواة.. و.. و..

وكانت تنام كل مساء فى بحر من دموعها..

لم يحدث إلا مرة واحدة ان انفجرت وأعلنت ثورتها..

كان ذلك عندما جاءتها اختها ذات يوم وفى ويدها سوار جديد، وصاحت مرحة قائلة لأختها فوقية:

- شوفتى الأسورة الجديدة يافوفى..

وقالت فوقية وكأنها تتنهد:

- الله.. جنان!!..

وقالت خديجة:

- اربعين جنيه ونص.. دفعهم اسماعيل بيه.. جنيه ينطح جنيه!..

وقالت فوقية ضاحكة:

- لو كان على تقل دمه كان لازم يدفع الف!!..

وتنبهت خديجة الى وجود فايزة، فالتفتت اليها وهى تضع السوار امام عينيها:

- شوفى يا فايزة..

وردت فايزة وهى تسبح بعينيها:

- مش عايزة اشوف..

وهزت خديجة كتفيها فى احتقار قائلة:

- عنك ماشفتى..

وانفجرت فايزة:

- تسمحى تقوليلى اسماعيل بيه ده يطلعلك ايه علشان يجيب لك اسورة!

وصرخت خديجة:

- الله.. الله.. ما بقاش ناقص إلا انت يابت يا مفعوصة!!

وقالت فايزة:

- لو كان بابا موجود.. كان فعصك وقطعك حتت قبل ما تحطى الأسورة دى فى ايدك..

وأجابت خديجة:

- أهو مش موجود سابنا للفقر وارتاح..

وصرخت فايزة ودموعها تختنق فى عينيها:

- بابا ما سبناش فقرا.. انما سابنا شرفا..

وقالت خديجة:

- طيب انحطى بقى واتلفعى بالشرف بتاعك..

وقالت فوقية:

- بس يا جماعة بلاش زعيق.. جرى ايه يافايزة.. كل واحد حر يعمل اللى هو عايزه..

ودخلت توحيدة على صوت البنات:

- جرى ايه.. ايه الزعيق اللى يقلب الدماغ ده؟..

وقالت فوقية وهى تحاول ان تبتسم:

- مافيش حاجة يا نينه.. دى مناقشة كده عالطاير..

وقالت خديجة وهى لاتزال فى غضبها:

- الشيخة فايزة بتلقى علينا محاضرة فى الشرف.. مش عاجبها ان اسماعيل يجيب لى هدية..

- اسمعى يابت انت.. انا عارفاكى، طالعة لأبوكى حرف بحرف.. كفاية اللى شفته من ابوكى ومن الهم اللى حطه عليه.. تطولى لسانك، تقولى كلمة زايدة ولا كلمة ناقصة، حاقطع رقبتك..

فاهمه!..

وسكتت فايزة..

ومن يومـها وهـى ساكتة، تطوى الـهم فـى قلبها ولا تبوح به إلا لـخيالها.

وانتـقلت العـائلة من شـارع الروضـة. الى شـقـة فـخـمـة فى الجيزة..

ولم تسـأل فـايزة عمن يدفع ايجـار الشقة الجديدة، ولا عمن دفع ثمن كل هذا الأثاث الجـديد.. فـقـد تعـودت ان تفـهم وان تسكت. ولكنـهـا ارتاحت عندمـا اصـبح لهـا فى الشـقـة الجـديدة حـجـرة خاصـة.. بعيدة عن الأبهاء الخارجية التى تقام فيها حفلات الليل، وأصبحت هذه الحجرة هى كل دنياها، واختارت السرير لتقضى عليه نصف ايامها.. خيالها فوق الوسادة.. وآلامها تحت اللحاف..

ولكنها كبرت..

لم تعد طفلة.. ولم يعد احد يريد ان يعتبرها طفلة.. كان الرجال يلمحونها فتجرى عيونهم خلفها.. خلف القوام الذى يتثنى فى رقة وخفر كأنه يتأوه من الألم.. وخلف البشرة السمراء كأنها أستار معبد مقدس لم يجد كاهنه ولم يكتشفه العباد ليتبركوا به.. وخلف العينين الواسعتين وقد اجتمع فيهما الليل والنهار فلا تكاد تغفو بينهما حتى تصحو، وخلف الشفتين الحالمتين وقد نامت احداهما فوق الاخرى كأنها تتدفأ بها.. وخلف الشعر الطويل المرسل الذى تضفره احيانا فى ضفيرة طويلة تلقيها فوق ظهرها كأنها تحمل فى طياتها سرها.. سر الجمال.. وسر الشباب.. وسر الأنوثة البكر المغلقة الأبواب..

وقد بدأت هى نفسها تحس انها كبرت، وبدأت تعى جمالها..

بل تعي انوثتها.. ولكنها كانت تفكر اكثر مما تحس.. كان عقلها انشط من انوثتها.. كان كل شيء يعرض لها مما يدور حولها يلتقطه عقلها ويحرك تفكيرها، ولذلك ظلت باردة الانوثة.. وظل قلبها دائما خاليا إلا من ذكرى ابيها..

ولم تحاول امها أو شقيقتاها ان يدفعنها الى شيء.. لم يحرضنها على الاشتراك معهن فى سهرات الليل، ولم يضعن امامها رجلا من الرجال الذين يترددون على البيت.. تركنها حرة، ترقد فى فراشها كما تشاء، وتنطوى ما شاء لها الانطواء، وتقفل باب حجرتها بالمفتاح..

كل ما هنالك ان امها كانت تقول احيانا وهى تنظر اليها كما تنظر الى عمارة جميلة تبنيها وترفعها دورا بعد دور:

– والنبى ما انا عارفه بتمائى عنيكى فى المذاكرة على أيه.. آل الدكتوره آل.. ده أنا لو كنت منك كان زمانى جبت الطب كله تحت رجليه من غير ما اقرا ولا أذاكر!!..

وكانت خديجة تقول لها احيانا:

– اظن حضرتك فاكره ان العرسان حيجولك لحد عندك.. ويخبطوا عليكى الباب.. الجواز بأه خطف ياحبيبتى.. اللى تخطفيه تتجوزيه..

وكانت فايزة ترد:

– ومين قالك انا عايزة اتجوز.. انا مش حتجوز طول عمرى!!..

وترد خديجة ساخرة:

– العفو.. يا شيخة فايزة!!..

وكانت فوقية تهمس فى اذنها احيانا اخرى!

- شفتى الجدع اللى كان مع شوكت بيه النهارده.. ده شافك وانت داخله.. وكان حيتهبل عليكى..

ولم تنته كل هذه المؤثرات الى شىء..

الى ان كان العام الماضى.. فى اغسطس على وجه التحديد.

دق جرس الباب وكانت بجانبه صدفة ففتحته عن شاب صغير السن لا يتجاوز العشرين من عمره، وسيم، خجول.. ما كاد يرفع عينيه اليها حتى خفضهما بسرعة، وقال فى صوت خافت متردد:

- اسماعيل بيه هنا؟..

وأجابته وهى تفحصه بنظراتها:

- أظن.. لا زم يكون هنا.. اتفضل!!

ودخل.. وكانت فايزة تعتقد ان اسماعيل موجود فعلا بحكم العادة ولكنه لم يكن موجودا، فأظهرت آسفها..

وتردد الشاب قليلا ثم قال:

- والله هو ادانى ميعاد هنا.. و..

وقاطعته فايزة:

- يمكن اتأخر شوية.. اتفضل زمانه جاى..

وجلس.. وجلست معه..

وجاءت خديجة وفوقية على صوت جرس الباب، فوجدتا اختهما جالسة الى الشاب.. ودهشتا حتى كادت الدهشة تقفز فى صرخة، فقد كانت المرة الأولى التى تقبل فايزة ان تجلس فيها مع احد من اصدقاء البيت.. كانت لا تلتقى بواحد منهم حتى تشيح عنه بوجهها، واذا اضطرت ان تحييه القت تحيتها كأنها تغمد فى

صدره خنجرا..

وكتمت الاختان دهشتهما وتغامزتا.. ثم تقدمت خديجة مرحبة:

- اهلا مصطفى.. اسماعيل زمانه جاى..

وقالت فوقية كأنها تحتفل بمناسبة هامة:

- الليلة لازم تشرب يا مصطفى.. ويسكى ولا براندى؟!!

وقال مصطفى وهو لايزال خجلا:

- مرسى.. انت عارفة انى ما باشربش!!..

- ولا علشان خاطرى .. طيب بلاش خاطرى.. علشان خاطر فايزة!!..

ورفع عينيه الى فايزة وكأنه لم يرها بعد، ثم قال فى صوت خفيض:

- فايزة ما ترضاش تتعبنى!!..

وابتسمت فايزة.. وكانت تريد ان تكون ابتسامتها ساخرة، ولكنها صدرت رغما عنها ابتسامة حلوة هادئة كأنه حرك فيها شيئا لم يتحرك من قبل.

وجلس الجميع يتحدثون.. ثم قامت خديجة واستأذنت وخرجت الى غرفتها.. وبعد قليل لحقت بها فوقيه.

واصبحا وحدهما..

وعرف انها طالبة بكلية البنات..

وعرفت انه طالب فى الجامعة..

واستزادته من الحديث عن الجامعة.. عن فتياتها، وعن حوادثها.. وعن اساتذتها.. وعن نظامها.. وكأنه كان يحدثها عن احلامها.. وكان دائما فى حديثه مهذبا، تطل كلماته من بين شفتيه

فى بطء ممتع، حتى شغلت بكلامه عن نظرات عينيه التى كان يطلقها عليها من حين لحين..

كانت بريئة فى جلستها معه..

وظنت انها وجدت اخيرا الانسان الذى يفهمها ويحترمها..

ثم جاء اسماعيل «بيه» وجاء معه بعض الاصدقاء، وجاءت الام والأختان.. وفتحت زجاجات الويسكى والصودا.. ومدت اطباق المزه..

وظلت جالسة بين كل هذا، مستمرة فى الاستماع اليه، وكأن كل ما يدور حولها ليس فيه شىء تستهجنه، أو شىء تعيبه.. بل انها فى هذه اللحظة نسيت كل عذابها.. نسيت كل شىء حتى ذكرى والدها..

وكانت امها واختاها يرقبنها من بعيد، والفرحة تطوف بهن وكأنهن انتصرن اخيرا على الحصن الحصين..

الى ان همس فى اذنها:

– تيجى نتكلم فى البلكون بعيد عن الدوشة دى..

وخرجت معه الى الشرفة..

وعادا الى حديث الجامعة.. وهما متكئان على حافة الشرفة ولكنها بدأت تلحظ انه يقترب منها شيئا فشيئا.. وبدأ عقلها يتنبه حتى يطغى على احساسها..

ثم بدأت تحس بذراعه يتلصص نحو خصرها.. الى ان امسك به..

وسكتت قليلا ريثما تسيطر على الثورة التى بدأت تندلع فى رأسها..

ثم أحسست انه سكت عن الكلام، وانه بدأ يمد وجهه الى وجهها، وقبل ان يلمسها بشفتيه، استدارت له فجأة، وقالت فى صوت غاضب كأنه صراخ خافت:

–عايز ايه؟!

وارتبك وقال ملجلجا:

– ولا حاجه يا افندم.. ولا حاجة!!

وقالت وهى تنظر اليه فى تحد وغضب:

– لأ.. كداب.. انت كنت عايز حاجه.. خليك صريح!

– بس.. انا.. اصل..

– كنت عايز تبوسنى.. مش كده؟!

وكأنه اسقط فى يده، فقال فى استسلام:

– فعلا..

وقاطعته:

– ليه؟..

قال وهو يرفع يده الى ياقة قميصه كأنه يختنق:

– علشان.. علشان.. علشان باحبك!!

قالت وهى تسخر منه:

– بتحبنى .. عال .. كويس خالص .. اتفقنا ... يعنى حضرتك عايز

تتجوزنى ؟!

وتراجع كأنه بوغت :

– ايه .. اتجوزك !!

– طبعا .. مش اللى بيحب واحدة يتجوزها ؟!

وقال وهو يضبط أعصابه حتى لا يصرخ فى وجهها :

– بس المسألة دى عايزة تفكير ..

– والبوسة .. مش عايزة تفكير أظن .. لما حضرتك تتجوزنى .. ابقى

تعال بوسنى !!

وخرجت من الشرفة، وهرعت الى غرفتها دون أن تلتفت الى أحد فى طريقها .. وأغلقت الباب بالمفتاح ..

ولم تشترك فى سهرة من سهرات الليل بعد ذلك ..

وفشل الجميع فى اقناعها بأن تكرر خطأها ..

وعكفت على دروسها .. حتى نالت شهادة التوجيهية فى آخر العام ..

هذه هى قصة فايزة التى تستعرضها فى خيالها كل ليل، ثم تضعها تحت الوسادة وتنام ..

وكانت الساعة الرابعة صباحا عندما استيقظت مذعورة من نومها فى تلك الليلة على صوت طرقات عنيفة على بابها ..

وسمعت صوت المخمور مرة ثانية قائلا :

– ماتفتحى ياشيخة فايزة .. الفجر أذن !! ..

ثم سمعت صوت أختها :

– ماقولتلك أبعد عن الباب ده .. بعدين جازعل معاك !!.

وأضاءت فايزة النور ، والتفتت فوجدت بجانبها الكتاب الذى تقرأه، وقرأت على غلافه بحروف كبيرة اسم المؤلف : منير حلمى..

وقالت وهى تبتسم وكأنها تسخر من عذابها :

٢

- عاجبك كده يا أستاذ ؟!! ..

وأطفأت النور .. وأخرجت قصتها من تحت الوسادة .. وأخذت تستعرضها فى خيالها من جديد ..

وعادت فايزة ذات مساء من السينما وهى تتصور نفسها طول الطريق بطلة الفيلم الذى شاهدته ..

كانت دائما تعيش فى خيالها، وتعيش فى كل ما يحرك هذا الخيال .. تعيش فى كل فيلم تشاهده وفى كل قصة تقرأها ولكن لم يستطع شىء فى كل ما شاهدته أو قرأته أن يستحوذ على خيالها قدر ما استحوذت عليه قصص الأستاذ منير حلمى.

ان قصصه كلها تصور الحب العف الشاعرى ، وبطلاته

كلهن عفيفات شريفات .. كلهن يهبن أرواحهن للحب ، ويحفظن أجسادهن للحب ..

وقد استبد بها خيالها حتى أصبحت لا تفرق بين الخيال والحقيقة ..أصبحت تتصور الأستاذ منير حلمى بطلا لكل قصة يكتبها، وأصبحت تتصور نفسها بطلة لكل قصة من هذه القصص .. ثم انتهى بها الخيال الى ان اصبحت تعتقد أنها تحب الاستاذ منير حلمى فعلا، وأنه يحبها بخياله هو الآخر.. وان كل قصة يكتبها ما هى الا خطاب غرامى لها وحدها.

وكان هذا هو ضعفها الوحيد..

كانت قوية فى كل شىء.. قوية فى عدم الانسياق للتيار الفاجر الذى انساقت اليه تمها واختاها.. وقوية فى مقاومتها للاغراء الذى يطوف بها.. اغراء الشباب والمال اللذين يفدان الى بيتها كل مساء.. وقوية فى استمرارها فى الدراسة رغم كل الظروف التى تحيط بها.. وقوية فى حرصها على ذكرى أبيها، واحترام هذه الذكرى رغم السنين التى مضت على وفاته..

ولكن ضعفها كان فى خيالها الذى استولى عليه الأستاذ منير حلمى بقصصه..

ووصلت الى بيتها..

وأخرجت المفتاح من حقيبتها وفتحت الباب.. وكل واحدة من الأخوات الثلاث تحمل مفتاحا للباب، وكل واحدة منهن لها الحق فى أن تخرج وقتما تشاء.. وتعود وقتما تشاء.. وامهن لا يهمها أن تذهب بناتها أينما شئن.. كل ما يهمها هو الا تخفى واحدة منهن عليها أين كانت واين ذهبت!!..

وسارت فايزة داخل البيت فى طريقها الى حجرتها، وألقت نظرة على «الصالون» حيث تقام سهرة كل ليلة.. وكادت تستمر فى طريقها، ولكنها وقفت فجأة كأنها تسمرت فى مكانها.. ثم ادارت رأسها وعادت تنظر داخل «الصالون».

انه هو..

هو بعينه..

هو كما رأت صورته فى الصحف.. الوجه الهادىء.. الوسيم.. كأنه طيف من عالم الخيال، والعينان الصافيتان كأنهما لم تقعا أبدا على شر يعكرهما، والشفتان الغليظتان، كأنهما اكتنزنا بتنهداته، والشعرات البيض فى فوديه.. كأنها اجنحة ملاك والابتسامة الحنون كأنها رسالة يحملها نبى لاسعاد البشرية..

انه الاستاذ منير حلمى.. الكاتب الكبير!!..

ومرت برأسها عواصف من الفكر..

ترى لماذا جاء الى هنا؟!!..

هل هو واحد من هؤلاء الرجال الذين يفدون الى البيت كل ليلة، يسكرون ويصخبون ويعربدون حتى تتعب منهم شهواتهم فتتركهم نياما او اشبه بالنيام؟!!..

وقال لها خيالها: مستحيل.. الف مرة مستحيل.. لا يمكن ان يكون منير حلمى واحدا من هؤلاء الرجال.. لا يمكن ان يكون بطل هذه القصص العفة.. بطلا لقصة دنسة!!..

هل جاء يبحث عنها؟..

وقال لها عقلها الواعى: مستحيل ايضا. انه لم يعرفها ولم

يسمع بها..

اذن لماذا جاء؟..

واشترك خيالها وعقلها الواعى فى نسج جواب يرضيها: لقد جاء ليرى الدنيا على حقيقتها.. نزل من سمائه الى الارض بحثا عن متاعب البشر ليخفف عنهم ويرسم لهم طريق السعادة.. الطريق الذى تبحث عنه هى منذ مات والدها!!..

وتحركت من وقفتها واتجهت الى الصالون كأنها تسير فوق طيات خيالها..

وكان منير حلمى جالسا بين بقية الرجال يرشف كأسه.. وقد جلست بجانبه اختها فوقيه وكأنها تجلس على ركبتيه، وجلست بعيدا عنه خديجة، وبجانبها اسماعيل «بيه» ثم امها وبجانبها شوكت «بيه»، ثم ثلاثة او اربعة من ذيول اسماعيل وشوكت ويتبارى كل منهم في القاء نكتة يضحك لها الجميع غير سماحيتها ويتبارى كل منهم فى شرب اكبر عدد من كؤوس الويسكى، وفى التهام اكبر عدد من اطباق المزة..

وكانوا جميعا منهمكين فى صخبهم وضحكهم فلم يلاحظوا فايزة وهى تسير اليهم فى خطواتها البطيئة المترددة..

وسارت حتى وقفت بجانب منير حلمى.. ثم قالت وهى لا تنظر إلا اليه:

- الأستاذ منير حلمى؟!!..

وتنبه الجميع اليها، وصاح شوكت:

- أهلا بالشيخة فايزة.. خطوة مباركة!!..

وصرخ واحد من الدلاديل فى لهجة عسكرية:

- مدرسة!!..

ثم رفع يده الى جبينه بالتحية العسكرية وهو يضحك ساخرا..

ولحظ اسماعيل تعلق عيني فايزة بمنير.. فقال ضاحكا:

- سرك باتع يا أستاذ منير!!.

وقالت الأم وابتسامتها تكاد تسقط على صدرها من فرط خلاعتها:

- دى بنتى فايزة يا أستاذ منير.. بنت مدارس.. وعمرها ما ترفع عينها عن الكتاب.. خصوصا اذا كان كتاب من كتبك..

ونظر اليها منير حلمى، وفى لمحة كان قد وعى القوام الذى يتثنى فى رقة وخفر كأنه يتأوه من الألم، والبشرة السمراء والشفتين الحالمتين وقد نامت احداهما فوق الاخري كأنها تتدفأ بها والشعر الطويل المضفر فى ضفيرة طويلة تلقيها فوق ظهرها كأنها تحوى فى طياتها سرها.. سر الجمال.. وسر الثياب.. وسر الأنوثة البكر المغلقة الأبواب..

وقام منير واقفا وبين شفتيه ابتسامة هادئة كأنه يستنكر بها كل هذه الضجة التى أثارها الصحاب، وقال وهو ينظر فى عينيها:

- تشرفنا يا فايزة هانم..

ومد لها يده.. فوضعت فيها يدها مترددة كأنه انسان غير قابل للهمس..

وقالت فى صوت خفيض:

- أنا تشرفت قوى يا أستاذ.. عمرى ما تشرفت قوى اد

النهاردة!!..

وللأستاذ منير حاسة سادسة يعرف بها قارئاته والمعجبات بقصصه، وقد عرف بحاسته ان فايزة واحدة من المعجبات..

وهو يستقبل جميع قارئاته بشخصية خاصة يضع نفسه فيها.. شخصية الأستاذ الكبير الرقيق الذى يعيش فى خياله، والذى يعرف أسرار القلوب، ويعرف لكل سر مفتاحه.. شخصية الطبيب المخلص الذى يضم مرضاه بقلبه الكبير ويعرف لكل مرض علاجه..

وقد تقمص شخصيته هذه بمجرد ان وضع يده فى يد فايزة..

ونظرت فوقية الى اختها دهشة للحيرة والتردد اللذين تعانيهما.. نظرت الى الوجنتين السمراوين وقد احتقنت فيهما الدماء فبدتا فى لون قشر الرمان، والى الشفتين المرتعشتين كأنهما لم تعودا تطيقان ثقل مافوقهما من أنفاس.. ثم قامت من مكانها قائلة وهى تنظر الى اختها نظرة عطف:

– تعالى يا فايزة.. تعالى اقعدى هنا جنب الأستاذ!!

وقالت فايزة فى صوت خجول:

– مرسى..

ثم جلست وجلس الأستاذ بجانبها وهو متقمص شخصيته الخاصة بالمعجبات بقصصه!!

ومد يده الى كأسه يرفعها الى شفتيه..

ونظرت فايزة الى الكأس، وكأنه انقلب الى كأس من النور المذاب فى يد منير، فلم تمتعض، ولم تستنكر، وقالت وكلماتها لا

تزال تعانى الخجل:

- ما تتصورش انا معجبة بقصصك أد ايه يا أستاذ.. ما فيش قصة كتبتها الا لما قريتها و..

وصاح اسماعيل عندما رأى ارتباك فايزة:

- شد حيلك يا أستاذ..

وصاح واحد من الدلاديل فى صوت عال:

- نوبه واحد جه يشد حيله انقطع منه!!.

وثارت الضحكات.. وترددت كلمات «قديمه».. «بايخه»..

ولم يشترك الأستاذ منير فى الضحك ولا فى التعليق على النكتة «البايخة» انما ظل محتفظا بابتسامته الهادئة التى تحتمها عليه شخصيته التى تقمصها منذ دخلت فايزة..

شخصية المؤلف الكبير!!.

ونظرت فايزة الى الجميع فى غضب واشمئزاز.. ثم استراحت نظراتها بعد قليل، وعادت تقول لمنير:

- انما يا استاذ ماكانش حقك تعمل فى نينى كده.. دى بنت غلبانه ومالقيتش حد يفهمها..

وبوغت الاستاذ وقال كأنه يصد عن نفسه اتهاما:

- نينى مين؟..

وقالت فايزة كأنها تستنكر منه ان ينسى نينى:

- نينى.. بطلة قصة «قلبى لك»!!.

واستراح الاستاذ، وقال استعاد شخصية المؤلف الكبير:

- آه.. أصلى ما كنتش فاكر انك قريتى القصة.. و...

وقاطعه اسماعيل صائحا:

.. جرى ايه يا استاذ.. مالك بقيت حنيّن كده.. أنت ناوى تبتدى قصة جديدة ولا ايه؟!!.

وقالت خديجة:

– لا يا أستاذ خد بالك قوى.. مش كل القصص اللى يتاكل لحمها؟!!..

وضحك الجميع فى صوت كالصراخ..

وقالت فوقية وهى لا تزال تضحك:

– والنبى لخليّه يكتب قصتى.. يعنى انا ما جيش أحسن من ناريمان اللى كتب توفيق الحكيم قصتها.. على الأقل قصتى حتكون جديدة وماحدش عارفها!!..

وردت امها:

– والنبى تتلهى.. أيش وصلك انت للملوك علشان يكتب عنك توفيق الحكيم!!..

وقال شوكت للأم، وكرشه يهتز أمام ضحكاته:

– أما انت يا توحيدة، قصتك ما يكتبهاش إلا فكرى أباظة.. اصلكم من جيل واحد!!.

ولم يشترك منير فى كل هذا الضحك انما ظل متمسكا بابتسامة الهادئة..

ونظرت فايزة الى الجميع كأنها تطلق عليها الرصاص من عينيها، ثم قالت هامسة فى اذن منير:

– انا لازم اشوفك يا استاذ.. عندى كلام كتير لازم اقوله لك.. ومش حاقدر أقوله هنا..

وقال منير وهو يحاول ألا يسمعه احد:

- اضربيلى تليفون فى البيت بكره الصبح.

ثم استطرد:

- النمرة فى الدفتر.

وابتسمت فايزة كأنها حققت كل آمالها فى الحياة، وعادت تهمس فى اذنه:

- أنا حاقوم دلوقت.. وبكره الصبح بدرى..

وقاطعها منير:

- بلاش بدرى دى!..

واتسعت ابتسامة فايزة.. واستطردت قائلة:

- طيب بكره مش بدرى حضربلك تليفون.. أنا آسفه.. انما ما اقدرش اقعد فى الجو ده. تصبح على خير..

وقال منير وهو يلتقط يدها فى الخفاء ويضغط عليها:

- تصبحى على خير.. الى الغد!!..

ونظرت اليه فايزة فرحة به وبلقائها به.. ثم قامت.. ودون ان تحيى أحدا خرجت متجهة الى غرفتها.. وسمعت شوكت يصيح وراءها:

- جرى ايه يا شيخة فايزة.. ما كنا قاعدين!!..

وسمعت اسماعيل يرد عليه:

- سيبها ياسيدى.. لحسن لو قعدت كمان شويه حتبتدى تلقى علينا مواعظ..

وسمعت أمها تقول:

- هيّه كده.. الحلو ما يكملش!!.

وعادت فوقية تجلس بجانب منير وكأنها تجلس على ركبتيه،

ولم تسمعها فايزة، وهى تقول له:

- جرى ايه يا سى منير.. أنا شايفه عينيك ابتدت تزوغ!!

وكان منير قد خلع شخصية المؤلف الكبير، ومد ذراعه يحيط بها خصر فوقيه، وقال وهو يلصق شفتيه بكتفها العارى:

- أنا طول عمرى عينى زايغة عليكى!!..

●

ولم تنم فايزة ليلتها..

كانت صورته تملأ رأسها وقلبها، وتملأ فراغ حجرتها، وقد حققت لها هذه الصورة كل خيالها.. انه نفس الرجل الذى كانت تتخيله من خلال قصصه.. نفس الصوت العميق الذى كانت تتخيل انه يحدثها به، ونفس الابتسامة الهادئة التى تعبر عن ثقة صاحبها بنفسه، والتى كانت تتخيله يستقبلها بها كلما فتحت كتابه.. ونفس الاصابع الرفيعة الطويلة -أصابع الفنان- الذى كان يداعب بها خيالها..

وأخذت تعد ما تقوله له فى الصباح عندما تحادثه فى التليفون..

هل تبدأ فتروى له قصتها من أولها الى آخرها كأنها «تسمع» كتابا.. ثم تسأله رأيه، كما تفعل البنات مع محرر «جراح قلب»؟!؟..

هل تحدثه اولا عن قصصه التى قرأتها ومشاكل ابطالها ورأيها فيهم؟!!..

هل تبكى فى أذنيه وتستحلفه ان ينقذها من هذه البيئة التى تعيش فيها؟..

ولم تنته الى قرار..

وقامت الصباح مصفرة الوجه من طول أرقها، ولكن فى عينيها بريق قوى مرح كأنها ترى بهما دنيا جديدة..

ومرت الساعات بطيئة، تحاول ان تشغل نفسها بشىء... وكل مافيها مشغول به..

وفى الساعة الحادية عشرة، أمسكت بسماعة التليفون بيد مرتعشة وأدارت الرقم الذى كانت قد حفظته عن ظهر قلب.

وسمعت صوتا كسولا كان صاحبه لا يزال فى فراشه..

وقالت وكلماتها تتعثر بين شفتيها:

– صباح الخير.. انا فايزة..

وسمعت صوته:

– أهلا فايزة..

ونطق اسمها فى سهولة وبلا تكلف كأنه يعرفها من زمان طويل، وكأنه بات ليلته يحلم بها كما باتت تحلم به..

وقالت وكلماتها تتعثر فى خفقات قلبها:

– أنا صحيتك من النوم يا أستاذ؟..

– ابدا.. أنا صحيت مخصوص علشان أستنى تليفونك..

وقفزت من بين شفتيها صرخة فرح:

– صحيح؟!!

وتجاهل فرحتها وقال فى صوته العميق الكسول:

– كنت محتار عايزه تقوليلى ايه..

– عايزه اقولك حاجات كتير.. كتير قوى يا استاذ..

– يعنى اد ايه كده.. ساعة.. ساعتين..

- أنا خايفه اكون حاضايقك..

- ابدًا.. مستعد اسمعلك العمر كله.. بس انا دلوقت مشغول.. تحبى نتقابل احسن..

وقالت مترددة:

- فين؟..

- عندى.. فى البيت!..

صمتت قليلا كأنها تطرد شكوكاتريد ان تقفز الى رأسها، ثم قالت وقد فقد صوتها جرأته:

- ضرورى فى البيت؟..

وقال ضاحكا فى لهجة طبيعية:

- تحبى نتقابل فى القهوة؟!..

وقالت كأنها تصدقه:

- لأ.. بلاش القهوة.. البيت احسن.. بس..

- الساعة تسعة؟!..

- يا خبر.. ده متأخر قوى يا استاذ!

- طيب نخليها سبعة يا استاذه!!.

- مش ممكن تبقى الساعة اربعة؟!..

- إلا أربعة دى.. أنا كل يوم من تلاته لسته تقدرى تعتبرينى فى حكم الميت!!..

وقالت مخلصة:

- بعد الشر عليك.. طيب الساعة سابعة.. بس مش حاتأخر!..

على اد حكايتك!!..

- أورفوار..

ووضعت سماعة التليفون.. وهى فى شبه ذهول لا ترى من خلاله شيئا.. ولا تحس بشىء.. وحاولت ان تسيطر على ذهنها لترتب القصة التى ستروويها له فى بيته، وحاولت ان تتصور شكل هذا البيت ونظامه، وحاولت ان تتصور نفسها وهى داخله للقائه.. هل تبتسم ابتسامة واسعة ام ضيقة، وهل تقول له «بونسوار» ام تقول «مساء الخير».. ولكن كل محاولاتها لم تكن تنتهى إلا بصورة مهزوزة لا تستطيع أن تلمح فيها نفسها ولا طريقها ..

ووقفت أمام المرآة تستعد للذهاب اليه.. وربما انتقت لنفسها أحب ثوب اليها، وربما اهتمت اكثر من العادة بعقص شعرها الطويل الجميل فوق رأسها، وربما أطالت الوقوف امام مرآتها.. ولكنها لم تشعر بكل هذا.. كانت لا تزال فى شبه ذهول، وكانت الرهبة تملأ صدرها مما هى مقدمة عليه.. رهبة كانت فى حاجة الى كل ارادتها لتتغلب عليها، وتقدم هادئة مطمئنة لا خائفة ولا مترددة.

ولم تدر سببا لرهبتها..

انها ليست ذاهبة الى موعد غرامى.. انها ذاهبة اليه لتروى له قصتها، كما تذهب الى طبيب تسأله العلاج.. فلماذا ترهب الطبيب؟..

وهى ليست ذاهبة الى بيت رجل.. انها ذاهبة الى ملاك.. ملاك من ملائكة الفضيلة ومن ملائكة الخير.. فلماذا ترهب الملاك بدل ان تطمئن اليه؟!

ووصلت الى العمارة الأنيقة التى يسكن فيها، وخيل اليها

انها نسيت رقم الشقة، فأخذت تنظر فى البطاقات الملصقة بصناديق البريد المعلقة بجانب الباب..

ولمحها البواب.. ونظر اليها طويلا، ثم تقدم اليها قائلا:

– حضرتك عايزه شقة الاستاذ منير.

وبوغتت كأن سرها انفضح، وقالت على استحياء:

– ايوه..

– شقة نمرة ١٢..

واتجهت فايزة الى المصعد، ولكنها قبل ان تصل اليه استدارت الى البواب وسألته فى لهجة حازمة وكأنها استردت كل ارادتها:

– ايه عرفك انى طالعة للأستاذ منير؟

وابتسم البواب ابتسامة خبيثة، وقال:

– انا بقالى بواب فى العمارة دى سبع سنين.. والاستاذ منير ساكن هنا من سبع سنين!!

ولم تفهم فايزة شيئا، او لعلها لم تحاول ان تفهم، ووجدت انها لا تستطيع ان تستمر فى مناقشة البواب، فاتجهت الى المصعد..

ووصلت..

وضغطت جرس الباب..

وفتح لها بنفسه.. وهو مرتد سروالا وقميصا وسترة منزلية من الصوف، ومرتد ابتسامته الهادئة الوديعة..

ومدت له يدها..

والتقطها كأنه لن يتركها ابدا، وقال من خلال ابتسامته:

- يا.. ده انت ايدك ساقعة قوى..

ولم تقل شيئا، واستطرد:

- لازم قلبك حامى زى النار..

وأدارت عينيها فى انحاء البيت.. ان كل شيء فيه انيق فخم مرتب.. مرتب اكثر من اللازم.. وكأن كل شيء اعد خصيصا لاستقبالها، وكأن كل مقعد يفتح ذراعيه ويغريها بالجلوس عليه.

واختارت مقعدا جلست عليه.. وتعمدت ان يكون مقعدا بعيدا عن المائدة الصغيرة التى تحمل زجاجة الويسكى وزجاجات الصودا ووعاء الثلج..

ولكنه لم يتركها فى جلستها.. فقد جلس على الأريكة، وأشار لها على مقعد بجانبه ودعاها اليه..

وترددت..

وقال وهو يحاول ان يضع كل فنه فى ابتسامته..

- ما تقعديش بعيد عنى، لأن صوتى مبحوح، ومش حاقدر ازعق!!.

وقامت وجلست حيث اراد..

وقال وهو يمد يده الى زجاجة الويسكى..

- صودا ولا ميّه؟!

وقالت فى صوت خفيض:

- مرسى، مابشربش!!

وبدت فى عينيه نظرة تعجب، ثم قال:

- تحبى تشربى كونياك..

- مرسى، ولا كونياك!!..

– كأس واحد علشان تدفى!!..

ونظرت اليه نظرة عتاب، وقالت وكأنها لا تدرى من اين تبدأ:

– انت كمان يا استاذ، فاكرنى زى اخواتى..

واتسعت نظرات التعجب فى عينى الأستاذ وقال:

– مالهم اخواتك؟..

– يعنى مش عارف؟..

– ما أعرفش إلا انهم ناس طيبين!!

– لك حق.. انت طول عمرك بتكتب عن الفضيلة والشرف، وعن الناس اللى بيحافظوا على سمعتهم وعلى كرامتهم.. ما تقدرش تتصور ان فيه ناس غير اللى بتكتب عنهم فى قصصك.. ناس يموت الراجل بتاعهم فيموت معاه شرفهم وسمعتهم و..

وسكت لتخرج من حقيبتها منديلا تجفف به دموعا بدأت تقفز من عينيها وتسقط على وجنتيها كقطرات الندى فوق أوراق الورد..

ورفع منير يده عن زجاجة الويسكى، ونظر اليها متسائلا كأنه لم يكن ينتظر منها دموعا او كأنه لم يعد نفسه ليتلقى منها هذه الدموع..

ثم امسك بيدها، وقال مواسيا وكأنه يزفر عن نفسه خيبة أمله فيها..

– احنا حنبتدى نعيط من الاول كده..

واحس بيدها مستسلمة فى يده، فمد يده الاخرى واخذ يمسح بها على شعرها ثم اسقطها حتى وصل بها الى كتفها،

وقال وهو يحاول ان يضغطها اليه:

- خلينا الاول نسمع الحكاية كلها.. وبعدين نعيط مع بعض!!..

ولم تحس فايزة بيده وهى تضغط على كتفها، ولم تحس بيدها وهى مستسلمة فى يده الأخرى، وانما بدأت تروى قصتها، واحس هو أنها قصة طويلة، وانها منفعلة فى روايتها الى حد لن تنتبه له.. فسحب يده من فوق كتفها، وسحب يده الاخرى من يدها.. وجلس يستمع اليها.. وأمره لله!!..

وروت له قصتها كلها..

كيف أحبت اباها.. وكيف كان يدللها دون اختيها.. ثم كيف مات وهو يحاول ان يضمها الى صدره.. ثم كيف رأت امها تستقبل رجلا غريبا فى البيت بعد اسبوعين من موته.. ثم كيف تعدد الرجال الذين يترددون على البيت واشتركت اختاها فى استقبالهم، وكيف اصبحت ليالى الخمر والعربدة طابع العائلة كلها.. وكيف بدأ الجيران يتهامسون عليها، وكيف بدأت زميلاتها يتقولن عليها، وكيف انتقلن الى بيتهن فى الجيزة لتستمر الليالى دون ان يعكرها همس الجيران.. وكيف اصبحت تكره الرجال كلهم وتعتقد ان كلا منهم لا يحترمها ولا يقيم وزنا لكرامتها، انما يريدون منها ما يأخذونه من امها واختيها..

وقالت وهى تلفظ آخر دموعها:

- الفستان اللى انا لابساه ده.. ما أعرفش فلوسه مين دفعها شوكت ولا اسماعيل ولا محمد ولا على.. عمرى ما أطلب حاجة الا ونينة تجيبها لى، ومن غير ما أطلب كل يوم تجيب لى حاجة شكل. وكل ما ألبس حاجة احس انها بتشكنى فى كل حته من

جسـمى.. كنت افضل البس خيش من فلوس بابا، ولا ألبس الحرير من فلوس الغريب!!

واستمع منير الى القصة وهو يتأرجح بين الملل والتأثر.. كان ملولا لأنه لم يكن يعتقد انه سيقضى ليلته فى سماع قصة تصله مثلها عشرات القصص فى خطابات قرائه، وكان متأثرا لان القصة حركت فيه قلب الفنان الذى يحس بعذاب الآخرين.

وقال، وهو يحس انه فعلا كاتب مسئول:

– انت كنت بتحبى بابا قوى؟..

– جدا يا استاذ..

– ولسه بتحبيه؟.

– جدا يا استاذ..

– ده السبب.. سبب عذابك، لأن بتشوفى الدنيا حواليكى بعينين والدك مش بعينيك.. مش قادرة تشوفى اللى بتشوفه نينتك او اخواتك.. وكل حاجة بتحكمى عليها بعقلية والدك.

كان لازم تحبى حد تانى.. عمرك ما حبيتى حد غير بابا الله يرحمه؟.

وقالت وهى تجفف مابقى من دموعها:

– ازاى؟!.. ايه هو الحب؟..

– يوم ماتحبى.. مش حتسألى ايه هوه الحب!!..

– الحب اللى أعرفه هو حب نينى وعادل فى قصة «قلبى لك» هو ده الحب اللى يعجبنى!..

– الخيال حاجه، والحقيقة حاجه تانيه..

قالت وهى لاتنظر اليه:

- انا شفتك فى الحقيقة، احلى ما كنت باشوفك فى الخيال.

ومد يده ووضعها فوق يدها، ونظر اليها وقد عادت ابتسامته بكل مافيها من فن مصطنع، الى شفتيه:

- صحيح؟!..

ولم تزد..

وعاد يلح:

- صحيح يا فايزة؟!!..

ولم ترد، انما جذبت يدها من تحت يده، وقالت هى تنظر الى ساعتها:

- ياخبر.. الساعة بقت عشرة.. انا اتأخرت قوى يا استاذ..

- ولم يلح عليها منير فى البقاء.. كان يعلم بالضبط اى نوع من الفتيات هى.. فتركها تقوم وتستعد للانصراف..

وقالت وهى تقف:

- ما تقدرش تعرف اد ايه ريحتنى يا استاذ!..

- وحافضل طول عمرى أريحك..

قالت وهى تقاوم حياءها:

- يعنى اقدر اتصل بيك فى التليفون؟!!

- وقت ما تحبى.. بس بلاش حكاية الصبح بدرى!!..

- حاضر يا استاذ..

وقبل ان يفتح لها الباب سألها وفى صوته احراج:

- انت حتقولى لحد من اخواتك انك كنت عندى؟..

وترددت قليلا، ثم قالت:

- بلاش أحسن.. بونسوار يا استاذ!!..

وقال وهو يمسك بيدها:

– وفيه حاجة تانية.. بلاش كلمة «استاذ» دى.. دمها تقيل على قلبى!!..

– حاضر يا استاذ:!..

– انا اسمى منير.. منير بس..

– تصبح على خير يا.. منير!!..

●

ولم تقرأ شيئا فى تلك الليلة عندما أوت الى فراشها، ولم تستعرض قصة حياتها كما تعودت ان تستعرضها كل مساء، ولم تشعر بالسخط على مايجرى فى بيتها، بل انها كادت تنسى ان تغلق بابها بالمفتاح كعادتها..

كانت فى جنة من اوهامها..

ونامت كما لم تنم ابدا.. كأن الدنيا ملك يديها..

وفى الساعة الحادية عشرة من الصباح التالى كانت تحادثه فى التليفون..

وفى الساعة السابعة من مساء نفس اليوم كانت تحادثه مرة اخرى فى التليفون..

وبدأت تحادثه كل يوم صباحا ومساء، وكانت فى أول الأمر تلتمس الأعذار لنفسها حتى تخاطبه، وكانت تبحث عن مشكلة جديدة، لتسأله رأيه فيها.. ثم لم تعد تلتمس عذرا ولا تبحث عن مشكلة، انما اصبحت تحادثه لمجرد سماع صوته ولمجرد ان يسمع صوتها. واصبحت تروى له كل تفاصيل يومها.. ماذا تلبس.. وماذا تأكل.. ومن تردد على البيت وماذا قالت اختها

خديجة او اختها فوقيه.. ثم اصبحت تسأله تفاصيل يومه، واصبحت تحس انها مسئولة عن سعادته وعن متاعبه مع الطباخ، ومع البواب، ومع ناشر قصصه.

ومرت اسابيع طويلة وليس بينهما سوى احاديث التليفون ولم يحاول خلال هذه الأسابيع ان يدعوها الى بيته مرة ثانية ولم يحاول ان يراها خارج بيته، ولم يحاول ايضا ان يكرر زيارته لبيتها، وعندما دعته هى لزيارتها.. قال فى لهجة جدية:

- لأ يافايزة.. انا ما باستحملش الجو اللى عندكم فى البيت!!..

وبدأت تحاول ان تراه، وتحاول ان يدعوها الى بيته.. ولكنه كان يتجاهل دائما محاولتها، الى ان صارحته مرة قائلة فى غضب:

- يعنى خلاص عمرنا ما حانشوف بعض تانى؟!!

وابتسم الاستاذ الذى يمسك بالطرف الثانى من التليفون وقال وفى عينيه نشوة النصر:

- انت اللى مش عايزه تشوفينى!!..

- وأشوفك ازاى.. بالتليفون برضه!!..

- يعنى فكرتى تيجى تشوفى الراجل اللى قاعد لوحده ده، جراله ايه؟..

وانطلقت انوار السعادة على وجه فايزة وقالت:

- وانت قلتلى تعالى ولا جيتش!!..

- طيب حاتيجى امتى؟!..

- بكره الساعة السابعة وقلبها يزفها اليه..

واستقبلها كما يستقبل الكاتب نهاية القصة..

ولم تجد المائدة التى تحمل زجاجة الويسكى وزجاجات الصودا ووعاء الثلج.. انما وجدت مكانها علبة انيقة مليئة بقطع الشيكولاته..

وقبل ان تحاول الجلوس على المقعد كان قد جذبها معه ليجلسها بجانبه على الأريكة وقال وهويضغط كفيها بين كفيه:

- انا حاسس انى مش حا قدر استغنى عنك ابدا يافايزة!

وقالت وابتسامتها تكاد تزغرد فوق شفتيها:

- انا خلاص ما بقتش أقدر اعيش من غير ما اسمع صوتك الصبح وبالليل، زى الدوا..

وقال وهو يقبل وجنتيها بعينيه ثم يطيل النظر الى شفتيها:

- انا المريض بوحدتى وانت دواى..

وقالت وهى تحس احساسا خفيا بأنها اقوى منه:

- بعد الشر عليك.. وبعد الشر على!!..

قال وهو يقترب منها اكثر:

- انا عمر خيالى ما اتحقق الا فيكى.. كل قصة كنت بأدور على بطلة من اوهامى.. النهاردة كل قصة باكتبها انت بطلتها.. انت خيالى اللى باكتبه وانت الحقيقة اللى باعيش فيها:.

ولم تكن تنتظر منه كل هذا الكلام العاطفى.. كان يبدو دائما، عندما يحدثها فى التليفون، اكثر صلابة، واكثر تمنعا، واشد قوة.. وربما فوجئت بكل هذه العواطف الفياضة، ولم تعد نفسها لها.. فلم تستطع ان تجاريه او ترد عليه، واحست بالارتباك واشتد ارتباكها وهو يزداد اقترابا منها، ثم وهو يميل بشفتيه على وجنتيها، ثم وهو يزحف بها حتى يلصقها بشفتيها..

وتنبهت طبيعتها التى تدفع عقلها الى ان ينشط اكثر من نشاط انوثتها، والى ان تلتقط ما يجرى لها بذهنها لا باحساسها واذا بها لاتحس بقبلته.. انما تفكر فيها.. بينما شفتاه لا تزالان فوق شفتيها.. ماذا يريد؟ ولماذا يقبلنى؟ وماذا بعد هذه القبلة؟..

واصبحت تحت وطأة تفكيرها كتمثال من الشمع، وارتفعت الدماء كلها الى ذهنها لتغذى نشاطه، فتركت بقية جسدها بلا دماء.. باردا كالثلج..

ولم تستطع انفاسه الساخنة التى تطوف بها ان تذيب برودتها..

وارتفعت سخونة انفاسه، كان كل ما فيه يغلى.. واشتدت برودة جسدها كأن كل مافيها يموت.. ثم أحست بيديه تضغطانها الى صدره، واحست بها تطوقان خصرها، ثم ترتفعان الى نهديها البريئين، ثم اذا بيديه ترتجفان فوق صدرها وهما يبحثان عن منفذ فى ثوبها لتصلا منه الى لحمها..

وانتفضت واقفة وهى تبعده عنها قائلة فى غضب:

– لا يا منير.. مش كده!!..

ولجأت الى آخر الغرفة، فلحق بها وأمسك بكتفيها ودفعها فى رفق حتى ألصق ظهرها بالحائط، وعاد يميل عليها بشفتيه ويملأ وجهه بأنفاسه الساخنة..

وتخلصت منه:

– بعدين أزعل معاك يا منير.. خليك عاقل!!..

وتركها تبتعد عنه، ووقف ينظر اليها فى قسوة كأنه يلومها لأنها لا تتقبل الذبح، ثم هدأت انفاسه قليلا، وقال وهو يفتح «البار» باحثا عن زجاجة الويسكى:

- أنا كنت فاكر انك بتحبنى..

وقالت دهشة:

- هو ده الحب؟!

- أمال فاكره الحب يبقى ايه.. راجل وست فى بيت لوحدهم ويبحبوا بعض... يعملوا ايه؟.. يلعبوا كوتشينه.. يقشروا بصل؟!

- انت عمرك ما فهمتنى ان الحب كده.. الحب اللى قصصك كلها بـ ...

وقاطعها صائحا:

- يا ستى تنحرق القصص على اللى بيكتبها..

- ماتقولش كده يا منير..

- انا اللى غلطان.. كنت ناسى انك عيلة صغيرة.. راجل زيى عنده ثمانية وثلاثين سنة ما يصحش يعرف بنت عندها سبعتاشر سنة..

- انا عندى تمنتاشر وثلاثة شهور..

- برضه لسه صغيرة..

وقالت وهى تحاول ان تحتفظ بهدوئها:

- غلطتك انك مش قادر تفرق بينى وبين اخواتى.. الجو اللى شفته فى بيتنا اداك فكرة غلط عنى!!

قال وهو لا يزال ثائرا:

- مالهم اخواتك.. على الأقل مش معقدين الدنيا زى ما انت معقداها!!

قالت وكأنها تعاتبه، وقد بدأت الدموع تطل من عينيها:

- انا مش معقدة الدنيا، الدنيا هى اللى معقدانى.. وما كنتش

منتظرة منك انك تقوللى كده!!

ونظر اليها.. الى الوجه البرىء الذى تعذبه الحيرة، والى العينين المخضلتين بالدموع، والى الشفتين المرتعشتين فى ضعف.. فأحس باليأس والندم.. اليأس، لأن الفتاة أقوى ان تلين بسهولة.. والندم لأن الخطة التى وضعها كانت تحتاج الى وقت اكثر مما قدر لها..

ماذا كان عليه لو انتظر هذه الليلة ايضا، حتى يزداد اطمئنانها اليه..

لقد تعمد ان يصبر عليها طوال الاسابيع الطويلة التى مرت وهما يتحادثان فى التليفون.. لم يدعها الى بيته، ولم يطلب رؤيتها، بناء على خطة موضوعة، حتى تثق به، وحتى تخطو هى الخطوة الأولى نحوه..

وقد خطت فعلا الخطوة الأولى.. واستقبلها بعد ان اخفى زجاجة الويسكى متعمدا، حتى يشعرها باحترامه لها.. ولكنه افسد كل خطته بتلهفه على تقبيلها وبالانقياد الى اعصابه الضعيفة التى لم تتعود مقاومة الجمال..

وأعاد زجاجة الويسكى الى مكانها قبل ان يفتحها..

وسكت طويلا.. وتركها تجفف دموعها..

ثم قال وهو يبدو متأثرا:

– انا فعلا غلطان يافايزة.. وغلطتى انى كنت صريح مع نفسى ومعاكى.. وما عملتش حسابك، نسيت انك بتسيئى الظن بكل الرجاله حتى انا.. ارجوكى ما تزعليش منى.. وأعدك ان اللى حصل مش حيتكرر تانى..

وقالت وهى تحاول ان تخفف عنه، وقد امتلأ قلبها حنانا:

- انا ما زعلتش منك يا منير، متهيألي انى عمرى ما حازعل على منك، وعمرى ما أسىء الظن بيك.. مين عارف.. يمكن انا اللى غلطانه.. انا مش فاهمه نفسى!!..

قال وهو لايزال متأثرا، وصوته جادا:

- انت مش غلطانة يا فايزة.. انت على حق.. انا اللى غلطان.. واكرر اعتذارى!

- تأكد انى مش زعلانة..

وسكت.. ولم يدعها الى الجلوس ليريحها من وقفتها، وظل واقفا بعيدا عنها، لا تلتقى عيناه بعينيها...

وشعرت كأنه لم يعد لديها شىء تقوله.. وان كل مواضيع الحديث له أغلقت فى وجهها..

فقالت.. وهى تمد يدها وتلتقط حقيبتها:

- اظن لازم انزل دلوقت، قبل ما تأخر..

ولم يرد عليها.. وتركها تلتقط حقيبتها وتسوى خصلات شعرها التى نزلت فوق جبينها، وتصلح من ثوبها..

ثم لما تقدمت نحو الباب، تقدم خلفها ومد لها يده مودعا..

وقالت وهى تلتقط يده:

- ما تزعلش منى يا منير.. حاول تفهمنى!

- انا مش زعلان.. وفاهمك كويس..

- أمال مالك مبوز كده؟..

- عندى حالة تأنيب ضمير..

- سلامة ضميرك.. قل له انى مش زعلانه علشان يستريح.

- حاضر..

– اسأل عليك بكره فى التليفون!!..؟

– طبعا..

– علشان على الأقل اطمن على صحة ضميرك..

وابتسمت كأنها تدعوه للابتسام معها..

ولكنه لم يبتسم..

وخرجت..

●

وعذبها فكرها.. طول الليل..

كانت تستعرض كل ما حدث.. كل كلمة وكل حركة.. ولم تكن تحاول ان تلومه.. بل كانت تحاول ان تجد عذرا له.

ولم تجد له عذرا إلا فى ان تتهم نفسها بأنها ليست فتاة طبيعية، وأن فيها شيئا ناقصا.. ربما كان شيئا فى تفكيرها، او شيئا فى طبيعة تكوينها او شيئا فى الحياة التى تحيط بها.

لماذا لم تتحمل قبلاته؟!!..

لماذا لا تبادله هذه القبلات؟!!..

انها تعلم ان اختيها توزعان قبلاتهما على الرجال بنفس الكرم الذى توزعان به اقداح القهوة وكؤوس الويسكى، دون ان تترك هذه القبلات اثرا.. فلماذا لا تكون كأختيها؟!!

لماذا تحمّل القبلة كل هذه المعانى المقدسة؟..

ولماذا تتهمه بأنه كان يريد اكثر من تقبيلها!!.

ثم انها تحبه.. تحبه قبل ان تراه وتحبه اكثر بعد ان رأته.. فلماذا لا تترك نفسها للحب يفعل بها ما يشاء، لماذا يتدخل تفكيرها فى كل شىء يريده قلبها؟.. ولماذا يقفز فى رأسها الف

جندى شاكى السلاح ليصدوا كل رجل يقترب منها، ويحاول ان يفتح امامها أبواب الحياة.. الحياة التى تنعم بها اختاها وأمها؟!..

وانتهى الليل دون ان تصل الى شىء ودون ان تفهم شيئا من نفسها..

وقامت فى الصباح التالى ضعيفة منهوكة القوى.. تكره الدنيا كلها..

وفى الساعة الحادية عشرة امسكت بسماعة التليفون، ولجأت اليه كأنه الأمل الوحيد لها فى الظلام الذى يحيط بها..

ووجدته ملولا لايطيق الحديث.. واعتذر بأنه على موعد هام..

واتصلت به مرة ثانية.. وثالثة.. ورابعة.. عشرات المرات..

ولكنه كان دائما باردا فى حديثه، متحفظا، يحول حديثه دائما الى قصصه والى اعماله الأدبية، ولا يتحدث عن نفسيهما ابدا. ثم كانت فى احيان كثيرة لا تجده وتحس انه ينكر نفسه، ولكنه فى الوقت نفسه لم يغلق امامها ابواب الأمل، كان دائما يترك لها شيئا تسعى وراءه من اجله.. كلمة او كلمتين.. يحتمان عليها ان تتصل به ثانية..

واشتدت بها الحيرة..

ولم تعد تطيق وحدتها.. كانت تقضى النهار كله تطوف وراء اختيها تحاول ان تفتح معهما موضوعا لحديث.. ولكنها لم تطلعهما على سرها ابدا، ولم تحاول ان تستشيرهما فى حيرتها، ولم تعلم واحدة منهما بما بينها وبين منير، كما ظلت حريصة على ألا تشترك فى سهرات الليل التى تقام فى البيت.. انما خصصت ليلها لعذابها..

وكانت فى حجرة اختها فوقيه -ذات نهار- جالستين على الفراش، وكانت فوقيه قد اخرجت صندوق حليها تقلب ما فيه.

والتقطت فايزة خاتما من داخل الصندوق ووضعته فى اصبعها واخذت تنظر اليه معجبة به، ثم قالت لأختها:

- الخاتم ده حلو قوى يا فوقيه.. ما شفتوش معاكى قبل كده..

وقالت فوقيه فى لهجة طبيعية:

- ده هدية من منير حلمى..

وقالت فايزة كأنها لم تسمع:

- من مين؟!!..

- من منير حلمى.. اللى بتعجبك قصصه..

وتعلقت عينا فايزة فى الهواء كأنها عينا مخنوق، وقالت هامسة فى صوت محشرج:

- مش معقول..

- ليه.. ده طول عمره كريم معايا..

- مش معقول..

وكأن فوقيه اغتاظت من سذاجة اختها فصرخت فيها:

- هو ايه ده اللى مش معقول؟..

وتحركت عينا فايزة وصرخت فى وجه اختها كأنها تندب نفسها:

- انت كدابة.. منير حلمى عمره ما جابلك هدايا..

وردت فوقيه صرخة اختها:

- ليه؟.. كتير على منير حلمى والا ايه؟.. اكمنه بيكتب

قصص.. ده انت عبيطه قوى يا اختى.. تحبى اجيبلك محمد التابعى بجلالة قدره لغاية عندى.. تحبى اجيبلك يوسف السباعى ببدلته الرسمى.. تجى افرجك على الصاوى ماشى على رجليه ويديه.. اندهلك احسان عبدالقدوس باشارة من صباعى وأحبسه تحت رجليه تلات شهور.. ولا يعنى علشان بيكتبوا فى الجرائد وناس مشاهير.. كلهم رجاله يا حبيبتى، وكل الرجالة بيجيبوا هدايا..

- كلهم إلا منير حلمى.. انت كدابه.. ستين كدابه!!..

- انت اتلطشتى فى عقلك ولا ايه.. ده أنا با عرفه بقالى أشهر وكل يوم والتانى بيقعد يبوس فى أيديه، ومسمينى «ملهمته».. تحبى اثبت لك..

وقامت فوقية ورفعت سماعة التليفون.. وأدارت الرقم.

ولاحظت فايزة أنها أدارت رقم منير حلمى بالضبط.. ودون ان تبحث عنه فى الدفتر.. ثم سمعت فوقية تتكلم:

- منير.. ازيك يا حبوب..

- لأ.. الليلة مش فاضية!!..

ولم تسمع فايزة شيئا بعد هذا، وجحظت عيناها وأحست أن ظلاما هائلا مخيفا يقترب منها شيئا فشيئا، ثم يلفها ويدور بها فى دوامة عنيفة قاسية..

وارتمت على الفراش..

وأنقذتها دموعها.. فأخذت تبكى، وتشد شعرها بيدها، وهى تهمس كأنها لا تريد أن يسمع أحد بمصيبتها:

- السافل.. السافل.. السافل..

٣

وعرفت فوقية ان اختها فايزة تحب الاستاذ منير حلمى، أو ان بينها وبينه شيئا... شيئا جديا خطيرا..

ونظرت اليها فى اشفاق، وهى لا تزال منطرحة فوق الفراش تبكى وتشد شعرها بيديها، وقالت فى صوت يقطر أسى ولوعة على شقيقتها:

- بس يا فايزة.. بلاش جنان.. حد يعمل كده!..

ومدت يدها تربت على ظهر اختها كأنها تنفض من فوقه ذرات الشجن.. فاستدارت لها فايزة وأزاحت يدها فى عنف، وهى تصرخ من بين دموعها:

- سيبينى .. ابعدى عنى.. مش عايزه أشوفك .. مش عايزه

اقعد فى البيت ده.. حرام عليكم يا اخواتى.. حرام عليكم تعملوا فيه كل ده!!..

- بس اعقلى ياحبيبتى.. أنا اختك يافايزة.. هدى نفسك وقوليلى على كل حاجه!..

وصرخت فايزة:

- لا انتى اختى ولا اعرفك.. ومش حاقولك على حاجة.. كفاية.. يا ناس!..

وقالت فوقية كأنها تحادث نفسها:

- يعنى ما يجيش اول بختك الا فى منير حلمى!!..

وعادت فايزة تصرخ كأنها جنت:

- ما تجبيش الاسم ده على لسانك.. ارحمينى وارحميه.. حرام عليكم يا اخواتى!..

وقالت فوقية وهى تحاول ان تستدرج أختها:

- أيوه انت تستحقى الرحمة.. انما هو ما يستحقش الا النار.. ده راجل مش مخلى واحدة ست.. زى التعبان.. يفضل يدحلب ويدحلب لغاية ما يقرص.. وقرصته بالسم!..

ونظرت فايزة الى اختها فى حقد كأنها تحاول ان تخنقها بنظراتها، وقالت وقد تبخرت دموعها فى نار حقدها:

-انتم الثعابين.. ماله منير حلمى.. ذنبه ايه؟!.. اذا كان ملاك انتم اللى فسدتوه.. واذا كان راجل انتم اللى اترميتوا عليه وخسرتوه.. عايزاه يعمل ايه علشان تبعدوا عنه؟.. يضربكم بالكرابيج.. ينشكم زى الدبان؟!..

وصرخت اختها فى وجهها:

– اخرسى قطع لسانك.. آل دبان آل.. ده فضل يجرى ورايا لما حفيت رجليه.. ما خلاش حاجة ما عملهاش..

واستطردت وهى تفتح دولاب ملابسها وتخرج منه قطعة من الفراء:

– .. شايفه الفرير ده.. هديه من جنابه ذكرى أول نظرة!!... وشايفه الفستان ده هدية من الكاتب الكبير ذكرى اول ابتسامة!!.. والخاتم اللى شفتيه هدية اول لقاء!!.. انت فاكرانى عبيطه زيك ولا ايه.. عبيطه زى اللى بيقروا قصصه.. وكلامه الفارغ ويجروا وراه.. لا يا حبيبتى.. انا فاهماه كويس، وهو فاهمنى كويس.. لا يضحك على ولا اضحك عليه.. كل شىء بالأصول.. ويا قلب مادخلك شر!!.

قالت فايزة فى صوت خفيض وقد هدأت عيناها، وعاودتها نوبة من نوبات ذهولها:

– انا ومنير حلمى ضحيتكم.. كان فاكرنى زيكم.. كان فاكرنى بابيع نفسى زى مابيتبيعوا نفسكم.. علشان كده ما قدرش يحبنى.. الخاين.. السافل.. السافل..

وعاود فوقيه الاشفاق على اختها وهى تراها فى ذهولها.. وجلست بجانبها على حافة الفراش، و لفت ذراعها حولها.. وقالت وكأنها تحاول ان ترفه عنها:

– أهو ما فيش حاجه صدق قولتيها إلا انه سافل.. ده سافل وستين سافل. مايكسرش سمه الا اللى اسفل منه.. انما مش عيب يا فايزة تقولى على اختك انها بتبيع نفسها!!.. بأه انت مصدقة ان فيه راجل مهما دفع يقدر يطولنى.. يا اخى ده بعده!!..

ولم ترد فايزة، انما مالت برأسها على كتف اختها وبدأت

دموعها تنهمر من جديد، واستطردت فوقيه:

– بس يا حبيبتى.. كان لازم تعرفى الرجالة زى ما عرفتهم.. كلهم كلاب.. انما ما قلتليش.. انت تعرفى منير من امتى؟!!..

وقالت فايزة كأنها تناجى حبها:

– طول عمرى.. من يوم ما مات بابا ما كنتش باحترم حد الا منير حلمى.. كنت اقفل على نفسى الباب وافضل طول الليل اقرا قصصه واكلمه واشكيله..

وقاطعتها فوقيه:

– أهو بابا الله يرحمه ما كنش على حق إلا لما كان يمنعنا من قراية القصص.. يظهر انه كان حاسس ان واحدة من بناته حتندب فى قصة من دول.. انما قوليلى.. ما قبلتهوش ابدا ما شفتهش.. احكيلى يا حبيبتى!!..

وارتفع نشيج فايزة وأخذت تبكى فى حرقة، وشهقاتها تكاد تمزق انفاسها.. وارتسمت علامات اللهفة والحيرة على وجه فوقيه، وكأنها ظنت ان ما حدث لأختها شىء خطير.. وقالت وهى تريد ان تطمئن:

– ايه بس اللى حصل يافايزة طمنينى!!..

وقبل ان تتمكن فايزة من ان تسيطر على شهقاتها لترد على اختها، دخلت امها.. ونظرت الى ابنتيها فى تساؤل، وقالت فى لهجة صارمة كأنها واثقة من انها تستطيع دائما ان تسيطر على كل موقف:

– جرى ايه يا بنات.. مالكم كده قاعدين زى شحاتين السيدة؟!!..

وقالت فوقية كأنها تستغيث بأمها:

– والله ما انا عارفه يانينه.. فايزة محيرانى خالص!!..

وقالت الأم:

– جرى ايه يا فايزة.. بتعيطى ليه على الصبح.. خير ان شاء الله؟!..

وارتفع نشيج فايزة وأخفت رأسها فى صدر اختها دون ان ترد..

وقالت فوقية فى اختصار:

– بتحب؟!!..

وقالت الأم وهى لم تقدر بعد خطورة الموقف:

– وهو اللى يحب يعيط.. ايوه ده انا كنت بأدعيلك ليل ونهار ان ربنا يلمك على راجل يفرد وشك اللى معقداه فى وشنا وانت داخله وخارجه..

وقالت فوقية وكأنها تنبه أمها الى أمر خطير:

– بتحب منير حلمى!!..

وخبطت الأم على صدرها وشهقت قائلة:

– منير حلمى!! هوه الراجل حياخد العيلة مقاولة ولا ايه؟

وما لقتيش إلا منير حلمى ياست فايزة.. ايوه ابتدى بواحد على قدك!!.. ده انا نفسى لما اسلم عليه اعد صوابعى. شوفى الراجل الدحلاب يا اختى.. أتاريه مش راضى يجى البيت، وكل ما نعزمه يعزمنا هوه عنده.. آل من كرمه آل!!..

وجذبت توحيدة مقعدا ووضعته امام ابنتيها الجالستين فوق الفراش، وجلست عليه وهى لاتزال تتكلم:

– والأكاده ولا جاب لنا سيرة.. ولا نطق باسمها كان بيلعب على الأختين.. يا خى لغبت النار فى نافوخه.. احكى يا فايزة احكى.. قوليلى على كل حاجة، من طقطق لسلامو عليكم!

ولم ترد فايزة وظلت تستغيث بشهقاتها فى بحر دموعها.

وقالت فوقية:

– من ساعة ما عرفت انه بيعرفنى وهيه بتعيط.. ومش راضيه تقوللى حاجه.. انا عارفه الراجل عمل فيها ايه؟!

وقالت توحيدة:

– عمل أما يخسفه قرد.. ده لو عمل حاجه فى بناتى ما اسيبه الا فى تربته!

ومدت يدها، وامسكت فى ذراع فايزة فى رفق، وابعدتها عن صدر اختها، وهى تحاول ان ترفع وجهها وتنظر فى عينيها:

– ايه اللى حصل يافايزة؟!

وفجأة ثارت فايزة كأنها جنت، وجذبت ذراعها من يد امها وقامت واقفة وشعرها مهدل فوق وجهها، وصاحت:

– عايزين تعرفوا ايه؟.. عايزين تعرفوا جابلى هدايا اد ايه؟ ماجبليش!.. عايزين تعرفوا بيحبنى اد ايه؟.. مابيحبنيش!. خلاص.. مش عايزه اعرفه.. خدوه واشبعوا بيه..

وخطت نحو باب الغرفة تريد الخروج فأمسكت بها امها فى عنف، وقالت فى حزم وهى تهزها من كتفيها:

– فايزة.. انا عايزة اطمن عليكى..

وضحكت فايزة ضحكة هستيرية كأنها جنت، وصاحت:

– اشمعنى انا اللى عايزه تطمنى على.. ما بتطمنيش على

خديجة وفوقية ليه؟.. ولا ماحدش له شرف في البيت ده الا انا؟!

وبلا وعى دفعت توحيده كفها السمين وهوت به على وجه ابنتها، وهى ترد صرختها بأعلى منها:

- خديجة وفوقية اشرف بنات البلد كلهم.. ما فيش راجل يقدر يقول انه خد منهم حاجه.. الدور عليكى انت يا سهتانة ياللى ما حدش عارفلك رأس من رجلين..

وضعت فايزة يدها على خدها فوق موضع الصفعة.. وكتمت شهقاتها ودموعها، وأخذت تعش كلها كأنها بركان يهدد بالانفجار بينما امها لا تزال ممسكة بها فى قوة حتى لا تفر من امامها..

واطالت فايزة النظر الى امها وكأنها فى دهشة، وكأنها لا تصدق ان امها قد صفعتها..

ثم فجأة سقطت على الارض فوق ركبتيها ودفنت رأسها فى حجر امها، وانفجر البركان فى دموع كماء النار، وقالت وحروف كلماتها لا تكاد تتصل بعضها ببعض:

- اطمنى يا نينه.. حتى البوسه ما هنتوش بيها.. اطمنى يا نينه، بنتك مافيش حاجه معذباها الا شرفها!

وارتخت يد الام الممسكة بابنتها..

وهدأت اسارير وجهها.. وانحنت تقبل رأس فايزة.. وتحيطها بذراعيها، وهى تقول فى حنان واشفاق:

- طمنتينى يا بنتى، الله يطمنك.. بس يا حبيبتى .. كفاية دموع حرقت نفسك.. قومى يا ستى اغسلى وشك.. وريحى نفسك.. وكل حاجه حتتصلح باذن الله.. اللى تعب قلبك حاتعب

عيشته.. وبكره تشوفى!!

وقامت فايزة وخرجت من الغرفة وقدماها تتعثران فى دموعها..

وقالت توحيدة:

- قومى يا فوقية مع اختك.. نيميها فى سريرها واعملى لها فنجان شاى.. البنت يا حبت عينى هلكت من العياط، الله يهلك اللى كان السبب!!

وقبل ان تخرج فوقية من الغرفة قالت لها امها وقد بدت على وجهها علامات تفكير خطير:

- ابقى تعالى تانى يا فوقية.. علشان عايزاكى؟!

●●●

ودخلت فايزة غرفتها.. ورقدت فى فراشها، ولم تكد اختها تضع بجانبها قدح الشاى وتخرج، حتى قامت من فراشها وأغلقت الباب بالمفتاح..

وعادت الى فراشها..

لم تبك.. اذ لم يبق فيها دموع..

ولم تنم.. كان كل شىء فيها هامدا محطما الا ذهنها، لا يريد ان يهمد، ولا أن يكف عن نشاطه..

كانت الأفكار تطوف بها دون ان تتوقف، أو تطوف هى بالأفكار دون ان تقف عند واحدة منها.. ثم كانت تسمع صوت منير وهو يقول لها مناجيا «انا حاسس انى مش حاقدر استغنى عنك ابدا» فتطل من عينيها نظرات ساهمة ، وتكاد شفتاها تنفرجان عن ابتسامة، واذا بصوت يرتفع من جوفها يصرخ

«كذاب.. كذاب».. فتضرب الوسادة بقبضتها.. كأنها تضرب بها على صدره أو كأنها تضرب خيالها ليبتعد عنها..

وتهدأ قليلا.. ثم تسمع صوته من جديد عندما كان يقول لها: «انت الخيال اللى باكتبه، وانت الحقيقة اللى باعيش فيها» وتكاد تستسلم للصوت العميق الذى يناجيها، ولكن الصراخ ينبعث من جوفها مرة ثانية: «كذاب.. سافل» فترفع طرف اللحاف وتغطى به وجهها كأنها لا تريد ان ترى الحقيقة.. وتعض عليه بأسنانها كأنها تقاوم آلاما عنيفة تمزق اعصابها..

وكانت ترى بخيالها اختها فوقية وهى فى بيته.. جالسة بجانبه على الأريكة.. وتراه يلف وجهها بأنفاسه الساخنة.. نفس الأنفاس التى اطلقها على وجهها عندما ذهبت اليه.. وتراه يلصق شفتيه بشفتى فوقية، ويحيط خصرها بذراعيه ويتحسس نهديها بكفيه باحثا فى ثوبها عن منفذ لأصابعه الى لحمها.. و... و..

ماذا فعلت فوقية فى هذا الموقف؟

هل نفرت منه كما نفرت هى؟..

ام استسلمت وأعطته من نفسها ما شاء؟..

ورن فى خيالها صوت أمها وهى تقول:

– «خديجة وفوقية اشرف من بنات البلد كلهم»!!..

ماذا تقصد امها بـ «الشرف»؟!!

وهل يكفى ان تبقى الفتاة عذراء لتكون شريفة!!.

هل كل شىء مباح.. كل شىء.. ما دامت الفتاة لاتزال عذراء؟!!..

هل كان يمكنها ان تمنحه شفتيها ونهديها.. ثم تخرج من

عنده شريفة لأنها لاتزال عذراء؟!.

هل هذا ما تريده امها لبناتها.. ان يسهرن الليالى مع الرجال، ويبادلنهم كؤوس الخمر، ويمنحنهم متعة من اجسادهن لقاء هدايا.. ثم تتباهى بعد ذلك بأن بناتها «أشرف من بنات البلد كلهم»، لأنهن لايزلن عذارى!!.

وأحست بالحقد يزحف على صدرها.. الحقد على امها.. والحقد على اختيها، ، والحقد على البيت الذى تعيش فيه.. واستبد بها الحقد حتى قبضت على خصلات من شعرها وأخذت تشدها بعنف.. كأنها تريد ان تنزعها من رأسها.. كأنها تريد ان تنزع رأسها كله من فوق جسدها حتى لا تفكر. وحتى لا تحتار وحتى لا تتعذب..

واشتدت بها الحيرة.. واشتد بها العذاب، فانكفأت تدفن وجهها فى الوسادة وتدق عليها بقبضتيها، وتهمس بين انفاسها المتلاحقة كعادتها كلما ضاقت بها الدنيا: «يا حبيبى يا بابا.. انت فين.. عشان تشوف بنتك وعذابها»!!

ورغم ذلك لم تبك.. لم تسعفها دموعها.. كانت قد فرغت منها الدموع.. ولم تجد النار المشبوبة فى رأسها ما يطفئها.

ولكنها فى خلال كل هذه النار، لم تحقد عليه كما حقدت على بيتها وعلى الدنيا كلها..

كانت تتمنى ان تحقد عليه، وكانت تتحايل على نفسها لتكرهه، وكانت متأكدة من انه «سافل» ولكنها كانت تجد دائما عذرا لسفالته!!

وكان عذره الوحيد -فى تفكيرها- انه يعتقد انها كأختيها وكأمها..

انه يعتقد ما يعتقده الناس جميعا.. وما تؤيده سمعة العائلة كلها..

ان واحدا -حتى هو- لا يريد ان يصدق ان الشرف فى نظرها شئ آخر غير ما تعتقد امها وأختها.. وانها تريد ان يبقى كل مافيها عذريا.. شفتاها ووجنتاها ونهداها حتى اطراف اصابعها..

وبدأ هذا العذر الذى نلتمسه له، ينقلب الى نوع من الدفاع عن الكرامة.. كرامتها!!

يجب ان يعترف بأنها ليست كأمها وأختيها!!..

هو.. قبل كل الناس.. يجب ان يعرف ان حبها عف طاهر برئ، لا تنتظر من ورائه هدايا، ولا ينتظر ان تردها له متعة..

يجب ان يعرف أنها أشرف من خياله الذى يكتبه فى قصصه.. أنها اشرف من جميع بطلات قصصه اللاتى تنتهى حياتهن دائما بالزواج.. أو بالانتحار!!..

وكانت الساعة قد وصلت السابعة مساء..

وقامت من فراشها.. وهى تحس انها يجب ان تسترد كرامتها..

ولم تحاول ان تخرج لأمها ولأختيها لتسألهن، ماذا فعلن فى مصيبتها.. انما وقفت امام المرآة وهى نصف مذهولة، وارتدت اول ثوب التقطته يدها، دون أن تدرى ان كان لونه أحمر فى لون افكارها، أم ابيض فى لون قلبها.. وساوت من نفسها قدر ما استطاعت، ثم التقطت حقيبتها، وفتحت باب غرفتها فى بطء.. كأنها لا تريد احدا ان يسمعه وهو يفتح ثم سارت على اطراف

قدميها.. وهى تنظر حولها كأنها لصة تقدم على جريمتها الاولى.
وسارت بضع خطوات، ثم انحرفت بسرعة لتدخل المطبخ.
وفتحت باب المطبخ المؤدى الى سلم الخدم. ونزلت منه.. دون أن يراها احد!!..
وعندما اصبحت فى الشارع نادت احدى سيارات الاجرة.
وألقت بنفسها فيها، وقال للسائق وهى تلتقط انفاسها:
- الزمالك يا أوسطى..
وقفت بها السيارة امام العمارة التى يسكنها الاستاذ منير حلمى..
وشاهدها البواب وهى تدخل، فلم يقف لها.. فليس كل من يمر أمامه يستحق احترامه!!..
ووجدت نفسها -وهى لا تزال فى نصف ذهولها- داخل المصعد.. ثم امام باب الشقة رقم ١٢، ثم وجدت نفسها تضغط على الجرس.
وفتح لها «السفرجى».. ونظر اليها متسائلا.. ونظرت اليه برهة وكأنها لا تراه، ثم قالت:
- الاستاذ موجود؟..
وابتسم «السفرجى» كأنه فهم شيئا، وقال وهو يوسع لها الطريق الى داخل الشقة:
- اتفضلى يا افندم!؟..
ووجدت نفسها فى الحجرة التى تعرفها.. المقعد الذى جلست عليه.. والاريكة التى حاول ان يقبلها فوقها.. والمائدة الصغيرة، انها لا تحمل زجاجة ويسكى ولا علبة شيكولاته، كما رأتها فى

المرتين السابقتين!!..

وانتبهت الى نفسها. وكان انتباهها فى عنف، كا نتباه المجرم عندما يجد نفسه فى مكان جريمته!!.. وأحست انها فقدت كل الاسباب التى دفعتها الى المجىء؟!!..

لماذا جاءت؟!!..

وماذا تقول له؟!!..

وتمنت ان تفر من هذا المكان.. واستجمعت كل ارادتها لتعود من حيث أتت.. ولكنها لم تستطع، كانت كأنها قد سمرت فى مكانها، ثم لما استطاعت اخيرا ان تنقل قدميها، اسقطت نفسها فوق المقعد، ووضعت رأسها فوق كفها وهى تحس بضجة ...بفة فى نفسها لا تتبين منها شيئا..

وظهر الأستاذ منير حلمي، مرتديا -كما تعودت ان -- قميصا وسروالا وسترة منزلية، وما كاد يراها حتى تجهم، وقال فى لهجة قاسية كأنه يحادث خادمته:

- انتى!!.. ايه اللى جابك؟!!..

ورفعت اليه عينين صامتتين، واستطرد قائلا:

- أظن الست والدتك زمانها جايه وراكى ومعاها البولي... ما كفاهاش الفضيحة اللى عملاها من الصبح لغاية دلوقت..

وتكلمت فى صوت خفيض ذليل:

- أنا آسفة.. و..

وقاطعها:

- تينتك فين دلوقت.. عايز اعرف المصايب اللى بتدبرها.. ماهى اصلها زى رومل أيام الحرب.. عمر الواحد ما يعرف

خبطتها حتيجى منين؟!!..

ونظرت اليه بعينين ملؤهما العتاب، وقالت وهى لم تستجمع بعد كل ارادتها:

– نينه ما تعرفش انى جايه هنا.. ما حدش فى البيت كله يعرف!!..

ورأى الصدق والبراءة فى عينيها، وأحس فى قرارة نفسه وازعا يدعوه الى تصديقها، فهدأت أعصابه وجلس قبالتها، وهو يشعل سيجارته، ونظر اليها من خلال الدخان كأنه لا يزال محترسا، وقال:

– وانتى جايه ليه.. مش كفايه اللى عملتيه.. دى آخرة ثقتى فيكى؟!!..

– انت السبب..

– مش انتى اللى رحت قلت لنينتك على كل حاجة؟!!..

– غصب عنى.. ما استحملتش اعرف انك بتعرف فوقيه..

وسكت قليلا وهو يسحب دخان سيجارته، فاستطردت فى صوت ساذج:

– انت بتحبها؟..

وابتسم كأنه يسخر من سذاجتها، واتسعت ابتسامته حتى كاد يضحك ثم قال فى اشفاق:

– أنا عمرى ما حبيت!!..

ونظرت اليه فايزة متسائلة وكأنها لم تسمعه.. فعاد يكرر:

– صدقينى.. أنا عمرى ما حبيت!!..

وقالت متسائلة وكأنها تذكره بشىء ربما يكون قد نسيه:

- عمرك؟!!..

وأجاب فى تأكيد :

- عمرى!!

وطافت سحب من الحزن وخيبة الأمل على وجه فايزة.. ونسيت كل شىء متعلق بأختها، وقالت وهى لاتنظر اليه:

- لكن انت ما فهمتنيش كده!!..

- فهمتى ايه أمال؟..

ورفعت اليه عينيها فى قسوة وكأنها تتحداه:

- فهمت انك بتحبنى.. قلتلى ببقك واحنا قاعدين على الكنبه دى انك ما تقدرش تستغنى عنى.. وانك مريض وأنا الدوا.. وأنى أنا خيالك وحقيقتك.. وكلام كتير لسه فاكراه كلمة كلمة..

وقال فى اهمال:

- يجوز.. مش فاكر!!..

قالت وقد بدأت تثور:

- يا سلام.. الكلام ده رخيص عندك للدرجة دى.. لدرجة انك مش فاكر بتقوله امتى ولمين!!..

- بالعكس.. ده كلام غالى.. انما مش بأقوله لك.. ولا لأى واحدة.. بأقوله دايما لنفسى.. يوم ما قلتلك الكلام ده ما كنتش باحاول اقنعك انت بيه.. انما كنت باحاول اقنع بيه نفسى.. اقنع بيه عواطفى علشان تتجاوب مع الموقف اللى انا فيه.. علشان ما أحسش انى مجرد حيوان... عارفه الفرخة لما يقدموها للأكل فى طبق فضه ومزوقه وحواليها «جارنتير» أهو الكلام اللى سمعتيه منى هو الطبق الفضه وهو الزواق، وهو «الجارنتير»..

وقاطعته وعيناها تتقدان نارا!

- وأظن انا أبقى الفرخه..

قال ساخرا:

- بالضبط.. أهو بدأت تفهميني.. حضرتك تبقى الفرخه!!.

- وطبعا كنت عايز تاكلني؟!!..

قال في هدوء:

- فعلا!!..

قالت في صوت محشرج:

- انت مجرم.. انت حيوان..

ثم انفعلت قائلة:

- مش ممكن.. مش ممكن انك انت اللى تقولى الكلام ده.. لازم عايز تكرهني فيك!!.. لازم نينه طلبت منك انت تكرهني فيك!!..

ونظر اليها كأنها يعجب من براءتها، وارتسمت على وجهه علامات الاشفاق كأنها ابنته التي تتعذب، وقال:

- أظن انتى فاكره انك بتحبيني؟!!..

وقالت وقد بدأت دموعها تخفف عنها:

- كل ده.. ولسه بتسألني؟!!..

- غلطانه.. انت ما بتحبنيش.. انت بتحبى خيالى.. بتحبى الصور الخيالية اللى بتشوفيها فى قصصى.. عارفه البنات اللى بيحبوا محمد عبدالوهاب علشان بيتنهد فى أغانيه وبيقول يا لوعتى.. يا شقاى.. ولا البنات اللى يعلقوا فوق السرير صورة عماد حمدى لأن كل واحدة فيهم فاكره نفسها فاتن حمامه اللى

كانت بتحبه فى الفيلم.. اهو انتى زيهم.. وكلكم ما بتحبوش.. مافيش واحدة بتحب عبدالوهاب.. ولا واحدة بتحب عماد حمدى.. ولا واحدة بتحبنى.. ويمكن لو واحدة قعدت مع واحد فينا يومين على بعض تطفش من وشه ومن الدنيا كلها..

قالت وهى تجفف دموعها وكأنها بدأت تشفق عليه:

- أنا ما حبتكش علشان قصصك.. انا حبيتك بعد ما عرفتك..

وقاطعها كأنه يحادث نفسه:

- وحتى لو حصل وواحدة حبتنى.. حبتنى صحيح.. عمرى ما حاحس بحبها.. وعمرى ما حاصدق انها بتحبنى.. عارفه الراجل الغنى اللى معتقد ان الناس كلها بتعرفه علشان فلوسه.. اهو انا معتقد ان الناس كلها بتعرفنى علشان قصصى، والبنات بتحبنى علشان قصصى.. ماحدش بيحبنى علشان نفسى بقت عقدة نفسية مش قادر اتخلص منها!!

وسكت ريثما يسحب نفسا من سيجارته وعاد يقول فى صوت حزين:

- اذا كنت انتى محرومة من الحنان.. انا محروم اكثر منك واذا كنت مش لاقية الحب يمكن حتلاقيه بعدين.. انما انا مش حلاقيه ابدا.. حافضل طول عمرى لوحدى مع خيالى..

وأطلت من عينيها نظرات ولهى، وشعرت انها يجب ان تنقذه من عقدته النفسية.. وقالت وقد داخلها شعور بأنها بطلة من واجبها ان تجتاز المخاطر لتنقذ حبيبها، كما انقذت جان دارك وطنها فرنسا:

- واثبتلك ازاى انى باحبك.. باحبك علشان نفسك مش

علشان قصصك؟

ونظر اليها من بين عينيه نظرة يختلط فيها الخبث بالثقة فى نفسه:

- الاثبات يكلفك غالى!!

وسكتت.. وذايلها الشعور بالبطولة.. وبدأت تحس بالرهبة والتردد.. وبدأ عقلها ينشط من جديد ويسبق نشاطه، نشاط عواطفها..

ولاحظ سكوتها، فقال وكأنه يجذب آخر خيط فى يده:

- عرفتى انك مابتحبنيش!!..

وأخذت تعبث بأصابعها فى مسند المقعد دون ان تنظر اليه.. ثم رفعت اليه وجهها فجأة كأنها تذكرت شيئا.. وقالت:

- وفوقيه اختى اثبتت لك انها بتحبك، علشان تقابلها كل يوم..

قال، وكأنه مل طول الحوار:

- فوقية عمرها ما حبتنى.. وعمرها ما افتكرت انى باحبها..

قالت وكأنها تحاسبه على اخطائه:

- وكنت بتقابلها ليه؟!!..

ونظر اليها فى صرامة:

- انتى حا تحاسبينى ولا ايه؟!!.. كنت باقابلها علشان بيعجبنى انى أقابلها..

وبدأت سحب العذاب تتجمع حولها من جديد:

- وانا..

- انتى ما قدرتيش تعوضينى عن فوقية..

- طبعا ما كنتش منتظر انى اختلف عنها.. اختين من ام

واحدة وعايشين فى بيت واحد والرجالة داخله وخارجه عندهم.. يبقى لازم اكون زيها..

– لو كنت زيها ما كنتيش اتعذبتى العذاب ده كله.. وما كنتيش عذبتينى معاكى!!..

قالت كأنها تستغيث به:

– وحافضل اتعذب كده على طول؟..

– لغاية ما تعرفى الدنيا..

– وريها لى..

وانتقل من مقعده وجلس على مسندة مقعدها وقال:

– علشان اوريكى الدنيا لازم تثقى فيه!!..

قالت وهى تحس به ملتصقا بها:

– انا كنت باثق فيك لغاية ما عرفت انك ماشى مع فوقيه!!

قال وهو يلف ذراعه حول ظهرها:

– صدقينى ان فوقيه ما تساويش عندى حاجه.. عرفتها قبل ما أشوفك.. عرفتها فى البيت عندكم. وعمرى ما حبيتها.

وأحست بذراعه تضغطها اليه.. واحست به يميل بوجهه حتى يسنده فوق رأسها، وقال وكأنه يتنهد:

– انت حاجه.. وفوقيه حاجه تانيه.. ما تقسيش نفسك بيها يا فايزة.. انت ملاك.. انت اللى حتنقذينى من حرمانى.. حرمان قلبى وعواطفى..

وأغمضت عينيها لتصدق كلامه..

ورفع وجهه الذى كان يسنده على رأسها، ثم ألصق خده بخدها.. وسكب أنفاسه فى اذنيها.. ورفع يده وأخفاها فى طيات شعرها..

وأحست بشفتيه تقتربان..

ولم تتحرك انوثتها، انما تحرك ذهنها كالعادة، واخذت تفكر: انه يقترب من شفتيها الآن.. سيقبلها.. ثم ستطوف يداه بجسدها.. ثم.. ثم.. لماذا؟!!..

وفتحت عينيها تحت الحاح ذهنها.. وابعدت وجهها عنه قبل ان يصل بشفتيه الى شفتيها.. وقالت وكأنها توقظه من نشوته:

– لو أثبت لك انى باحبك.. حاتثبت لى انت ازاى انك بتحبنى؟!!..

قال وهو لا يزال يصر على ان يلصق شفتيه بشفتيها:

– حتعرفى من غير اثبات.. حتعرفى بإحساسك..

قالت وهى تبعد وجهها اكثر عن وجهه:

– اشمعنى انت عايز اثبات.. ليه مش قادر تحس انى باحبك؟

وقفز من جانبها كأنه جن، وقال وهو يضرب المائدة بقبضته فى عصبية:

– بأه ده اسمه كلام يا عالم.. حد فى الدنيا يعمل كده.. انت ايه.. لوح تلج.. حتى البوسه مش قادرة تستحمليها وانت ساكته؟..

وسكتت وهى لا تزال تنظر اليه كأنها مصرة على ان تسمع جوابه، وعادت تكرر السؤال:

– حتسبتيلى ازاى إنك بتحبنى؟..

وانفجر مرة ثانية:

– يا ستى لا أنا عايز منك اثبات.. ولا انت عايزة منى اثبات.. فيه اثبات واحد بس، وهو انك ست، وانا راجل.. ومادام انت

ست وانا راجل، وبنحب بعض، أو حتى متهيأ لينا اننا بنحب بعض، يبقى لازم نبوس بعض.. و... و

وقاطعته:

– ربنا دلنا على الاثبات..

ونظر اليها كأنه لا يفهمها، أو كأنه يبحث عن سرها..

وقال:

– تكونيش عايزه تتجوزيني؟!!..

اذا كنت بتحبني.. و...

وقاطعها وهو يقهقه في صوت ساخر:

– الله.. الله.. والله عال يا بنت توحيده.. بأه الست والدتك خططها مش حتنتهي عند حد. سلطت على بنتها فوقية طالعه نازلة بهدايا زي المنشار.. ودلوقت باعتالي بنتها الثانية علشان تتجوزني وتكمل علي.. روحي قولي لأمك يا شاطره ان منير حلمي ما بيكلش من الكلام ده.. اذا كانت فاكره نفسها رومل.. انا مونتجمري..

ونظرت اليه فايزة بعينين مفتوحتين كأنها لا تصدق ما سمعت، ثم تصاعدت دماؤها كلها الى وجهها، وقفزت من بين شفتيها صرخة ألم، كأن شيئا فيها تمزق.. ثم انكفأت على مسند المقعد تبكي وتنشج بصوت عال..

واخذ منير يروح ويجيء في الغرفة، كأنه شيطان لا يجد منفذا الى السماء، وقال دون ان يلتفت اليها:

– انا متأكد ان توحيده مستنياكي بتاكسي على الباب..

ثم اقترب منها وأمسكها من كتفيها وأخذ يهزها، وهو يصيح

فيها كالمجنون:

- ما تقوليلي الحقيقة يا بنت الناس.. امك ناويه تعمل ايه.. سلطتك على ايه؟!..

وصرخت فايرة:

- سيبني أبعد عني.. مش عايزه اشوفك.. خلاص يا ربي. خلاص.. حرمت يا ربي!!..

وهرعت الى الباب تحاول ان تفتحه..

وجرى وراءها وحقيبتها في يده يناولها لها وقال في غضب وهو يفتح لها الباب:

- مع السلامة!!..

وخرجت تتخبط في خطواتها.. كأنها ذبيحة لا تزال السكين في عنقها..

وأغلق الاستاذ منير الباب..

٤

.. وعادت فايزة الى بيتها..

ولم تدر كيف عادت.. لم تدر كيف وضعت نفسها فى سيارة الاجرة.. ولا كيف ألقت للسائق بالعنوان، ولا كيف وصلت الى باب العمارة التى تقيم فيها.. كانت كأن هناك انسانة اخرى فى نفسها تقودها، وهى عمياء لا ترى شيئا مما حولها. ولا تحس بشىء فى تصرفاتها..

وتنبهت قليلا وهى تفتح باب الشقة، الى الهدوء الذى يسودها.. لم يكن ينبعث من خلف الباب الضجة المعتادة.. لا ضحكات، ولا صوت الراديو أو «البيك آب»، ولا جدل السكارى.. وما كادت تدخل حتى لمحت امها وشقيقتيها

جالسات فى «الصالة» كل منهن على مقعد، وكل منهن وقد وضعت خدها على يدها، وسادهن صمت حزين..

وما كدن يلمحنها حتى هبت اختها خديجة واقفة وصرخت كأنها استردت حياتها:

- فايزة!!..

ثم احتضنتها بين ذراعيها وضمتها الى صدرها فى لهفة وحنان، وأخذت تبكى وهى تنهنه:

- يا حبيبتى.. يا حبيبتى.. الحمد لله.. الحمد لله!!..

وقامت اختها فوقيه، وأخذت تربت على ظهرها وهى لاتزال بين ذراعى خديجة، قائلة:

- اخص عليكى يا فايزة.. برضه تعملى فينا كده؟!..

ولم تتحرك الأم من جلستها، انما سحبت علبة سجائرها من فوق المائدة، وأخرجت سيجارة بيد مرتعشة، وأشعلتها بيد اكثر ارتعاشا، وأخذت تدخنها بأنفاس متتالية دون ان تتكلم..

ولم تفهم فايزة شيئا. وأخذت تدير عينيها بين دموع خديجة، ولوعة فوقيه، وصمت الأم، ثم قالت متسائلة فى سذاجة:

- حصل ايه؟!.

ورفعت اليها امها عينيها كأنها تصفعها بهما، وقالت:

- الحمد لله.. ما حصلش حاجة.. بس لو كنتى اتأخرتى كمان عشر دقائق كان زمانى دايره فى الشوارع حافية ورأسى مكشوفة، بأتلطم على اقسام البوليس وبسأل عليكى فى المستشفيات!!.

وقالت فايزة وهى لا تزال تتساءل فى سذاجة:

- انما انا ما اتأخرتش قوى.. الساعة لسه ماجتش تسعة ونص!!.

وردت خديجة وهى تضمها مرة ثانية وتقبلها:

- احنا افتكرنا.. بعد الشر.. بعد الشر.. بعد الشر افتكرنا انك عملتى فى نفسك حاجه!!

وفهمت فايزة..

كانوا يخافون عليها ان تنتحر.

هل كان يمكن ان تنتحر؟!!..

ولم تستمر فى تفكيرها حتى تجد جواب السؤال، وتنبهت على صوت امها:

- تعالى يا فايزة.. تعالى جنبى هنا.. اقعدى..

واتجهت اليها كأنها تسير فى نومها، وجلست ساهمة، وعادت الأم تتكلم:

- انتى مخبيه حاجه علينا يابنتى؟..

- ابدًا يا نينه..

- ورحمة ابوكى؟..

- ورحمة بابا..

- مصدقاكى.. قوليلى بأه.. كنت فين لغاية دلوقت؟..

وسكتت فايزة وطأطأت رأسها بينما أصابع يدها تعبث كل منها بالأخرى، كأن كل اصبع يحاول ان يخنق اصبعا.. ثم قالت وهى تهم بالقيام:

- والنبى انا تعبانه خالص يا نينه.. بكره احكيلك على كل

حاجه!!..

وأمسكت توحيده بيد ابنتها وشدتها الى جنبها حتى لا تقوم وعادت تقول:

– اذا كنت تعبانه احنا تعبانين اكتر منك.. انا برج عقلى حيطير بسبب عمايلك.. اهتدى بالله يا بنتى واحكيلى دلوقت خلينى اعرف انام..

وصمتت فايزة قليلا، ثم همست وهى تنظر الى الأرض:

– ما فيش حاجة!!..

وقالت توحيده:

– ما فيش حاجه ازاى.. واحدة تخرج من أودتها وتنزل من سلم المطبخ زى الحرامية.. يبقى ما فيش حاجة.. كنت بتشمى هوا حضرتك؟ هربت منى علشان تروحى سينما؟

ما تتكلمى يابت، قبل ما تفقعى مرارتى..

وقالت خديجة:

– قولى يا فايزة.. هوه انت لك حد غيرنا!!..

وقالت فوقيه، وكأنها تساعد اختها على الكلام:

– انا متهيأ لى انك كنتى عند منير حلمى!!..

وانتبهت فايزة على ذكر اسم «منير حلمى» ونظرت الى اختها فى غضب ولوم، ثم كتمت غضبها ولومها، وعادت تنظر صامتة الى الأرض..

واستطردت فوقيه:

– اصلى ضربتله تليفون واحنا بندور عليكى.. لقيت ان الجرس بيضرب وما حدش بيرد، عرفت انه شايل البريزه..

اصل من عادته كل ما تكون عنده واحده ست يشيل بريزة التليفون!!.

وظلت فايزة صامتة تنظر الى الارض، ونظرت اليها امها طويلا ثم قالت فى صوت متأثر:

– ارحمينا يا بنتى، وطمنينا..

وهمست فايزة وهى لا تنظر الى احد:

– فعلا.. انا كنت عند منيرحلمى!.

وخبطت الأم على صدرها.. وصاحت:

– الله يخيبك يا فايزة زى ماخيبت املى فيكى.. حد يعمل كده.. بأه انا ابنى من هنا وانتى تهدى من هنا.. الراجل يعمل فيكى العمايل دى كلها وبرضه تروحيله برجليكى.. ايوه استنى شويه لما اتمكن منه واجيبوا لغاية عندك متسلسل من رقبته!

وقالت فوقيه:

– النبى دى عبيطة.. حتفضلى طول عمرك مغفلة!

وقالت خديجة تدافع عن اختها:

– ما تطلعوش فيها كده يا ناس.. حرام عليكم.. مش تستنوا لما نسمع الحكاية كلها..

وقالت فايزة وقد ارتفع صوتها كأنها تحاول ان تتحدى الجميع:

– ما فيش حكاية ولا نص.. رحتله علشان اسمع منه كلامه.. علشان اعرف اذا كان بيحبنى ولا بيحب فوقيه.. علشان اعرف كان بيضحك على ولا بيضحك على ولا بيضحك فوقيه..

وقاطعتها فوقيه:

- بأه ده كلام ناس عاقلين..

وقالت امها وهى تضع أصبعها فوق خدها:

- وعرفت ايه ياروح امك؟!

ولم تلحظ فايزة لهجة امها المشحونة بالغيظ والكدر... وقالت:

- وكان فاكرانى انا واختى بنضحك عليه!.

وصرخت توحيده:

- آه يا نارى.. آه من «ابن الكلب» الراجل يا اخواتى اكل عقل البت خلاص.. بأه انتى واختك تضحكوا عليه.. ده يضحك على عشرة زيكم..

وقالت فايزه وهى تتجاهل صرخة امها:

- كان فاكر انك انتى اللى باعتانى له..

وقالت توحيده وهى تضرب بكفيها على فخذيها فى عصبية:

- كتر خيره.. كتر الف خيره على حسن ظنه.. فاكر إن توحيده عارفه تمسك بناتها.. مش عارف ان فيه واحدة منهم تقدر تهرب من سلم الخدامين وتروحله لغاية عنده.. من غير ما اعرف ولا أدرى.. آه يا نارى.. ياخيبة املى فيكى يا فايزة يابنتى.

وقاطعتها خديجة:

- بس.. يا نينه.. انت طول عمرك عارفه ان فايزة على نياتها.

واستطردت توحيدة دون ان تأبه بكلام ابنتها:

- وكنت منتظرة يقولك ايه بأه يا ست فايزة؟.. يقولك انه بيحبك انتى وما بيحبش فوقيه.. ولا بيحب فوقيه.. ومابيحبكيش.. بأه ده سؤال يتسئل يا اخواتى.. حد يسأل رجل فى الدنيا سؤال زى ده.. طيب مابيحكوش انتو الاتنين ليه.. ومابيحبكيش فوقكم عشرة ولا ميه ليه.. خاسس عليه ايه تسمحى تقوليلى؟.. يا بت انتى حتفضلى طول عمرك زى القطة المغمضة.. ما تفتحى وتشوفى الدنيا ماشيه ازاى..

وقالت فايزة وقد عاودها ذهولها، وكأنها انتقلت الى بعيد:

- خلاص.. مش عايزه اشوف حاجه.. يا رتنى ما فتحت ولا شفت حاجه!!..

ونظرت اليها امها كأنها تتعجب.. ثم قالت:

- طب قومى اتخمدى.. وبكره الصبح ربنا يحلها..

وقامت فايزة فى حركة آلية، وقبل ان تصل الى غرفتها سمعت خديجة تقول:

- دى ما كلتش حاجه من الصبح يا نينه!!..

وسمعت فوقيه تقول:

- اقوم اعملها ولو سندويتش جبنه!!..

وسمعت امها:

- سيبوها.. انا عارفه الصنف ده.. لا حترضى تأكل ولا تتسمم.. سيبوها بس اقفلوا البيبان بالمفاتيح، ليطلع فى مخها تنزل تانى!!..

●

ورقدت فايزة فى فراشها.. كل شيء فيها نائم الا قلبها

وعقلها..

وأخذت تستعرض ما مر بها كأنها تسأل ليلها رأيه فى نهارها.. ورن فى اذنها صوت اختها خديجة وهى تقول: «افتكرنا عملتى فى نفسك حاجه»..

هل كان يجب عليها ان تنتحر؟..

ولكن.. ما ذنبها ؟!!.

ماذا جنت حتى تقتل نفسها؟..

انها لم تخطىء.. ربما اخطأت فى تقدير الرجل الذى اختارته. الرجل الذى عاشت فى خياله وهربت من حقيقته ولكنه خطأ لا يكفى للانتحار..

وربما كان الرجل معذورا، فقد حكم عليها بسلوك امها وأختيها، وأراد منها ما يستطيع ان يأخذه بسهولة من اختها.

ترى هل كان يحترمها اكثر لو لم تكن هذه هى عائلتها؟.

هل كان يحبها؟..

هل كان يتزوجها؟..

انها لا تستطيع ان تكرهه.. وكلما اقتنعت بسفالته أحست بقلبها وعقلها يندفعان اليه.. أحست انها تريد ان تذهب مرة ثانية.. وتسمع كلامه الصريح الوقح مرة ثانية، وتحس بشفتيه تقتربان من شفتيها مرة ثانية.. ثم تتحداه وتهرب منه مرة ثانية..

لماذا تطوف الفراشة حول اللهب حتى تحترق.. لماذا لا تبتعد وتنجو بنفسها؟..

انها الفراشة.. وهو اللهب..

ان فيها ضعف الفراشة ورقتها وربما غباءها.. وفيه نور اللهب ودفئه واغراؤه!! .

ومن يدرى.. ربما كان غرور الفراشة هو الذى يدفعها الى اللهب.. تندفع اليه لتثبت لنفسها انها اقوى منه وانها لن تحترق به!!..

انه الغرور الذى يلح عليها لتذهب اليه مرة ثانية.. حتى تثبت لنفسها انها شريفة وانها عفة وانه لا يوجد الرجل الذى يستطيع ان يقربها..

بل انه الغرور الذى يدفعها الى ان تتعلق بما يسمى «الشرف»، و«العفة».. وتضع لنفسها مقاييس ومبادىء غير المقاييس والمبادىء التى تضعها امها واختاها، حتى تتميز عنهن وتبدو انها ارفع منهن وارقى، وترضى بذلك نفسها وغرورها..

هل هذا صحيح؟..

انها لاتدرى..

لا تدرى الا انها لا تستطيع ان تكرهه وكلما حاولت ان تبتعد عنه بخيالها انزلق اليه..

ولا تستطيع ايضا ان تكره عائلتها.. امها واختيها..

وكلما عابت عليهن سلوكهن، ازدادت تعلقا بهن، ولهفة عليهن.

ولكنها يجب ان تقاوم..

ان كل ما حولها يدفعها إلى الخطيئة، بل انها تعيش وسط الخطيئة.. ولكنها يجب ان تقاوم، وان تعبر نهر الحياة سابحة

ضد التيار..

ستكون الزهرة التى تنبت وسط المستنقع، ستكون تمثال العذراء المصنوع من الطين الذى يحيط بها، ستكون صورة الملاك المرسوم بالفحم الاسود الذى يملأ قلوب الناس..

ولكن لماذا؟.. لماذا تقاوم؟!!.

انها ايضا لا تدرى..

ومرت ايام كثيرة وهى فى حيرتها.. تقضى نصف عمرها فوق فراشها.. خيالها فوق الوسادة وآلامها تحت اللحاف، وبابها مغلق بالمفتاح..

وقررت الأم خلال تلك الأيام ان تقطع كل علاقة للعائلة بالاستاذ منير حلمى.. فمنعت ابنتها فوقيه من ان تتصل به واستحلفت ابنتها فايزه ألا تعود اليه..

ولم تتخذ الأم قرارها هذا بناء على اقتناع بسفالة الأستاذ منير حلمى، فقد عرفت الكثيرين من اسافل الرجال، بل ان كل الرجال فى نظرها سفلة، وقد استطاعت دائما ان تستغل سفالتهم.. ان تأخذ ما تريد، ولا تعطى اكثر مما تريد!! .

ولكنها اتخذت قرارها على مضض، لأنها لم تكن واثقة من سيطرتها على ابنتها فايزة، ولم تكن واثقة انها تستطيع ان تحركها كيفما شاءت نحو الهدف الذى ترسمه لها.. فخافت عليها ان تشركها فى خطة من خططها قد تروح ضحيتها.. او على الاقل قد تفسدها.. فتنازلت عن تحدى الاستاذ منير حلمى وقلبها يتمزق من الغيظ..

وعادت الحياة الى البيت كما كانت..

الرجال يفدون كل ليلة..
والكل سعداء..
عدا فايزة..

هى وحدها التى تحمل هم البيت كله، وهى وحدها التى تحمل الاحساس بخطيئة امها واختيها..

وكان يجب ان تبحث عن شىء يلهيها عن همها، فلم تعد القصص التى تقرأها قادرة على ان تستولى على خيالها.. فكل قصة تذكرها بمنير حلمى، واذا قرأت قصة له أطلت عليها مصيبتها من بين السطور، واحتارت بين خياله وحقيقته.. خياله الذى تحبه، وحقيقته التى تهرب منها... وما أتعس القارئات عندما يقرأن لكاتب يعرفن حقيقته!!

وقررت ان تلتحق بمعهد (..........) لتتخرج فيه معلمة، علها تجد فى دراستها ما يلهيها عن همها..

لم تلتحق بالجامعة كما كانت تحلم دائما..

غلبتها رهبة لا تدرى لها سببا.. ربما ارادت ان تتجنب كفاحا اخر قد تضطر اليه عندما تجد نفسها بين الطلبة. وربما خافت ان يكون من بين الطلبة واحد او اكثر من الذين يترددون على البيت ضمن الرجال..

كانت تريد ان تبتعد عن الرجال.. كلهم تريد ان تبتعد عن كل ما يذكرها بالحياة التى تجرى فى بيتها.. تريد ان تستريح من المعركة التى تثور فى نفسها، وان تهرب من كل ما يعرضها لتجربة اخرى فى حياتنا..

ودخلت المعهد -وهو خاص للبنات- كما تدخل الدير..

واقنعت نفسها فعلا بأنها داخلة على الدير.. وامتلأت ايمانا بأنها هجرت الحياة ووهبت نفسها لله..

فكانت تمشى فى خطى بطيئة كأنها تسير فوق سحاب، او كأنها ملاك مقصوص الجناحين فلا يستطيع ان يطير ولا يستطيع ان يمشى كما يمشى الناس.. واصبح فى عينيها دائما نظرات معلقة فى الفضاء كأنها تبحث عن الله لتسأله الرأى، او كأنها تبحث فى ماضيها عن مستقبلها.. واصبحت تتكلم فى صوت خفيض ناعم كأنه النجوى، وينبض فى صوتها وتر من الحنان كأنها فعلا قديسة تغفر- اذا ما تكلمت- للخاطئات..

واستقبلتها زميلاتها الطالبات بشىء من الحيرة..

كانت جميلة.. أجمل منهن جميعا.. وكان جمالها وحده كافيا ليثير حقد زميلاتها وغيرتهن..

ولكن جمالها لم يثر همس الزميلات، كما أثارهن صمتها الطويل، ومشيتها البطيئة، وعيناها المعلقتان فى الفضاء، وصوتها الخفيض اذا ما تكلمت. واحترن فى تفسير كل ذلك، ولم يجدن له الا تفسيرا واحدا هو انها «متقنزحة»..

وكان هذا الاتهام بمثابة اعلان حرب عليها..

ولكنها لم تشعر بالهمس الذى يدور حولها.. ولم تتوقع ان يثير احد حربا عليها.. كان كل ما راعها فى اول ايامها بالمعهد شخصية العميدة.. او رئيسة الراهبات كما تصورتها.

كانت سيدة قوية حازمة..

كانت تلقى اوامرها الى الضابطات والطالبات بثقة باترة،

كأنها تعلم انها قوة لا ترد..

وكانت ترتدى ثيابها فى احتشام.. وتتكلم فى احتشام، وتطوف بأرجاء المعهد فيضمت كل شىء تحت وقع قدميها.. كأنها القدر.. الكل يستسلم له!!..

لماذا لم تكن ابنة العميدة؟!!..

لماذا كتب عليها ان تكون ابنة لإمرأة خليعة مستهترة، ليس لها رسالة الا افساد بناتها والايقاع بالرجال..

ورغم ذلك فالعميدة ليست ملاكا ولا الها.. انها سيدة مثل ملايين النساء.. لها زوج ولها اولاد، ولها حياة..

اذن فالحياة ليست كلها خطيئة؟!!..

انها تستطيع ان تكون يوما ما كالعميدة.. ان تتعلم.. ان تتزوج، وان تكون لها رسالة فى تربية بنات البلد كلهن..

وتفتحت امام خيالها ابواب الأمل..

واستعادت ثقتها فى «الشرف» كما تصورته: لن يقربها رجل الا اذا تزوجها، ولن تحب الا حبا بريئا عفا.. حبا ليس له نهاية الا الزواج أو الانتحار!!..

وكادت ترتاح لحياتها فى دير.. وفى عبادتها «للست العميدة»!

ولكن أعمدة المعبد الذى أقامته من خيالها بدأت تنهار أمام عينيها..

كانت سيارة المعهد الكبيرة تحملها من البيت كل صباح وتعود بها كل مساء. وكانت كلما وقفت السيارة امام بيتها وصعدت اليها استقبلتها الطالبات بصفير طويل، كهذا الصفير

الذى تسمعه من بعض الشبان الذين يتعقبونها كلما سارت فى الشارع..

وكانت تتجاهل هذا الصفير، ثم تلتقى بتحية خافتة الى اقرب طالبة تجلس بجانبها، فيرد عليها جميع البنات فى صوت واحد:

- صباح الخير يا جميل!!

وكانت السيارة تخترق الطريق، فتتعلق عيون البنات بالشبان خصوصا اذا كان الشاب يركب سيارة.. وتتبرع كل منهن بكلمة: «والنبى دمه خفيف».. «يا ختى عليه».. «شوفى يا سعاد الجدع ده.. جنان».. «بصى يا امينه.. حقه لو فتحت عين وغمضت عين ولقيته جنبى.. افرتكه حتت»!!..

ثم سمعت واحدة منهن تقول لعابر طريق فى صوت لا يسمعه: «بص هنا يا افندى.. والنبى دحنا معانا واحدة زى القمر»!!..

وعرفت انها المقصودة..

وكانت تتشاغل عن كل هذه التعليقات بالنظر فى كتاب.. وكانت تسمع طالبة من زميلاتها تروى لزميلة اخرى نكتة خارجة، فيضج كل من فى السيارة بالضحك إلا هى، فتنظر اليها احداهن فى غيظ مكبوت وتقول لها:

- ما تضحكى يا كشر هانم.. ولا كلامنا مش قد مقام السيادة!!..

فكانت ترد كأنها تتقى الشر:

- ابدا والله.. بس ما سمعتش بتضحكوا على ايه!!..

ومع مرور الايام انهدم الدير الذى اقامته من خيالها.. واضطرت ان تخضع لحياة الطالبات حيث تتقى شرهن. وأصبحت تضحك -بلا قلب- على النكت الخارجة، واصبحت تقر معاكستهن للشبان.. وأصبحت تسمع قصص مغامراتهن التى ترويها اثناء «الفسح».. واصبحت تصعد معهن الى «بيت الداخلية» بعد انتهاء الدراسة لتشترك معهن فى حلقات الرقص والغناء التى يقمنها.. لم تكن ترقص ولا تغنى، ولكنها كانت تجلس بينهن حتى لا يتهمنها «بالقنزحة» وحتى تحمى نفسها من ألسنتهن..

ورغم ذلك فان الزميلات لم يغفرن لها جمالها، ولم يغفرن لها مظهرها الأنيق، ولم يغفرن لها انهن لا يعلمن شيئا عن مغامراتها، ولم يغفرن لها تعففها فى حديثها، ولم يغفرن لها تفوقها عليهن فى الدراسة..

وظل يفصل بينها وبين زميلاتها ستار كثيف، لم تستطع ان تخترقه الا زميلة واحدة اطمأنت اليها ومنحتها صداقتها.

كانت فتاة هادئة الجمال.. فى عينيها دائما غشاء من الدموع كأنها كانت تبكى او كأنها على وشك البكاء.. وفوق وجهها مسحة من الطيبة الحزينة كأنها استسلمت او على وشك الاستسلام، وبين شفتيها انفراج دائم كأنها تتأوه أو على وشك ان تتأوه!

وكانت هدى تشارك فايزة فى ميلها الى العزلة.. وفى نشاط خيالها.. وفى تعلقها بالقصص وفى عفة حديثها.. وفى شعورها بالضعف ازاء الدنيا.. فأصبحتا صديقتين لاتفترقان

طول اليوم الدراسى، واعترف لهما بقية الطالبات بهذه الصداقة، وكرهنهما الاثنتين!!..

ورغم ذلك لم تبح فايزه بسرها لهدى..

ولم تدعها الى بيتها..

ولم تقربها منها إلا فى حدود مرسومة، كأنها تخشى إن اقتربت منها اكثر وعرفت سرها ان تفقد صداقتها..

وظلت فايزة وحيدة بسر شقائها، لا يخفف عنها الا هذه الصداقة المحدودة التى تربطها بهدى، ثم ايمانها بعميدة المعهد واملها فى ان تصبح يوما مثلها.. ثم .. استاذ الأدب الانجليزى..

كان استاذا وسيما.. قد لا تجذبك وسامته بقدر ما تجذبك شخصيته..

وربما كان يحس بوسامة شخصيته وقوتها، وكان يفترض دائما اعجاب الطالبات به، فكان يلقى دروسه كأنه يسكب فى قلوبهن سحره، وكان يلقيها بصوت ملىء فيه صوت الشاعر، وحنان الحب، وفيه دائما ما يثير الخيال..

وقد أثار خيال فايزة منذ الدرس الأول.. وتفتح عن آفاق جديدة.. آفاق أبعد عن الأفاق التى فتحها لها الاستاذ منير حلمى بقصصه.. آفاق رسمها شيللى، وبايرون، وجين اوستن.

وسمعت صوت الأستاذ وهو يلقى عليهن مقطوعة من شعر شيللى:

«يا فتنة القلب...»

«ما اجمل الطبيعة حولنا...............................»

«كل نسمة تحتضن نسمة..............»
«وكل نجم يجرى فى فلك نجم..............»
«وكل موجة ترتمى على الشاطىء لتلثمه............»
«حتى السماء تلتقى بالأرض فى قبلة طويلة عند الأفق البعيد..............................»
«كل الطبيعة غارقة فى دوار العشق..............»
«الا نحن الاثنين ....»

سمعت هذه الاشعار فأحست كأن يدا تلمس قلبها.. احست كأن انسانا يناديها.. من؟!!..

ورفعت عينيها الى الاستاذ، اذا بعينيه مسلطتين عليها، وكأنه يسألها رأيها فيه، وكأنه يأمرها امرا لا تستطيع ان تطيعه.. ووجدت نفسها فى حيرة، واغتصبت حيرتها من شفتيها ابتسامة مترددة، عادت واستردتها سريعا حتى لا تلحظها الطالبات..

وابتسم الاستاذ ابتسامة واسعة كأنه كان واثقا من انها سترتبك تحت وقع نظراته!!..

وانتهى درس الأدب وتجمعت الطالبات حول الأستاذ رشاد او «الدكتور رشاد» كل منهن تفتعل سؤالا ليجيبها عليه..

وخرجت فايزة دون أن تسأله شيئا.. خرجت مرتبكة فى خطواتها لا تنظر اليه وقد كست وجنتيها حمرة كأوراق الورد.

كانت تعلم إن الطالبات كلهن معجبات به، وكانت تعلم انه لا حرج عليها ان اعجبت به هى الأخرى.. ولكنها كانت تخاف

شيئا لا تدريه.. شيئا يحرمها من ان تندفع فى اعجابها به وتبديه بين الطالبات..

هل هو نوع آخر من الغرور؟..

هل كانت مغرورة بجمالها الى حد ان تعتقد ان اعجابها باستاذها لن يؤخذ مأخذ الاعجاب البسيط البرىء الذى تبديه طالبة لأستاذها؟.

ام هو نوع من سوء الظن؟..

هل كانت تسىء الظن بالرجال حتى خشيت ان يحمل استاذها اعجابها به على محمل اكثر من مجرد الاعجاب؟.

ام هو تماد فى الخيال الى حد ان الاعجاب ينقلب فى خيالها الى غرام وعشق؟!

انها لا تدرى.. وهى دائما لا تدرى؟.

ولكنها وجدت نفسها تغرق فى كتب الادب الانجليزى، لم تعد تقرأ- كلما ألقت بنفسها على الفراش واغلقت بابها بالمفتاح -إلا كتب الأدب الانجليزى.. وكانت تقرأها بعينيها، وتسمعها فى نفس الوقت بأذنيها يلقيها الاستاذ رشاد.

واصبح ليلها ويومها أشعارا لشيللى وبايرون، وكانت تقف عند كل مقطوعة من الشعر وتقيسها على نفسها وحياتها.. وكانت تردد من بين ما حفظته من اشعار مقطوعة لتوماس هود:

«لقد ماتت ....»

«و كؤوس الحرير حول نهديها، اصبحت كفنا.............»

« والخطيئة ذهبت مع الموت ....»

« لم يبق الا الجسد الجميل للدود ....»
« قبل جبينها، وسبل جفنيها ....»
«واعقد ذراعيها فوق صدرها، كالصليب ....»
« كأنها تصلى.. صلاة عمياء، للخالق...................»
« تطلب الغفران...»
« فقد كانت انسانا.. يا أخرى...........................»
كانت انسانا!!...»

وكانت تردد هذه الأبيات فتنهمر دموعها.. وكلما كفت دموعها، عادت ترددها مرة ثانية لتنهمر دموعها من جديد..

كانت تجد فيها الحل الوحيد لمشاكلها.. الحل الوحيد لمعنى «الشرف» الذى تتمسك به..

لا شرف إلا بعد الموت.. هكذا يقول توماس هود فى أبياته..

ان الخطيئة تذهب مع الموت..

وكلنا للخطيئة لأن كلنا انسان..

امها وأختاها لن تذهب عنهن الخطيئة الا بالموت.. ومنير حلمى لن يكف عن الخطيئة الا بالموت.. وهى لن تستريح فى معركتها مع الخطيئة إلا بالموت.. وسيغفر الله للجميع!!...

وكانت تحس انها تريد ان تموت.. لتستريح!..

وتريد ان تموت امها وأختاها ومنير حلمى، ليغفر لهم الله!

ولم يكن ينقذها من أفكارها ومن اشعار «توماس هود» إلا ان تقع فى كتاب آخر.. ولم يسترح خيالها الا عندما قرأت قصة «كبرياء وهوى» لجين اوستن..

قصة ثلاث شقيقات. كبراهن تقاوم حبها بكبريائها،

والشقيقتان الأخريان تضحيان بكبريائهما فى سبيل الحب.

واعتقدت ان هذه هى قصتها.. وانها الأخت الكبرى التى تقاوم حبها بكبريائها حتى يخضع الحب فى الفصل الاخير للكبرياء.

وكان الدكتور رشاد يلقى عليهن فصولا من هذه القصة، فتحس أنه يروى فصولا من حياتها، وتلتقط كلماته بلهفة كأنه يرسم حياتها، ويقودها فى طريق عمرها..

وكان الدكتور رشاد يعجب لشدة انتباهها له..

ولم يجد تفسيرا لعينيها المعلقتين بشفتيه، ولأنفاسها المبهورة تحت وقع كلماته، الا انها قد سحرت بشخصيته واكثر من ذلك.. لابد انها تهواه.

ورغم ذلك فقد مرت الأيام والأسابيع واعجابها لا يتعدى هذا الانتباه الشديد الذى تبديه له اثناء القاء درسه..

لم تحاول ان تتقرب اليه..

ولم تحاول ان تجرى وراءه عقب انتهاء الدرس كما تفعل بقية البنات..

واحتار معها..

وبدأ هو يلاحقها..

كان يلاحقها بأسئلة كثيرة اثناء الدرس، فكانت تجيب، دون ان يبدو عليها انها تلحظ تعمده توجيه هذه الأسئلة اليها.. وكانت اجاباتها دائما صحيحة واضحة لا تترك مجالا للمناقشة.

وكان يناقشها بعد انتهاء الدرس، فيناديها ويوجه اليها

مزيدا من الاسئلة ويفتعل توجيها او واجبا دراسيا يكلفها به.. فتؤدى الواجب دون ان تقنعه بأنها فهمت معنى اهتمامه بها..

وربما كانت تشعر بينها وبين نفسها باهتمام الدكتور رشاد بها.. ولكنها صممت على اقناع نفسها بأن هذا الاهتمام لا يعدو ان يكون اهتمام استاذ بطالبة ذكية نجيبة..

كانت تحترمه.. وكانت تضعه فى مكان عال من خيالها.. مكان فوق الرجال جميعا.. فوق الاستاذ منير حلمى ايضا.

ان الرجل الذى يضم بين شفتيه كل خيال شعراء العالم وكتابه، والذى يروى شعرهم وقصصهم كأنه يجود بها من خزين قلبه.. هذا الرجل لابد ان يكون نصف .. على الأقل، ليس رجلا كبقية الرجال!..

وقد عرفت انه متزوج..

حتى انصاف الملائكة يتزوجون!.

وكانت احيانا تتخيله فى بيته مع زوجته.. ما أسعدها به.. انه يدخل اليها عائدا من المعهد فيضمها بين ذراعيه ويهمس فى اذنها ببيت من شعر بيرون، ويجلس معها الى المائدة فيروى لها قصة من قصص أوسكار وايلد.. وهو دائما رقيق كالخيال، حنون كأنغام الناى، قوى كشجرة السنديان، طاهر كقطرات الندى.

ما أسعد زوجته به..

ومن لها، ولو بربع ملاك!

كانت هكذا تتخيله.. الى ان كان يوم..

... يوم جمعة، وكانت خارجة من العمارة التى تسكنها فى طريقها الى شارع فؤاد.. واذا بها تلتقى به فى نفس الشارع الذى كان تقع فيه عمارتها..

كان يقود سيارته الصغيرة التى تعرفها الطالبات..

واوقف السيارة بجانبها.. وهتف باسمها..

والتقيت اليه، ثم طغت عليها موجة عنيفة من الارتباك، حتى انها لم تدر كيف تحييه..

وقال لها ببساطة وهو يفتح باب سيارته:

- رايحه فين.. تعالى اوصلك!.

وقالت وهى تحاول ان تنقذ نفسها من ارتباكها:

- لا.. مرسى يا دكتور!.

- تعالى بس، واسمعى كلام استاذك!.

- انا اصلى نازلة البلد... و...

وقاطعها وابتسامته لا تزال على شفتيه:

- فى سكتى.. اركبى!.

ولم تجد مفرا من ان تركب.. وبدأ يحادثها طول الطريق عن دروس الأدب الانجليزى، ويحاول ان يفتح امامها آفاقا جديدة منه..

كان جدا.. مهذبا.. رقيقا، وقال وهو ينظر امامه الى الطريق:

- على كل حال انتى فى حاجة لدروس خصوصية..

وقالت فرحة:

- والنبى يا دكتور.. ممكن تدينى دروس خصوصية!.

- علشان خاطرك بس.. لأنك احسن طالبة غندي!
واتفقا على موعد الدرس الأول!..
ولم تبلغ احدا من زميلاتها الطالبات باتفاقها مع الدكتور رشاد.. ربما لأنها نالت بهذا الاتفاق شرفا كبيرا تخاف ان تحسدها عليه الزميلات، وربما لأنها ظنت ان الدروس الخصوصية ممنوعة على اساتذة المعهد، فأرادت ان تحمى استاذها..
واهتمت فايزه اهتماما كبيرا باستقبال استاذها فى بيتها لتستمع الى درسه الأول.
اشرفت على الخادم وهى تكنس، ونظفت بنفسها قطع الأثاث واشترت زهورا نسقتها بيديها فى اوانى الزهر.. وكانت تطوف بأرجاء الحجرة - حجر الاستقبال- تساوى فيها وتعيد ما سامته حتى «شراريب» السجاد ساوتها الواحدة بجانب الاخرى كأنه كان فى امكانه ان يلحظ اذا ما كانت «شرابة» ليست فى موضعها..
كانت كأنها تريد ان تقيم من الحجرة معبدا.. معبدا للأدب الانجليزى!.
وألحت على امها وشقيقتيها حتى يظهرن امام الاستاذ فى مظهر الراهبات.. لا ثياب فاضحة، ولاضحكات خليعة، ولا «تواليت» اكثر من اللازم..
الحت عليهن.. حتى ضقن بها، وصاحت امها:
- يوه يا بنتى.. ده ما كانش استاذ.. هو راجل ولا ملاك!
وقالت فوقية:

- فهمنا يا ستى.. حنرجع تلامذه من جديد!.

وقالت خديجة:

- انتى فاكره احنا مانفهمش فى الاصول ولا ايه.. خلاص.. مالكيش دعوة.. اطمنى!..

ورغم ذلك فقد كن فرحات بفرح فايزةباستاذها، وكانت كل منهن قد قررت ان تمثل بأمانة الدور الذى تريد فايزة ان يمثلنه امام اول رجل تدعوه الى البيت.

وجاء الدكتور رشاد لأول مرة..

واستقبلته فايزة كأن كل ما تملكه وكل مافى البيت لا يليق بمقامه..

وفتحت خديجة، وفوقية فرجة فى باب غرفتهما ليرياه، وهمست فوقيه:

- والنبى عليه القيمة.. كنت فاكراه راجل عجوز!.

وقال خديجة:

- حقه فايزه دى عبيطه.. بأه ده استاذ.. ده جوز سقع!.

ودخلت امها ترحب به. وقورة هادئة وقد قللت الأصباغ عن وجهها.. وجلست معهما قليلا تسأل عن حال ابنتها فى المعهد، ثم قامت لتتركهما يبدآن الدرس..

وانتهى الدرس الاول كأنه حلم قصير مر بها..

والدرس الثانى.. والثالث.. والرابع.. وربما لاحظت فايزة ان رشاد يطيل النظر اليها كثيرا.. وربما رأت فى نظراته شيئا لا تستريح اليه. وربما لاحظت أنه يقطع الدرس كثيرا ليحدثها عن نفسه.. عن السنوات التى قضاها فى انجلترا لينال شهادة

الدكتوراه.. وعن الصدمات التى فتتت قلبه، وعن آلامه ومتاعبه النفسية.. وربما لاحظت ايضا انه لم يحدثها ابدا عن زوجته ولا عن اولاده ولا عن بيته.. وربما لاحظت ان الكلفة بدأت ترتفع بينه وبينها، وبين افراد العائلة كلها.. وربما لاحظت أنه يقرب رأسه من رأسها احيانا حتى تلامس خصلات من شعرها صفحة وجهه..

ربما لاحظت كل ذلك.. ولكنها لم تفكر فيه، او انها ارادت ألا تفكر فيه.. وظلت سعيدة بدروسها الخصوصية.. وكان اكثر مايسعدها ان تشترك مع استاذها فى قراءة قصة من الأدب الانجليزى، وأن تقرأ هى -كلما صادفها حوار- دور البطلة، ويقرأ هو دور البطل..

كانت تقرأ كأنها تمثل، ثم تندمج فى التمثيل حتى تخرج كل كلمة من اعماق قلبها، وحتى تبكى كلما صادفها فى الحوار بكاء، وتضحك كلما صادفها ضحك، وتحب كلما صادفها حب!!

وكان يقرأ فى صوت ملىء عميق كأنه صدى من عالم بعيد جميل.. وكان يقرأ كأنه يوجه كل كلمة اليها.. كأنه يناجيها!!.

وكان يقرآن قصة «مرتفعات ويزرنج».. هو يقرأ دور البطل، وهى تقرأ دور البطلة..

وقرأ:

«ان كل ما يستطيع ان يفرضه علينا الله او الشيطان من «بؤس او تعاسة او موت، لم يكن قادرا على فضلنا..» «ولكنك انت فعلت ذلك بمحض اختيارك.. اننى لم احطم» «قلبك..

ولكنك انت التى حطمت قلبك، وقلبى معه...» «احقا إنى اريد ان اعيش؟.. اى نوع من الحياة هذه ستكون» «بعدك!!.. آه يا الهى.. اتستطيعين العيش وروحك فى القبر.»

وقرأت ترد عليه:

«دعنى وحيدة.. دعنى وحيدة............»

«لقد اخطأت ومن اجل ذلك فانا اموت.. وهذا جزائى»

«اما انت فقد تركتنى ولكنى لا الومك.. اننى اغفر لك»

«فاغفر لى..»

ويقرأ بقية الحوار:

«كيف اغفر لك.. كيف اغفر لك وانا ارى هاتين العينين»

«.. كاترين قبلينى مرة اخرى ولا تدعينى ارى عينيك....»

«اننى اغفر لك.. لانى احب قاتلتى.................»

وكانت مندمجة بكل اعصابها فى قراءة دور كاترين بطلة «مرتفعات ويزرنج» التى ماتت فى سبيل الحب، فلم تلحظ ان الكتاب قد سقط من يد الاستاذ، ولم تلحظ انه قد قبض على يدها، وانه يضغط عليها بعنف، ولكنها سمعته وهو يقول بنفس اللغة الانجليزية التى فى الكتاب وبنفس الأسلوب:

فايزة.. ألم تفهمى حتى اليوم.. الم ترى نفسك فى عينى.. الم يكفك كل هذا الانتظار.. هل صدقت قصة هذه الدروس الخصوصية.. إنى احبك.. احبك.. انك لى!!

ولم ترد.. وظلت تنظر فى كتابها..

- ولم ترد.. وظلت تنظر في كتابها..

وربما كانت تبحث عن اثر هذه الكلمات بين السطور.. وقبل

ان تجدها وجدت نفسها بين ذراعيه وشفتاه تطوفان فوق شعرها، وترتطمان بوجهها كزنهما مجذافا مجنون يجذف بهما نهر الخيال.

وأبعدته عنها فى قسوة تصد بها قسوة المفاجأة.. والتمعت عيناها فى ذعر كأنها وقعت فى هاوية.. وقامت بعيدة عنه وصدرها يلهث كأنه يقرع طبول الحرب..

وبقى رشاد على مقعده وقد ثنى احدى ركبتيه كأنه يركع تحت القوام المنتصب امامه ينتفض من الغضب.. ورفع اليها عينين متوسلتين وقال:

– انا آسف.. كان لازم تفهمى من زمان!!..

وقالت وهى لا تزال فى غضبها:

– ما كانش ممكن افهم للدرجة دى!!

قال فى ضعف:

– انا وصلت للدرجة دى من زمان.. من قبل أول درس خصوصى!!..

قالت وقد انقلب غضبها الى دهشة:

– لكن انت متجوز!!..

قال وهو يخفى عنها عينيه:

– وانا ذنبى ايه.. لما اتجوزت ما كنش عرفتك ولا شفتك؟

وقالت متسائلة:

– كنت فاكره انك بتحب مراتك!!..

قال وقد قام من مقعده، واخذ يروح فى الغرفة:

– أرجوكى.. بلاش تجيبى سيرة مراتى!!..

– ولكن..

وقاطعها:

– انا آسف مرة ثانية.. أو رفوار!!..

ودون ان ينظر اليها خرج..

وسمعت صوت الباب الخارجى يصفق وراءه بعنف!!..

ووقفت مكانها مشدوهة بلهاء.. كأنها لا تدرى شيئا.

ثم جلست ، وفتحت الكتاب، واخذت تقرأ من جديد.. دون ان ترى السطور!..

ووقعت فايزة فى نوبة جديدة من نوبات ذهولها.

انها لم تعد تدرى شيئا..

لماذا اراد الدكتور رشاد تقبيلها؟..

انها معجبة به.. معجبة بشخصيته ومعجبة بالأسلوب يلقى به محاضراته ومعجبة بذوقه فى اختيار الأشعار والقصص من الأدب الانجليزى، ومعجبة بصوته الملىء العميق الذى يثير خيالها.. ولكنها حرصت دائما على ان تبدى اعجابها فى حدود ضيقة حتى لا يتكرر خطأها مع منير حلمى..

ثم انه استاذها.. والمفروض فيه انه رب فاضل.. هل اساتذة الجامعة ايضا مجرد رجال.. ككل الرجال؟..

وهو متزوج.. كيف يجرؤ على مغازلتها وهو متزوج؟!..

لقد كانت تتصور زوجته أسعد الزوجات به.. كانت تتصوره يملأ بيته شعرا وحنانا ورجولة..

هل كتب عليها كلما أقامت من خيالها معبدا ان ينهدم المعبد فوق رأسها؟!..

هل هو يحبها؟!..

وما ذنبها في هذا الحب، وما نصيبها منه؟..

ام هو يريد منها ما تعود الرجال ان يأخذوه من شقيقتيها وامها؟..

انها لا تدرى شيئا..

انها لا تفهم..

ولم تجد من يبرز في خيالها وهى في حيرتها، إلا منير حلمى..

انها لا تدرى ايضا لماذا تفكر فيه كلما احتارت وكلما تعقدت الحياة حولها، وكأنه الانسان الوحيد الذى يستطيع ان يدلها على الطريق، وكأنه الانسان الوحيد الذى يعلم كل شىء عن الحياة.. عن حياتها!..

وامسكت بسماعة التليفون وادارت رقم منير حلمى.

الرقم الذى لم يضع من ذاكرتها ابدا..

وسمعت صوته:

- آلو.. آلو..

ولم تلب نداءه إلا بأنفاسها..

لم تتكلم، انما علقت السماعة فوق اذنها قليلا، وكأنها

تحتضن صوته بأذنها..

ثم أعادت السماعة الى مكانها..

ماذا يجديها ان تحادثه.. انه لا يزال يعتقد فيها ما يعتقده فى شقيقتيها .. ثم انه ليس الا رجلا كبقية الرجال.. رجلا لا يريد الا الجسد.. اى جسد! وجسدها واحد من ملايين الأجساد!

ووقعت فى هوة سحيقة من اليأس.. اليأس من حياتها ومن الدنيا كلها.

وأحاط بها الظلام.. ظلام يزحف على قلبها وعلى رأسها..

أين المفر الى النور.. المفر الى الحياة الطاهرة النظيفة..

المفر الى الحب العف البرىء؟!..

وفرت الى دموعها..

ولم تذهب الى المعهد فى اليوم التالى ولا اليوم الذى يليه فقد كانت لا تدرى كيف تواجه الدكتور رشاد، ولا تدرى كيف سيواجهها.. وكانت متأكدة انه سيقطع دروسه الخصوصية وانها لن تراه فى بيتها ابدا..

لقد كانت سعيدة بهذه الدروس الخصوصية.. كانت تجد فيها راحة ذهنها وراحة خيالها، وكانت تستعيد خلالها ثقتها فى الدنيا وثقتها فى نفسها..

ولكن الثمن الذى يطلبه لهذه الدروس كبير.. كبير جدا.. ولم تكن تعتقد ان لها ثمنا!..

وفوجئت فى اليوم الثالث بالدكتور رشاد يطرق باب البيت.. لقد جاء فى موعد الدرس الخصوصى!!..

والقى تحيته عليها فى لهجة جادة.. وجلس وكأنه لم يحدث

بينهما شيء، لم يشر الى آخر «درس» بكلمة واحدة، ولم يحاول ان يكرر اعتذاره.. كل ما كان يبدو عليه، ان وجهه صارم كما لم تره ابدا، وان صوته جاف ليس فيه الحنان الذى تعودته منه، وانه لا يرفع عينيه اليها، ولا يقرب وجهه من وجهها كما عودها..

واختار شعرا من الأدب الانجليزى يدور حول الحب وحب الوطن، واخذ يفسره لها، بطريقة مدرسية مملة كأنه يؤدى واجبا ثقيلا على نفسه..

ولم تسمع كلمة واحدة من الدرس..

كانت تريده ان ينتهى منه، فربما فاتحها بعد ذلك فى الموضوع الأهم.. موضوعهما.. لماذا قبلها؟ والى اى حد يحبها؟!

واحست بالضيق. بل احست بأنها اهينت لأنه يتجاهلها كل هذا التجاهل، ويتناسى انه قبلها غصبا او على الأقل حاول ان يقبلها..

هل هو الغرور مرة ثانية؟..

الغرور الذى يدفع الفراشة الى ان تتحدى اللهب فتدور حوله الى ان تحترق؟..

الغرور الذى يدفعها اليوم الى التلهف على مفاتحة رشاد لها بحبه.. لتتحداه كما سبق ان ذهبت الى منير حلمى فى بيته لتتحداه ايضا..

وسألها سؤالا خاصا بالدرس الذى يشرحه..

ولم تجب، فلم تكن تسمع شيئا من الدرس، ونظر اليها متسائلا وهو لا يزال محتفظا بوجهه الصارم..

وقالت وهى تدعى الارتباك:

- انا آسفة ما كنتش واخده بالى!!..

وقال فى لهجة الاستاذ:

- يبقى مافيش لازمة للدرس الخصوصى!.

وأزاح كرسيه كأنه يهم بالقيام، فرفعت اليه عينين متوسلتين، وقالت فى لهفة:

اصلى ما كنتش فاكره ان حضرتك حتيجى النهاردة!..

قال وهو لا ينظر اليها وقد بدأ صوته يرق:

- تفتكرى كان لازم ما جيش؟..

- بالعكس.. كنت خايفه انك ما تجيش.. انما..

وقاطعها:

- انا قررت انى ماتكلمش على اللى حصل..

وتنهد كأنه ينزع انفاسه من صدره، واستطرد:

- انا كنت غلطان.. كنت فاكر انك حتقدرى تفهمينى!

وقالت كأنها تواسيه:

- انا مستعدة دايما ان افهمك.. بس اصلك فاجأتنى!

ولم يرد..

وأخذت تعبث بصفحات الكتاب..

وساد بينهما صمت طويل لم ينظر احدهما خلاله الى الاخر..

ثم قرب مقعده من المائدة مرة اخرى، وبدأ يقرأ قصيدة من شعر بايرون.. وقد عاد الحنان والعمق فى صوته:

« حينما افترقنا.. فى صمت ودموع..............»

« وقد حطم الفراق قلبينا ....»

« واعترتهما برودة، اشد من برودة قبلاتك ....»

« كانت تلك الساعة إيذانا بالعذاب الطويل...........»
« وكانت قطرات الندى تتساقط فوق جبينى، رطبة .....»
« وكأنها كانت تحذرنى من الوحدة..................»
« الوحدة التى تملأ كيانى الآن ....»
« لقد حطمت كل وعودك.. وهانت عليك نفسك ونفسى.........»
« واصبحت أسمع اسمك، فتنتابنى رعدة...................»
« كأنهم ينعونك الى اذنى ....»
« واسائل نفسى ....»
« لماذا أحببتك كل هذا الحب ....»

واستمعت الى صوته فبدأ خيالها يستيقظ من جديد ويرفعها الى العالم الذى تحب دائما ان تعيش فيه.. عالم النفوس المعذبة.. وأحست انه يحادثها هى، وانه يلومها على فراقها له، وخيل اليها انها خانته فعلا، وعذبته، وألقته الى الوحدة التى تملأ كيانه..

وارتسمت فى عينيها نظراتها الساهمة..

وتصاعدت الدماء الى وجنتيها كأنها تزفها إلى خيالها فى موكب أحمر..

وأحست انها تريد ان تتكلم.. ان تخفف عنه عذابه ووحدته.. ولكنها لم تكن تدرى ماذا تقول، ثم طأطأت رأسها وأخذت تنظر الى يديها واحداهما تعصر الأخرى، كأنهما جناحا حمامة وقعت فى شرك الصياد وعجزت ان تطير..

وقالت وهى لا تنظر اليه:

– بايرون شاعر رقيق خالص..

قال وهو لا ينظر اليها ايضا.

- كل شعر يبقى رقيق لما يعبر عن حالة اللى بيقراه..

قالت وكأنها قد استجمعت كل شجاعتها..

- ما كنتش فاكره انك وحيد للدرجة دى..

قال وقد التمع فى عينيه امل جديد:

- انا طول عمرى با قاسى فى وحدتى..

قالت كأنها تواسيه:

- كنت فاكره انك سعيد فى جوازك..

ولم يرد، انما تجهم وجهه..

واستطردت وقد رفعت عينيها اليه:

- انت ما بتحبش مراتك؟!!..

قال وكأنه يحاول ان ينهى هذا الحديث:

- ما أقدرش استغنى عنها!!..

قالت فى براءة:

- ليه؟

ونظر اليها كأنه سئم الحاحها، وقال وقد ارتفع صوته:

- انتى مش قادرة تنسى انى قلتلك انى باحبك.. ومش قاردة تنسى انى متجوز وما اقدرش استغنى عن مراتى.. وعايزة تعرفى ليه.. علشان هيه الحياة، وانتى الحب.. ما اقدرش استغنى عن الحياة، ولا عن الحب..

قالت وهى تبدو اكثر سذاجة:

- وايه الفرق بين الحياة والحب؟!!..

ونظر اليها كأنه يشك فى سذاجتها ثم قال وكأنه صمم ان يصل معها الى آخر الطريق..

- تعرفى الشمعة.. اهى مراتى تبقى الشمعة، وحضرتك تبقى الكبريت، وانا ابقى الفتيل.. الفتيل ده ما يولعش من غير كبريت.. ولو قرب علبة الكبريت من غير ما يكون فى وسط الشمع ماينورش.. انما ينحرق ويشيط!!..

قالت وكأنها تسخر منه:

- يعنى انا ومراتك لازم نتعاون علشان حضرتك تنور؟

- فعلا..

- وطبعا الكبريت فيه منه كتير.. كل علبة فيها عشرين عود..

- أرجوكى .. ماتنسيش انك انتى اللى فتحت الموضوع ده!!..

- انا بس بدى اعرف، الكبريت حياخد ايه لما حضرتك تنور؟..

- يعيش فى نورى..

وقالت وقد جنت من انانيته وغروره:

- الله ينور عليك.. هو الكبريت لو ما يولع يقدر يعيش.. مش فاكر يوسف وهبى لما كان بيقول شرف البنت زى عود الكبريت ما يولعش إلا نوبة واحدة..

قال وهو يستخف بعقليتها:

- والله مش قادر اتصور طالبة زيك فى المعهد العالى بتقرأ.. لبايرون وشيللي، وتستشهد بكلام واحد زى يوسف وهبى.. ممثل دجال بيضحك على عقول الناس اللى زيك بكلام رخيص.. ثم لازم تفهمى ان شرف البنات اليومين دول مش زى عود الكبريت، ده زى الولاعة يولع ميت مرة!!..

قالت غاضبة:

- قصدك ايه يا دكتور؟..

قال متهكما:

- والله اسألى نينتك توحيده هانم.. اظنها تعرف فى الموضوع ده احسن منى!!..

وصرخت فى وجهه:

- مالكش دعوة بنينة.. ما تجيبش سيرتها.. نينه لو عرفت انك بتكلمنى الكلام ده ما تدخلكش البيت.. نينه أشرف من ستات البلد كلهم..

وكأنها لم تستطع ان تصدق كلامها، وأحست انها تكذب وهى تقول «نينه أشرف من ستات البلد كلهم» فانكفأت على حافة المائدة واخذت تبكى بصوت عال، وهى تنشج قائلة كعادتها «يا حبيبى يا بابا»..

وقام رشاد واقترب منها، ومد يده فى تردد واخذ يربت على كتفها قائلا:

- انا آسف يا فايزة.. انتى اللى اضطرتينى اقول الكلام ده.. طول عمرك تحبى المناقشة، وعمرك ما تتناقشى الا لما تعيطى..

قالت وهى لا تزال تبكى:

- ارجوك تسيبنى.. كفايه اللى قلته..

- أنا حاسيبك دلوقت.. يمكن دموعك تريحك.. انما حارجع تانى..

وخرج رشاد..

وجفت دموع فايزه فوق وجنتيها.. وقامت الى حجرتها لترقد فى فراشها.. خيالها فوق الوسادة، وآلامها تحت اللحاف..

ان مشكلتها تتكرر ولا تتغير.. انها تدور دائما فى نفس الدائرة: كلما وثقت فى رجل أرادها لنفسه.. وهى لا تريد ان تعطى نفسها لأحد الا باسم الحب.. ولا احد يحبها، كلهم يريدونها.. يريدون جسدها.. ويريدونه بلا زواج!!..

وأمسكت كتاب الشعر، واخذت تقرأ قصيدة الغفران للشاعر تنيسون:

«أيها الحب الخالد.. يا ابن الاله..............»
«يا من صنعت الحياة، من عناق النور والظل..............»
«يا من وضعت الروح، فى الانسان وفى الثعبان..........»
«وطمست بالموت على معالم القبح ومعالم الجمال.........»
«وتركت آثار بصماتك ....»
«على الورد والشوك والتراب ....»
«انك لن تتركنا وحدنا.. حيارى ....»
«سوف تنسى خطايانا ....»
«فنحن خلق يديك ....»
«وكل ما نفعله، من حماقة، ونزق، وطيش ....»
«لا شىء.. لا شىء...........................»
« فى غمار الحب الذى يسيل من قلبك ....»
« فيحتضن كل خيرنا، وكل شرنا ....»

قرأت هذه الأبيات.. ثم اغمضت عينيها وأخذت تتلوها كأنها تتعبد بها.

ان الله هو الحب..

والحب يغفر كل شيء.. يغفر الحماقة والنزق والطيش.. ويضم في دنياه الخير والشر!..

ولكن اين هو الحب؟!

هل منير حلمي هو الحب؟!

هل الدكتور رشاد هو الحب؟

هل هؤلاء الرجال الذين يقدرون على البيت ويجالسون شقيقتيها وامها يمثلون الحب؟..

ابدا.. لأنهم لا يمثلون تعاليم الله!

انها لا تجد الحب إلا في خيالها وفي خيال الشعراء وكتاب القصة.. ان الحب وهم، انه خيال.. انه حقيقة مجهولة.. انه الله!

وأحست انها تريد ان تصلي .. تصلي لله.. ما دام الله هو الحب..

وقررت فعلا ان تبدأ في الصلاة من غدها..

ونامت كأنها انتقلت الى السماء..

ولكنها عندما اصبحت لم تصل، بل ارتدت ثيابها وذهبت الى المعهد..

كانت تحس بصدرها محملا بأكثر مما يطيق.. وكانت تحس بحاجتها أن تلقي بعض حملها على احد من الناس.. ان تبوح بسرها الى انسان يفهمها ويستطيع ان يواسيها وان يسد الثقوب النفسية التي تعصف من خلالها أحساسيها.. كأنها زوابع تهز بيتا مهدما..

واختارت صديقتها هدى لتبوح لها بسرها..

وجلست بجانبها فى حديقة المعهد صامتة حزينة، حتى سألتها هدى فى لوعة عن سر صمتها وحزنها..

وقالت فايزة وهى لاتزال مترددة فى البوح بسرها:

– متضايقة يا هدى.. وباتمنى الموت!!..

وقالت هدى فى لهفة:

– بعد الشر عليكى.. ايه بس اللى مضايقك؟!!..

– الدنيا كلها..

– ومين مرتاح فى الدنيا يا فايزة.. اذا كان همك قيراط.. انا همى اربعة وعشرين..

– مش ممكن.. مش ممكن حد فى الدنيا شاف اللى شفته حتى الدكتور رشاد تصورى انه..

وسكتت فجأة كأنها تنبهت الى أنها بدأت تعلن سرها..

والتفتت اليها هدى، وقد أصبحت كلها آذانا، وقالت تستحثها وقد لمع فى عينيها بريق شهوة الاستطلاع:

– ماله الدكتور رشاد..

وقالت فايزة وهى تنظر فى عينى صديقتها:

– اقولك بس تحلفى ماتقوليش لحد..

– بشرفى.. اخص عليكى يا فايزة.. بأه مش مأمنانى!

وأطالت فايزة النظر الى صديقتها.. الى الجمال الهادىء، والعينين اللتين تغشاهما دائما طبقة من الدموع كأنها كانت تبكى أو كأنها على وشك البكاء، إلى وجهها الذى تنسدل عليه مسحة من الطيبة الحزينة، كأنها استسلمت او على وشك الاستسلام والى شفتيها المنفرجتين دائما كأنها استسلمت او

على وشك الاستسلام والى شفيتها المنفرجتين دائما كأنها تتأوه او على وشك ان تتأوه..

نظرت اليها طويلا، ثم كأنها اطمأنت اليها، فأخذت تروى قصة الدكتور رشاد كلها.. كيف قابلها فى الطريق.. واركبها سيارته.. وكيف عرض عليها ان يعطيها دروسا خصوصية.. وكيف بدأ يتردد على البيت.. وكيف كان يختار لها الاشعار الغرامية.. وكيف كانت تتبادل معه قراءة الحوار فى قصص الحب.. ثم كيف اعلنها بحبه وحاول تقبيلها.. و... و... روت لها كل التفاصيل بدقة.. كانها تعرض عليها فيلما سينمائيا حيا..

وانتهت من قصتها قائلة:

– مش عارفه اعمل ايه معاه؟!!..

وقالت هدى مبتسمة:

– ولا تعملى ولا حاجة.. بس لو كنت شاطره تجيبيلنا منه اسئلة الامتحان!!..

وقالت فايزة فى غضب:

– اخص عليكى يا هدى.. بأه باحكيلك كل الحكاية دى علشان تقوليلى كده!!..

وأجابت هدى وهى تنظر الى صديقتها وكأنها تتهمها بالغباء:

– وماله الدكتور رشاد.. ده كل البنات والمدرسات بيجروا وراه..

وقاطعتها فايزة:

– ما تنسيش انه متجوز..

وقالت هدى وهى تتهكم على صديقتها وكأنها اكتشفت انها

غبية فعلا:

- صحيح.. لك الحق..

وانقطع بينهما الحديث عندما حان موعد الدراسة، ليتصل مرة ثانية.. وليعود ويتصل كلما وجدا فسحة للحديث..

ولم ينته حديثهما الى شيء، إلا ان فايزة كانت تحس دائما براحة ولذة وهي تتحدث عن قصتها مع الدكتور رشاد، وكأنها كانت تتسلى بهمها..

ولم تلحظ فايزة في تلك الأيام، ان اسم الدكتور رشاد كان يتردد في اذنها كلما مرت بفريق من زميلاتها..

كانت احداهن تقول بصوت مرتفع وكأنها تحادث زميلاتها:

- والنبي الاستاذ رشاد ذوقه كويس!!..

وكانت اخرى تقول عندما تلمح فايزه:

- يا بخت مين كان الدكتور رشاد حبيبه!!..

لم تلحظ فايزه في ذهولها كل ذلك، وكان الدكتور رشاد لا يزال يتردد عليها في البيت مصرا على دروسه الخصوصية.

وكان يتبع معها نفس الاسلوب.. يقرأ عليها اشعارا عاطفية تثير خيالها، أو قصة عنيفة تهز عواطفها، ثم ينتهيان الى مناقشة يخرج بعدها دون ان ينال شيئا..

قرأ عليها مرة قصيدة للشاعر الانجليزي برا وننج.. يقول فيها:

« اتهـــــربيـن منـي؟!.............................»

« مطلقـــا ياحـــيـــاتي ....»

« فـــمـــا دمت انا الذي يحب ....»

« ومـا دمت انت مـحـبـوبتى..........................»
« ومـا دامت الحـياة تضـمنا معًـا........................»
« فـان احـدنا ينسـاب دائمـا الى الاخـر................»
« وكم خـشـيت ان تكون حـياتى غلطة كـبـيـرة ....»
« ولكن يبـدو ان القــدر مـعنا ....»
« ومـاذا يحـدث لو فـقـدت املى عند هذا الحـد؟ ....»
« لا شـــــىء ....»
« ســألـهــو بأعـــصــابى ....»
« واضـــحك من دمـــوعى ....»
« واســخـر من هذه الســقطة ....»
«واقــوم مــحـطمـــا ....»
« لأبـدا مـن جــــديـد ....»

واستمعت اليه وقالت كأنه كان يحادثها وهى ترد عليه:

– طبعا لن يهمك شىء اذا فقدت املك.. مادمت لا تحب ورد عليها وعلى شفتيه ابتسامة ساخرة:

– ما تتكلميش عن الحب.. انتى عمرك ما حبيتى، وعمرك ما حتحبى.. انتى ما تحبيش إلا نفسك.. عايزه كل الرجالة تحبك وانتى تتفرجى عليهم.. كل حاجة فيكى بخيلة الا ودانك ولسانك.. تسمعى للصبح.. وتتكلمى للصبح.. ولو حبيت امسك ايدك تسحبيها، ولو حبيت المس شعرك تعمليها جريمة، ولو حاولت أبوسك يبقى يا داهية دقى.. زى ما كون قتلت قتيل!

ورفعت صوتها على صوته قائلة:

– وانت مش عايز من الحب الا البوس.. كل الرجالة زيك

كده.. كلكم ما فيش عندكم قلب.. انما عندكم ايدين وشفايف تحبوا بيها اى واحدة تشوفوها.

قال وكأنه يخفف من حدتها:

- لو كنتى اى واحدة، ماكنتش تعبت معاكى كل ده!!..

قالت وقد خفضت من صوتها:

- كان لازم تعرف من الأول إن مافيش فايده..

قال وهو يتنهد:

- كان لازم اعرف ان مالكيش قلب..

قالت دون ان تنظر اليه:

- كان لازم أعرف انك متجوز!..

قال وقد عاد وجهه يتجهم:

- انت قاسيه اكتر من اللازم يا فايزة.. كل شويه تعايرنى بجوازى.. افرضى انك حبيتى واحد رجله مكسورة، كنت عملتى ايه.. افرضى انى أنا أبو رجل مكسورة!..

قالت:

- اللى رجله مكسورة مش حيكسر قلبى.. انما اللى متجوز يكسر حياتى كلها!!..

قال وهو يلح فى اقناعها:

- يوم ما حتحبى، حتعرفى ان الحب اغلى من الحياة!!..

قالت وهى تنظر اليه:

- اشمعنى انت مش راضى تضحى بحياتك؟..

قال فى تأثر:

- اذا كان قصدك أضحى بمراتى.. فانتى ما ترضيش ولا أنا

أرضى.. لأن ما لهاش ذنب.. ومش ممكن نقدر نبنى سعادتنا على تعاستها.. يوم ما اتجوزتها كانت هى حياتى وحبى.. واذا كنت حرمتها من حبى فما أقدرش أحرمها من حياتى، حبى مش فى ايدى، الحب قدر، زى حادثة الأتمبيل ماليش ذنب فيه، ما أقدرش أمنعه.. انما حياتى فى ايدى طول ما أنا عايش.. وحتفضل حياتى ملك مراتى..

قالت وقد انقبض صدرها:

– أد كده بتعزها..

– واكتر من كده..

– يا ترى لو خيرتها بين حبك وحياتك تختار ايه؟!!..

– انتى تختارى ايه؟!!..

– انا مش عايزه منك حاجه.. لا حبك ولا حياتك!!..

ونظر اليها مليا كأنه يتعجب من هذه المخلوقة، ثم سألها فى لهجة طبيب يكشف على مريض:

– انتى عمرك ما حبيتى؟..

وأحست كأن شيئا استيقظ فى صدرها، وقفز الى لسانها اسم منير حلمى، ولكنها ابتلعته ثانية، وكأنها احتاجت الى كل إرادتها لتبتلعه، ثم قالت فى صوت خفيض:

– لأ..

وعاد ينظر اليها نظرة الطبيب الى المريض:

– وعمر ما حد باسك.. مثلا!!..

وأجابت كأنها ترد اهانة:

– لأ..

قال وهو يهم بالانصراف:

- غريبة!!..

وتعلقت عيناها به، وقالت وكأنها تستمهله الى ان يتم مناقشتها:

- غريبة ليه؟..

- ولا حاجه..

ثم قال وهو ينصرف:

- على كل حال.. لسه عندى أمل!..

وانصرف وعلى شفتيه ابتسامة لم تفهم لها معنى..

وعاد في يوم تال ومعه قصة «الباب الخلفى»..

قصة من الأدب الانجليزى تروى حياة فتاة أحبت شابا متزوجا ورضيت من الحياة بأن تعيش فى بيت منزو اثثه لها، ليتردد عليها فيه بين وقت وآخر، بينما حياته كلها لزوجته واولاده..

وكبر الرجل، وأصبح وزيرا خطيرا، وزعيما شعبيا.. وزوجته بجانبه تشاركه مجده كله.. بينما هى، التى احبته لا تزال فى البيت المنزوى تجمع صوره التى تنشرها له الصحف فى البوم خاص، وتنتظر ان يدخل اليها متسللا من الباب الخلفى حتى لايراه الناس.. ولكن الناس عرفوا بها وبدأوا يرددون قصتها ويلوكون عنها الاشاعات، وينظرون اليها ساخطين كلما مرت بهم.. ولكنها لم تأبه بالناس وانما امعنت فى انزوائها حتى لم تعد تخرج من بيتها أبدا.. إلا عندما يسافر حبيبها..

وكان يسافر لحضور المؤتمرات السياسية وتودعه حكومته

وشعبه على الميناء وداعا رسميا، ويقف وبجانبه زوجته يحييان الجماهير ويتلقيان باقات الورد ويملآن آذانهما بهتافات الشعب. وقبل ان تتحرك الباخرة بثوان يرى الناس امرأة تصعد السلم فى هدوء ووقار، دون ان تلتفت الى احد.. ثم تختفى سريعا داخل الباخرة..

وتسرى الهمسات بين الجماهير..

«انها هى.. دائما وراءه»!!..

ويرد شيخ من بين المودعين:

«وزوجته.. دائما بجانبه»!!..

ثم يموت الرجل، ويترك نصيبا لها فى ارثه، ويثور اولاده.. فلا ترد على ثورتهم، ولا تطالب بنصيبها، انما تقضى بقية عمرها فى البيت ذى الباب الخلفى، تقلب فى البوم الصور التى جمعتها..

وقبل ان تموت يجد الأولاد فى مخلفات ابيهم مذكراته.. ويقرأون فيها:

«ماذا كنت أساوى بغيرها.. لقد علمنى حبها كيف أحب الناس.. وعلمنى وفاؤها كيف اكون وفيا لوطنى.. وعلمتنى تضحياتها كيف أضحى فى سبيل فكرتى.. لقد كانت لى كل شىء.. ان حبها هو الذى صنعنى.. ولم اجد السعادة ابدا الا لانها كانت معى.. معى دائما».

ويذهب اليها الاولاد قبل ان تموت ليقفوا حول فراشها..

ويتضح ان زوجته ايضا كانت تعلم بقصتها.. ولكنها رضيت بها.. لأنها علمت ان مثل هذا الحب لا يقاوم.. فتذهب مع اولادها

لتقف بجانب فراش غريمتها..

وتقول لهم وهى تنظر اليهم بحنان بينما دموعها تجر جفونها فوق عينيها وتغلقهما الى الأبد:

– شكرا.. انه لم ينسنى حتى بعد موته،، فأرسلكم الى؟

وترد الزوجة وهى تنحنى تقبل جبينها:

– لقد كنت أتمنى ان اكون مكانك.. فى مثل عظمتك!!.

وتموت المرأة التى وهبت حياتها لحب رجل متزوج..

وانتهى الدكتور رشاد من قراءة قصة «الباب الخلفى»..

وألقى بالكتاب ونظر الى فايزة طويلا، ثم قال فى لهجة الاستاذ وكأنه لا يعنى شيئا باختياره هذه القصة بالذات:

– ما رأيك فى شخصية البطلة؟..

وردت فايزة وهى تغالب تأثرها من القصة:

– مغفلة!!!...

وامتعض رشاد، وقال وهو يلوى شفتيه:

– تبقى ما فهمتيش حاجة من القصة.. مافهمتيش الهدف منها.. الكاتب عايز يقول ان التضحية تهون فى سبيل الحب... ان الحب هو مش هوه الجواز.. الحب حاجه والجواز حاجه تانيه.. يعنى ممكن الست تحب راجل متجوز وتفضل تحبه من غير ما يسيب مراته.. يعنى الحب كافى لربط اتنين من غير جواز.. برضه لسه مش فاهمه؟..

وردت وكأنها تتحداه:

– كان ممكن تحبه من غير ما تشوفه.. من غير ما يروح لها البيت ويدخل عليها من سلم الخدامين زى الحراميه..

قال وكأنه يكاد يجن:

- ما كانش ممكن.. مافيش حب يعيش فى الهوا.. لازم يتقابلوا ولازم عناصر الحب كلها تكتمل بينهم..

قالت وهى لا تزال تتحدى:

- الحب ما لوش نهاية الا الجواز او الانتحار.. كان أهون عليها ان تنتحر!!..

قال صارخا:

- وكانت خدت ايه من انتحارها.. كانت هيه ماتت وراحت فى ستين داهيه وهو عاش تعيس طول عمره!!..

قالت وكأنها تلقى بحطب جاف الى النار:

- طيب هوه اللى ينتحر!!..

وصرخ:

- ويسيب مراته وولاده لمين؟..

قالت وهدوؤها يكاد يفقده وعيه:

- لو كان بيحبها صحيح، كان خاف عليها من كلام الناس وكان حافظ على شرفها!!..

وعاد يصرخ:

- لازم تعرفى ان الحب أقوى من الشرف وأقوى من كلام الناس.. الحب عاطفة سامية، والشرف تقليد وضعه الناس واتفقوا عليه.. والعاطفة دايما تغلب التقاليد.. والتقاليد نفسها بتتطور.. يعنى الشرف النهار ده له معنى تانى غير معناه من عشرين والا خمسين سنة.. فهمتى؟!..

قالت وهى لا تزال هادئة:

- اللى افهمه ان الحب هو الشرف. الحب تضحية، انما مش تضحية بالشرف.. تضحية بغريزة الانسان وأنانيته.. ومتعته..

وانتفض من فوق مقعده كالمجنون، وضرب المائدة بقبضة يده، وقال وقد التمعت عيناه ببريق ثابت كأنه اتخذ قرارا لا رجعة فيه:

- أنا لو سبتك تتكلمى اكثر من كده حاتجنن.. أنا عارف صنف البنات اللى زيك.. مايجوش بالذوق!!..

وكان يتقدم اليها فى خطى بطيئة، ثم أطبق على كتفيها بكفيه ونزعها من فوق مقعدها وحاول تقبيلها..

وصرخت:

- ابعد عنى.. باقولك ابعد عنى!!..

قال وهو لايزال يحاول ان يلتقط شفتيها بشفتيه:

- مش حابعد عنك.. اما أشوفك حتعملى ايه.. أظن حتولى لنينتك!!..

قالت وهى تضرب صدره بقبضتيها:

- لأ.. مش حاقول لنينه.. حاقول للعميده.. حاقولها على كل حاجة علشان تشوف اساتذة الجامعة بيعملوا فينا ايه..

وسمع الدكتور رشاد اسم «العميدة» فكف عن محاولته، وكأن كل شىء فيه قد همد.. ونظر اليها كأنه يحاول ان يعرف مدى جدية تهديدها، ثم ارتسمت على شفتيه ابتسامة ساخرة، وقال وهو يبتعد عنها:

- هيه حصلت للدرجة دى!!..

ثم جمع كتبه..

وعاد ينظر اليها طويلا..

ثم هز كتفيه.. وخرج..

●

وعادت فايزة تذهب الى المعهد كل يوم..

والتقت بالدكتور رشاد فلم يرفع عينيه اليها، ولم يحيها كعادته..

وانتظرته في موعد الدرس الخصوصي فلم يأت، وانتظرته في الموعد التالي والذي يليه فلم يأت ايضا..

واحتارت لماذا تنتظره، ولماذا تتهلف على ان يلتفت اليها!!

هل هو الغرور دائما؟.. وقد كان في اهتمامه، وتردده على بيتها ما يرضي غرورها؟..

لماذا لا تحمد الله لأنه ابتعد عنها.. وتستريح!!..

انها لا تستطيع.. انها تراه كل يوم في المعهد، ومجرد رؤياه تذكرها بقصتها.. القصة التي لم تنته بعد..

واشتدت حيرتها، وهي تراه يتجهم لها في المرات القليلة التي التقت فيها عيناه بعينيها، ثم يعنف في حديثه معها في المناسبات القليلة التي اضطر ان يتحدث فيها اليها..

وكان قد وجه اليها سؤالا اثناء القاء درسه، فأجابت اجابة كانت تعتقد أنها وافية، بل انها تجزم بأن اجابتها كانت صحيحة، ولكنه قال لها وامام كل الطالبات:

– الاجابة دي مش كفاية.. لو كان الوقت اللي بتضيعيه امام المراية، بتذاكري فيه، كنت جاوبتي أحسن من كده..

وضجت البنات بالضحك، وقالت واحدة منهن:

– معذورة والنبي يا دكتور، اصلها جميلة!..

وعادت الطالبات يضحكن..

وجلست غاضبة خجلة ودماؤها تنتفض فى عروقها..

ثم بدأت فى حيرتها تلاحظ تغامز الطالبات عليها كلما مرت بجماعة منهن وبدأت أذنها تلتقط اسم الدكتور رشاد من بين تغامز الطالبات..

وأصبحت ايامها في المعهد دقائق من عذاب.. عذاب الحيرة وعذاب الخوف من ألسنة الزميلات..

وبدأت تبتعد عنهن جميعا.. وبدأت تراجع نفسها فى صداقتها لهدى..

هل تكون أفشت سرها؟

ولم تحاول ان تسألها.. انما اخذت تبتعد عنها يوما بعد يوم.. حتى ماتت صداقتهما واصبحت وحيدة بين كل الطالبات.

الى ان كان يوم..

وكان من عادة الطالبات ان يذهبن الى مكتبة المعهد ويخرجن فى الشرفات يتلقين غزل ومداعبات ابناء الجيران الذين يحيطون بالمعهد.. وكانت أغلبها مغازلات ومداعبات بريئة.. ولم يكن معروفا بين الطالبات الا ان زميلتهن عزيزة قد اخذت هذه المغازلات على محمل الجد، ووقعت فى حب احد ابناء الجيران.

كانت عزيزة فتاة طويلة قوية، ليس فيها من جمال الا جمال طولها وقوتها.. وكان اقوى مافيها لسانها.. فخشيتها الطالبات كلهن، حتى اصبحت بمثابة زعيمة عليهن..

وذهبت فايزة فى هذا اليوم الى المكتبة، وخرجت الى الشرفة كبقية الطالبات، وما كادت عزيزة تراها فى الشرفة، حتى قالت

لها من بين اسنانها:

– جايه هنا ليه.. مش مكفيكى الدكتور رشاد ولا إيه؟

وأحست فايزة كأن كل مافيها يصرخ.. كانت المرة الأولى التى تواجه فيها بقصتها.. وقالت وهى تحاول ان تضبط اعصابها:

– قصدك ايه؟!

وقالت عزيزة ساخرة:

– ولا قصدى ولا حاجة.. بس اتفضلى من هنا من غير مطرود!!

وأحاطت بهما الطالبات.. وأحست فايزة انها لو انسحبت فقد حكمت على نفسها بالذل، فقالت تتحدى:

– اللى مش عاجبه انى اقف هنا.. يتفضل .. انما انا حافضل واقفه!.

وصرخت عزيزة:

– نعم.. اسمعى يا بت انتى.. الحركات دى ما تعمليهاش علينا. احنا عارفينك كويس.. القنزحة دى تبطليها احسن لك.. واكفى الشر واتفضلى من غير مطرود!.

وقالت فايزة فى اصرار:

– من فضلك لمى لسانك..

وصرخت عزيزة:

– له لما تلمك تحت ترمواى.. ماتلمى انتى امك توحيده ولا اخواتك اللى دايرين على حل شعرهم.. ولا فاكرانا كمان الدكتور رشاد وحتضحكى على..

وصاحت فايزة:

- اخرسى يا قليلة الأدب.. أمى أشرف منك ومن عيلتكم كلها..

ورفعت عزيزة كفها وهوت بها على صدغ فايزه، وردت فايزه الصفعة.. ثم تماسكتا بالأيدى كل منهما تحاول ان تصل الى شعر الأخرى لتشدها منه..

وارتفع صراخ الطالبات من حولهما كأن المعهد كله قد ركبته العفاريت.. الى ان جاءت ضابطة المعهد وصحبتهما الى مكتب العميدة!

ووجهت العميدة نظراتها كلها الى فايزة.. نظرات قاسية تحمل الاتهام، ثم التفتت الى عزيزة قائلة:

- استنى انتى بره شويه يا عزيزة.

ووقف فايزة ترتعش.. كانت تحس بهلفة لترتمى فى احضان عميدتها وتبكى فوق صدرها، وتروى لها قصتها بدموعها..

كانت العميدة هى أملها الأخير.. الأمل الذى يمثل المرأة المثالية.. ويمثل الزوجة الكاملة.. ويمثل الحياة النظيفة الطاهرة.. الحياة التى تكافح وتتعذب لتصل اليها..

وكانت تعتقد ان العميدة وحدها هى التى تستطيع ان تفهم عذابها، وهى الوحيدة التى تستطيع ان تأخذ بيدها فى عالم الظلام الذى يحيط بها.

وانهمرت دموعها صامتة فوق خديها..

وأطالت العميدة النظر اليها، فى قسوة واتهام..

ثم قالت كأنها تنطق بحكم الاعدام:

- اسمعى يا شاطرة.. لازم تعرفى انى مابلعبش هنا.. كل

واحدة من بنات المعهد عارفه عنها كل حاجه جوه المعهد وبره المعهد.. وعارفة عنك انتى بالذات حاجات كثير، لكنى كنت ساكته عليكى، ودى مش أول مرة تجينى شكوى منك.. وكلها شكاوى ما تخلكيش تقعدى فى المعهد يوم واحد..

واتسعت عينا فايزة فى دهشة أقرب الى الاستنكار، ونظرت الى العميدة كأنها تنظر الى أمل يذوب، وقالت وصوتها أثقل من أن يحمله لسانها:

- أنا ما عملتش حاجة.. عمرى ما عملت حاجة..

وردت العميدة فى لهجتها القاسية:

- لأ.. عملتى كتير.. وكان لازم تفهمى أن فيه فرق كبير بين اللى يتعمل فى البيت واللى يتعمل فى المعهد..

وأحست فايزة بطعنات تخترق صدرها، ولكنها كتمت جروحها وأخذت تشنج:

- انا عملت ايه بس يا ربى.. عملت ايه.. عزيزة هيه اللى شتمتنى وهيه اللى ابتدت تضربنى!!.

وقاطعتها العميدة:

- حكاية النهار ده مش حاجة.. فيه حكايات تانية كتير.. تحبى أوريكى..

وفتحت درج مكتبها وأخرجت مجموعة من الأوراق ألقت بها فوق المكتب وهى تقول:

- كل دى شكايات ضدك من زميلاتك.. كل شكوى منها فيها فضيحة.. ومش بس زميلاتك، والمعلمات كمان.. ومش بس المعلمات، حتى الدكتور رشاد اشتكى منك..

وصرخت فايزة:

– اشتكى منى أنا!

وقالت العميدة وكأنها فخورة بما لديها من معلومات:

– حكالى على كل حاجة.. حكالى ازاى أقنعتيه بأنه يديكى دروس خصوصية.. وازاى..

وصرخت فايزة مقاطعة:

– أنا.. أنا.. أبدا والله يا ست العميدة.. والمصحف الشريف أنا مظلومة.. أنا حاكيلك على كل حاجه..

وردت العميد فى صوت باتر:

– مافيش لازمة تحكى.. لأن معنى كده انى افتح تحقيق رسمى وابعته الوزارة..

وقالت فايزة وهى تبكى:

– أنا مستعدة تعملى تحقيق.. اعملى فيه كل حاجه..

وقاطعتها العميدة:

– ما اقدرش اعمل تحقيق يلوث سمعة استاذ.

– وسمعتى..

– المهم سمعة المعهد.. واحب اقولك ان دى آخر مرة حاسكت فيها عليكى.. بعد كده ما فيش قدامى الا انى افصلك من المعهد فصل نهائى..

واحتارت نظرات فايزة فى عينيها، وأخذت تصيح:

– أنا حاقولك على حاجة ياست العميدة.. وحياة ولادك تسمعينى.. أنا مظلومة.. مظلومة.. يا ربى..

وصرخت فيها العميدة:

وأخذت تشنج.

– أنا عملت ايه بس يا ربى.. عملت ايه.. عزيزة هيه اللى شتمتنى وهيه اللى ابتدت تضربينى!!.

وقاطعتها العميدة:

– حكاية النهارده مش حاجة.. فيه حكايات تانية كتير.. تحبى أوريكى..

وفتحت درج مكتبها وأخرجت مجموعة من الأوراق ألقت بها فوق المكتب وهى تقول:

– كل دى شكايات ضدك من زميلاتك.. كل شكوى منها فيها فضيحة.. ومش بس زميلاتك والمعلمات كمان.. ومش بس المعلمات، حتى الدكتور رشاد اشتكى منك..

وصرخت فايزة:

– اشتكى منى أنا!

وقالت العميدة وكأنها فخورة بما لديها من معلومات:

– حكالى على كل حاجة.. حكالى ازاى اقنعتيه بأنه يديكى دروس خصوصية.. وازاى..

وصرخت فايزة مقاطعة:

– أنا.. أنا.. أبدا والله يا ست العميدة.. والمصحف الشريف أنا مظلومة.. أنا حاحكيلك على كل حاجه..

وردت العميدة فى صوت باتر:

– ما فيش لازمة تحكى.. لأن معنى كده انى افتح تحقيق رسمى وابعته الوزارة..

وقالت فايزة وهى تبكى:

- اتفضلى اخرجى.. واحمدى ربنا انى بادارى فضايحك.

وجنت فايزة وأخذت تصيح:

- مش ممكن.. مش ممكن.. لازم أقولك على كل حاجه، لازم تسمعينى.. حرام عليكى.. حرام..

وضغطت العميدة على الجرس فدخلت «الفراشة» وأشارت لها بأن تصحب فايزة الى الخارج..

وما كادت الفراشة تلمس فايزة حتى وقعت مغشيا عليها..

ونظرت اليها العميدة وهى ملقاة على الأرض وقد تصلبت أطرافها كأن كل طرف منها قد دق فى الأرض بمسمار.. وقالت من بين أسنانها:

- شوفى يا ختى كهن البنات والتمثيل اللى بيعملوه.. شمميها شوية نشادر وخليها تروح بيتها..

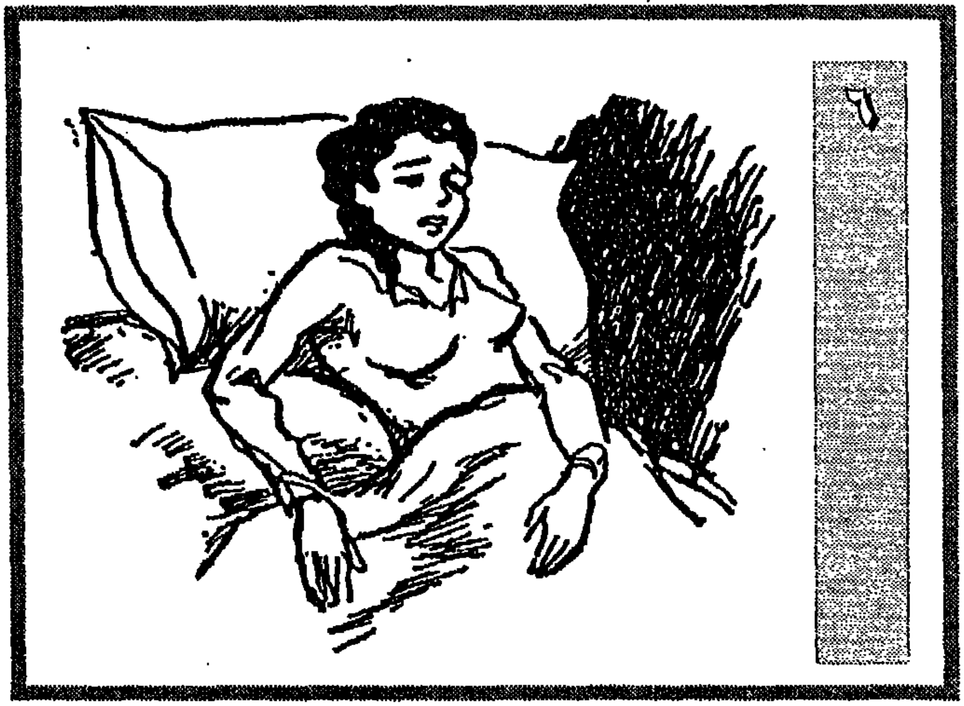

.. حملت الخادمة جسد فايزة بين ذراعيها كما تحمل سلة المهملات.. وخرجت من مكتب العميدة، وسارت بحملها الطاهر متجهة الى حجرة «العيادة»!

ولحقت بها ضابطة المعهد.. سمينة قصيرة متجهمة كأنها الجلاد..

وسار الموكب فى خطى بطيئة كأنه موكب جنائزى لميت شريد لم يجد من يبكى عليه..

واطلت الطالبات على الموكب، بعضهن مشفقات، وبعضهن ساخرات..

الى أن وصل الموكب الى غرفة العيادة.. وألقت الخادمة

بحملها على الاريكة، وأغلقت الضابطة الباب.. ثم تناولت زجاجة النشادر وقربتها من أنف فايزة، وهى تقول فى لهجة آمرة كأنها تأمر الروح ان ترتد الى الجسد الميت:

– شمى!!..

ولم تسمع فايزة الأمر.. كانت أطرافها لا تزال متشنجة كأن كل طرف منها قد دق فى الأرض بمسمار.. وكان وجهها قد كسته صفرة، كأن كل شىء فيها قد تخلى عنها حتى دماؤها.. وكانت عيناها مفتوحتين ومعلقتين فى السماء كأنهما تريان الله.. وكانت أنفاسها تتهدج فى عنف وفى صوت كالفحيح.

ووضعت الضابطة فوهة زجاجة النشادر فى فتحات أنف فايزة، فانتفضت فى قسوة مفاجأة كأن النار قد اشتعلت فى انفاسها.. وأخذت تهز رأسها من ناحية الى الأخرى كأنها تفر بها من لسع النار.. ثم همد كل شىء فيها وارتخت أعصابها، وبين شفتيها «آه» تتردد كأنها تستنجد بها من العذاب وتسترحم ظالمها!!..

ورفعت الضابطة كفها وأخذت تربت بها على صدغ فايزة فى ضربات سريعة قوية كأنها تصفعها ولا تكف عن صفعها.. الى ان ارتدت نظرات فايزة، ونقلت عينيها بين الضابطة والخادمة..

رأت وجه الضابطة المتجهم القاسى، ووجه الخادمة الصامت المعروق كأنه تمثال مخيف من الشمع.. فارتسم الرعب فى عينيها، ثم أخذت تبكى!!..

وقالت الضابطة فى صوت مبتور جاف:

– كفاية بأه أمال.. بلاش دلع بنات ياللا قومى عيطى فى

بيتكم!!..

ولم تجب فايزة، انما جمعت دموعها من فوق خديها وحاولت ان تقوم.. وما كادت قدماها تلمسان الأرض حتى أحست بدوار هائل يكاد ينزع رأسها من فوق كتفيها، وأحست بظلام داكن يتجمع بين عينها ثم لم تعد تر شيئا..

ووقعت ثانية فوق الأريكة، فتلقتها الضابطة بيدها وعادت ترفعها لتقف على قدميها وهى تقول فى صوتها الجاف:

- ما تشدى حيلك بأه.. كفاية كده!

والتفتت الى الخادمة واستطردت:

- وصليها لغاية الباب.. وخليكى معاها لغاية ما تركب الأتوبيس ولا الترمواى..

ثم عادت تقول لفايزة وهى لا تزال تسندها بيدها:

- حتقدرى تمشى، ولا حترجعى تقعى تانى!!..

وقالت فايزة فى صوت ضعيف، وقد بدأت ترى ما حولها فى لون الرماد المتخلف عن النار.

- حاقدر!!..

وسارت بضع خطوات مهزوزة وهى تستند بيديها على كل ما يقابلها كأنها أعمى ضل الطريق، الى ان خرجت من غرفة «العيادة» والخادمة تسير بجانبها تسندها بين كل خطوة وأخرى..

وتجمع حولها بعض الطالبات، ينظرن اليها فى تساؤل، وبعضهن لا يكلفن أنفسهن حتى مجرد التساؤل انما يكتفين بالمشاهدة كأنهن يطردن ملل الدراسة بمنظر جديد مسل..

وبرزت هدى من بين الطالبات، وسألتها بلهفة:

- حصل ايه يا فايزة.. العميدة قالتلك ايه؟!..

وكانت فى لهفتها كأن كل ما يهمها أن تعرف تفاصيل القصة أكثر مما تطمئن على حال زميلتها..

ونظرت اليها فايزة نظرات ضعيفة، أضعف من ان تعبر بها عن مشاعرها.. واستمرت فى خطواتها المهزوزة حتى خرجت من المعهد، وسارت ومعها الخادمة التى ان وصلت الى موقف سيارات الأجرة القريب، فالقت بنفسها فى سيارة كأنها تلقى بآخر ما بقى فيها.. والدنيا لاتزال امام عينيها فى لون الرماد المتخلف عن النار....

ولم تدر فايزة شيئا مما دار بين زميلاتها بعد أن خرجت.

لم تدر أن بعضهن أشعن ان العميدة قد فصلتها فصلا نهائيا..

ولم تدر ان بعضهن أكدن انها اعترفت للعميدة بحبها للدكتور رشاد..

ولم تدر ان الأقاويل وصلت الى حد ان اكد البعض ان سبب اغمائها أنها حامل!!..

لم تدر أنها أصبحت قصة بين شفاه الزميلات.. قصة يرسمها خيال قاس ينبت في مجتمع حائر ولا يدرى أين الخير وأين الشر.. وهو فى حيرته يمزق البريئات لعله يجد الخطيئة خلف براءتهن، ويمزق الخاطئات لعله يجد البراءة خلف خطيئتهن!!..

لم تدر شيئا، الا أنها وصلت الى بيتها، وما كادت أمها

تلمحها فى خطواتها المهزوزة، ووجهها الذى يختلط فوقه اللون الأصفر باللون الأزرق كأنه حبة من ثمار الليمون لم يتم نضجها، وعينيها المرتخيتين كأنها تعجز عن رفع جفنيها عنهما، حتى خبطت على صدرها وصاحت:

- مالك يا فايزة.. بعد الشر عليكى....

وقالت فايزة من بين أنفاسها كأنها تتعلق بأقرب كذبة اليها:

- ولا حاجة يانينه.. عيانه...

ثم ألقت بنفسها بين ذراعى امها..

وأحست لأول مرة فى يومها الطويل بالراحة وهى فوق الصدر الحنون، كأنها عادت من رحلة مضنية فى عالم مجهول الى المكان الوحيد الذى تملكه..

وضمتها امها الى قلبها فى حنان ولهفة، وهى تقول وكلماتها تخرج من صدر يتمزق لوعة:

- يا كبدى عليكى يا بنتى.. حاسه بايه يا حبيبتى؟...

وقالت فايزة فى ضعف:

- مش عارفه يانينه.. تعبانه.. تعبانه قوى يا نينه..

وأخذتها أمها الى حجرتها، وأرقدتها فى فراشها، وأخذت تخلع عنها حذاءها وملابسها..

ودخلت فوقية ملتاعة:

- مالك يا فايزة.. مالها يا نينة؟.

وقالت الأم وقد ارتسمت على وجهها خطوط عميقة من اللوعة والخوف:

- أنا عارفة يا ختى.. شوفى وشها مزرود ازاى.. ورجيلها

ساقعة زى الثلج.. روحى اضربى تليفون للدكتور خليل، ييجى حالا..

وتتمت فايزة:

- بلاش دكتور..

ولكن أحدا لم يسمعها..

●

وارتاحت فايزة الى ادعائها المرض..

كانت ضعيفة، وكانت منهكة نفسيا، ولكنها لم تكن مريضة.. ورغم ذلك فقد وجد الطبيب فيها ما يعالجه، وما يصف له الدواء، وما يحيطها من اجله باهتمامه، وما يتقاضى عليه اجرا لزيارته.. وكل طبيب يستطيع دائما ان يجد فى كل انسان ما يعالجه، وما يبرر دفع قيمة الزيارة!!

ارتاحت فايزة لأن ادعاءها المرض واقرار الطبيب لهذا الادعاء لم يدع لأحد من أفراد عائلتها مجالا لسؤالها عن احوالها الخاصة، كل ما هنالك ان سألتها امها يوما عن الدكتور رشاد فأجابت وهى تتظاهر بعدم المبالاة، انها قد انتهت من دراسة المقرر ولم تعد فى حاجة الى دروس خصوصية.

ولم تقل فايزة شيئا اكثر من ذلك، لا لأنها تخاف ان تعلم امها أو شقيقتاها بالحقيقة، ولكن لأنها كانت متأكدة من انهن سيوجهن اللوم اليها عندما يسمعن بالقصة، وسيتهمنها كما اعتدن دائما بأنها لا تفهم الحياة، وبأنها «نكدية» وكانت تكاد تسمع بخيالها صوت امها وهى ترد عليها عندما تسمع

بالقصة:

– وماله الدكتور رشاد.. جدع قيمة ومحترم.. وتعب نفسه معاكى لما قال بس، غيرشى انتى اللى غاوية تعقيد!!..

لذلك لم ترو فايزة قصتها لأحد، وحملتها وحدها بكل ما فيها من عذاب، تستعرضها طول يومها وطول ليلها وهى تحاول ان تبحث عن نهاية لها..

واستسلمت لاحساس جديد..

الاحساس بالظلم!!..

لقد ظلمها القدر.. ظلمها عندما مات عنها أبوها وكان الوحيد الذى يفهمها وتفهمه.. وظلمها عندما تركها بين امها وشقيقتيها وهى لا تستطيع ان تسير سيرهن.. وظلمها عندما ربط خيالها بقصص منير حلمى ثم فجعها فيه.. وظلمها عندما سلط عليها الدكتور رشاد.. وظلمها عندما تألبت عليها زميلاتها فى المعهد.. وظلمها عندما أفشت صديقتها هدى سرها.. وظلمها عندما قست عليها عميدة المعهد.. وظلمها وهو يحطم كل مثلها العليا، وكل ما تدين به من مبادىء، وكل من تثق بهم من الأشخاص..

انها ضحية القدر..

ولكن ماهو القدر؟..

انه الناس.

الناس هم الذين يصنعون القدر، وهم الذين يصنعون الحياة، وهم الذين يصنعون المبادىء والمثل العليا، وهم الذين يحطمونها.. لقد ظلمها الناس..

وارتاحت الى هذا الاحساس الجديد بالظلم، واستسلمت له..

انها شهيدة ككل القديسين والأنبياء الذين وقع عليهم الظلم.. شهيدة كمريم العذراء عندما اتهمها الكفار بالفجور.. وشهيدة كجان دارك عندما أحرقها الانجليز!!..

وأصبحت تحيا حياة الشهيدة المظلومة.. تتكلم فى صوت خفيض كأنها تتكلم من دنيا بعيدة.. وتسير فى خطوات ضيقة كأنه قدميها مقيدتان بالأغلال، وتتنهد كأن قضبان السجن تضغط على صدرها، وتنظر الى من حولها كأنها تستسلم لظلمهم لها.

وانزوت فى فراشها لا تقوم منه الا كالطيف عندما يقرر زيارة الأحياء..

وكانت تفكر فى معهدها.. هل تعود إليه لتواجه العميدة والدكتور رشاد والطالبات من جديد؟.. أم تنقطع عنه وتبحث عن طريق آخر لحياتها؟..

ولم تكن قد وصلت الى قرار، عندما سمعت صوت زغرودة يتردد فى ارجاء المنزل.. وتوالت بعده الزغاريد..

وقامت من فراشها وخرجت الى الردهة، فوجدت الخادمات يزغردن، وامها توحيدة تزغرد، وأختها فوقية تزغرد. وخديجة واقفة بينهن وبين شفتيها ابتسامة واسعة ترفع خدين يرتعشان من السعادة..

واحتضنتها امها بين ذراعيها وهى تصيح:

– مبروك يا فايزة.. اختك خديجة اتخطبت.. عقبالك!!

وشهقت فايزة من الفرحة، وألقت بنفسها بين أحضان خديجة وهى تصيح:

- مبروك يا حبيبتى.. الف مبروك.

ثم ابتعدت عنها والفرحة لا تزال تلمح فى عينيها وسألتها:

- يا ترى مين؟!

وقالت خديجة وهى تعاتب أختها فى رقة:

- اللى يسمعك بتسألنى يفتكرك مش عايشة معانا. يعنى مش عارفه مين؟

وقالت فايزة كأنها تحزر : اسماعيل بيه؟!

وقالت خديجة وهى تهز كتفيها:

- طبعا.. يعنى حيكون مين؟!..

- افتكرت يمكن يكون مصطفى!!..

قالت خديجة وكأنها تلوم اختها على جهلها وتلقى عليها درسا جديدا:

- مصطفى مش بتاع جواز.. ده بتاع حب بس!!..

وتدخلت بينهما الأم تقول وكأن الدنيا لا تسعها من فرحتها.

يالا يا خديجةشوفى حالك.. فين لسه عبال ما تروحى للكوافير، ولتبسى.. الساعة بقت أربعة وزمان خالك جاى.

ثم نظرت الى فايزة قائلة:

- بلاش عيا النهار ده يا فايزة.. روحى البسى وتعالى أقفى لأختك.. اسماعيل جاى يلبس الدبلة الساعة سابعة!!..

واتجهت فايزة الى غرفتها وقد بدأت الفرحة تغوص فى

قلبها حتى اختفت!..

لقد تزوجت خديجة!..

تزوجت نفس الشخص الذى كان يقضى معها الليالى، ويبادلها كؤوس الويسكى، ويمز بشفتيها، ويغترف بكفيه من جسدها.. نفس الشخص الذى يعلم عن عائلتها كل شيء، ويساهم فى كل فضيحة من فضائحها..

ان كل ذلك لم يحل دون ان يتزوجها..

لقد كانت تعتقد ان اختها لن تخرج من حياتها الا بهذه الهدايا التى تتلقاها من الرجال، وهى قد زهدت فى الهدايا، ولم تجد فيها ما يشجعها على ان تسلك سلوك اختها..

ولكنها لم تزهد فى الزواج!!..

لقد ارادت دائما ان تتزوج!!

ترى هل كان منير حلمى يتزوجها لو أعطته من نفسها ما أراد؟!..

هل كانت تتزوج الدكتور رشاد لو منحته شفتيها عندما طلبهما؟

هل هذا هو طريق الزواج؟..

هل الخطيئة هى الطريق الى الفضيلة؟

وتذكرت كلمة قالتها اختها يوما: «اللى تخطفيه تتجوزيه»!

هل الزواج مجرد عملية خطف؟!..

ولم تجد ما تجيب به على نفسها، أو تقتنع به.. انما عاودها شعورها بأنها مظلومة وأنها شهيدة، فأخذت تبدل ثيابها فى بطء واسترخاء كأنها تعد نفسها للفدية الكبرى، ثم وضعت

ابتسامة باهتة على شفتيها، وخرجت لتشترك مع العائلة فى استقبال الضيوف، وتشترك مع أختها فى فرحتها..

وجاء خالها.. انه الرجل الوحيد الذى تخشاه العائلة وتحسب حسابه وتلجأ اليه فى ملماتها.. ورغم ذلك فقد كان بعيدا عن العائلة، لا يزورها الا فى المناسبات، وتستعد العائلة عادة فى مناسبة زيارته بمأدبة دسمة تبدو خلالها البنات أكثر احتشاما وتبدو أمهن أكثر وقارا..

ولكن الخال فى كل المناسبات لم يحاول ان يسأل كيف تعيش العائلة، ولم يحاول ان يتقصى من أين تصرف الأم على بناتها ولا من أين اقتنت هذه الشقة الفاخرة فى حى الجيزة.. كان كل مايهمه ان يمتع كرشه الضخم بالمأدبة الدسمة، ثم كان يهمه اكثر أن يسأل توحيده عن قيمة ما ادخرته وفى اى بنك من البنوك تضع نقودها، وفى اى ناحية تنوى استغلالها. وكانت توحيده تحرص أكثر منه على ان تخفى عليه حقيقة ما تملكه..

كان الخال سعيدا بهذه العائلة لأنها لا تكلفه شيئا وقد يستفيد من ورائها شيئا..

وكانت العائلة سعيدة به كمظهر لابد منه عندما تحتاج المظاهر الى رجل يمثل العائلة..

وانحنت فايزة تقبل يد خالها فقال لها وهو يفحصها بعينيه:

- ماشاء الله، ده انتى كبرت أهو!

ثم استطرد، وهو لايزال يفحصها بعينيه:

- انتى لسه بتروحى المدرسة ولا ايه؟

وأجابت فايزة فى صوت خافت:

- أيوه..

وقال فى صوت أجش كأنه صاحب الأمر والنهى فى العائلة:

- ما تتلمى فى البيت أحسن لغاية ما يجيبلك ابن الحلال.. ولا واخداها حجة علشان تخرجى كل يوم.. ورايحه فين، رايحة المدرسة.. وجايه منين، جايه من المدرسة!

ثم التفت الى اخته قائلا:

- جرى ايه يا توحيدة.. مش كفاية مدرسة للبنت دى ولا ايه.. احنا معندناش بنات فى السن ده يروحوا مدارس!

وقالت توحيدة وهى تبتسم لتخفف من حدة اخيها:

- أعمل فيها ايه يا خويا.. آل عايزة تطلع معلمه آل.. ورأسها والف سيف انها تروح المدرسة.. غلبت انى اتحايل عليها تقعد فى البيت مع اخوتها، انما ما فيش فايده.. طول عمرها عنيدة ورأسها ناشفة..

وقال الخال:

- هى طالعة زى ابوها الله يرحمه..

ولم تعن فايزة بالرد على خالها، انما سكتت وأخذت تطوف بعينيها فوق وجهه كأنها تنظر الى مخلوق عجيب..

وسارت اجراءات الخطوبة بعد ذلك كما تسير فى كل بيت محافظ متزمت فى تقاليده..

جاء اسماعيل.. رجل فى الأربعين من عمره تحتقن الدماء فى وجهه من تأثير الخمر، ويصر على إمالة طربوشه فوق

رأسه حتى يلتقى طرفه بطرف حاجبه، وهو فى مشيته وحركاته يبدو عليه الاحساس بأصله العريق وثرائه العريض.

وجاء معه بعض اصدقائه أو ندمائه، ينثرون تحت اقدامه آيات النفاق..

واستقبلهم الخال بالكلمات المعتادة، ثم وضع يده فى يده، وقرأ الفاتحة..

ودخلت بعد ذلك خديجة تسير على استحياء كأنها لم تلتق برجل من قبل، ومعها شقيقتاها..

ووضع اسماعيل دبلة الخطوبة فى يدها، وتعالت الزغاريد فى اركان المنزل، وقدمت الشربات..

ووقفت الأم تشرف على كل ذلك، كأنها تدير خطة موضوعة رسمت بنفسها كل خط فيها..

وجلست فايزة تدير عينيها فى كل الحاضرين وتتعجب لبراعة التمثيل.. ان كلا منهم وقور هادىء محتشم.. لا خمر، ولا ضحكات خليعة، ولا كلمات فاجرة!!..

لقد انقلب البيت فجأة الى بيت محافظ..

وانتقل الحاضرون، وهم فى وقارهم وهدوئهم، الى مائدة العشاء.. عشاء دسم أرضى شهية الخال العزيز..

واستأذن اسماعيل وصحبه فى الانصراف، وهمس فى اذن خديجة فى غفلة من خالها:

– انا حارجع تانى..

وهمست خديجة:

– لأ.. بلاش الليلة.. يمكن خالى يسهر معانا..

وكرر الجميع كلمات المجاملة والتهنئة، وقال الخال:

- بأذن الله، الليلة الكبيرة فى كتب الكتاب.. احنا اصلنا ناس محافظين، والفاتحة دايما نقرأها على الضيق.. وربنا يتمم بخير..

وانصرف العريس وصحبه..

وجلست توحيدة مع اخيها فى الصالة.. واجتمعت البنات الثلاث فوق فراش خديجة يتحدثن عن مشروعات المستقبل.

وقالت فوقيه:

- شوفى الراجل يا اختى... اللى ما رفع عينه طول الليل..

وأجابت خديجة:

- اسماعيل دايما يسكر فى المناسبات دى.. الحقيقة انه راجل طيب، ما فيهش عيب الا الشرب.. وتقل الدم..

وقالت فايزة:

- انما أنا ما كنتش مصدقة انك بتحبيه..

وقالت خديجة:

- ولا باحبه ولا حاجه!..

- مش اتجوزتيه؟..

- طيب والجواز ماله ومال الحب.. راجل غنى وبحبوح وعايز يتجوزنى، اقوله لأ؟!!..

- مادام ما بتحبهش كان لازم تقوليله لأ..

ونظرت خديجة الى اختها نظرة اشفاق، وقالت:

- يا فايزة فتحى بأه.. طول ما انتى بتقولى الكلام ده.. عمرك لا حتتجوزى ولا حتحبى!!..

- مش فاهمه!!

- يعنى لو استنيتى على الجواز لغاية ما تتجوزى اللى بتحبيه عمرك ما حتتجوزى.. ولو استنيتى على الحب لغاية ما تحبى اللى يتجوزك عمرك ما حتحبى!!..

- مش معقول.. أنا عرف بنات كتير اتجوزوا على حب!

- اوعى تصدقى.. واللى بتتجوز على حب بتاخد على دماغها.

- يعنى كل اللى بيتجوزوا مابيحبوش اجوازهم؟..

- اللهم طولك ياروح.. شوفى ياستى.. اللى زى ولا زيك لما تحب حاتحب ايه.. مش على الاقل شاب صغير وجميل ودمه خفيف.. الشاب ده عمره ما بيقدر يتجوز. دايما تلاقيه غلبان وما حيلتهوش غير ماهيته.. اتناشر جنيه.. ولا بالكتير عشرين لما يكون متخرج من الجامعة ويقاله تلات اربع سنين فى الوظيفة.. تقدرى تقوليلى اعيش معاه باتناشر ولا عشرين جنيه إزاى؟..

وقالت فايزة:

- أنا مستعدة اتجوز راجل فقير دقه ما دام باحبه!..

وقالت خديجة ساخرة:

- ده كلام قصص.. الله يخيبك يا منير يا حلمى زى مابتخيب البنات بقصصك.. يا حبيبتى.. يا اختى.. يا ستى.. افهمى.. اعقلى.. الجواز عيشه.. والحب مزاج، الجواز يعنى تاكلى وتشربى وتلبسى وتسكنى وتحوشيلك قرشين، والحب يعنى كلام حلو، ومناظر حلوه، واغانى وجوابات وبوس

وحضن.. يعنى مافهش أكل ولا شرب.. الا بأه اذا حبيتى البقال علشان يديكى حتة جبنة، وحبيتى صاحب العمارة علشان يصهين عن الاجرة، وحبيتى بتاع الصالون الأخضر علشان يقطع لك حتة قماش!!..

وقالت فايزة وهى تتحدى اختها:

– ويا ترى اسماعيل عارف انك مش بتحبيه؟!!..

وقالت خديجة وقد بدأت تفقد أعصابها من طول المناقشة:

– قصدك ايه.. يعنى أروح أقول له أنا ما بحبكش وتعالى اتجوزنى.. لا يا حبيبتى.. واوعى تفتكرى انى ضحكت عليه فشر.. ده حفيت رجليه قبل ما ارضى بيه.. وأحب أقولك انه قبل ما يكتب الكتاب لازم يكتبلى الفيلا بتاعته.. يا كده يا بلاش.. انا مش عبيطة زيك.. كل شىء بتمنه.. وقالت فايزة ساخرة:

– على كده لازم بيحبك قوى.. اللى يدفع فيكى الثمن ده كله!!..

وردت خديجة صارخة:

– ما يهمنيش اذا كان بيحبنى ولا مايحبنيش.. المهم انه حيتجوزنى.. . ومين عارف، يمكن يطلقنى بعد شهر ولا شهرين..

وقالت فايزة:

– أمال اتجوزتيه ليه بس؟..

وقالت خديجة وهى لا تزال تصرخ:

– علشان اتجوز.. زى الراجل ما لازم يتوظف، البنت لازم

تتجوز.. علشان مايقولوش على بايره.. علشان عايزه يبقالى بيت وابقى ست بيت.. فهمتى؟!!.. فيه حاجة كمان قبل ما نقفل المحضر؟!!..

وقالت فايزة دون ان تهتز:

- ومصطفى؟!!..

- ماله..

- كنت فاكره انك بتحبيه..

- ولسه بأحبه..

- وحتضحى بحبه علشان خاطر اسماعيل؟..

- لأ.. اطمنى .. برضه حافضل أحبه..

- ياخبر.....

- ايه.. جريمة.. فضيحة.. انتى يابنت مش عايشه فى الدنيا.. مش حاسه الناس بتعمل ايه.. ما تعملى زيهم وتريحى نفسك...

وقاطعتها فوقيه قائلة:

- فكرتينى.. مصطفى ضرب تليفون وانتى بتلبسى الدبلة وبيقولك مبروك عليكى عريسك الخفة....

وابتسمت خديجة قائلة:

- دمه تقيل........

وقالت فايزة وهى تلوى شفتيها سخطا:

- يعنى عايزه تقولى ان كل واحدة بتتجوز، لها واحد بتحبه غير جوزها.. كل العيلات كده؟..

وقالت فوقيه ساخرة وهى تهم بالقيام:

- لأ.. احنا بس.. استريحتى!..

وردت فايزة وفى كلماتها مرارة:

- طبعا احنا بس.. احنا اللى ما لناش أب يربينا ويحمينا.. احنا اللى دايرين على حل شعرنا.. لغاية الرجالة ما طمعوا فينا..

وقالت فوقية وهى تفتح الباب وتخرج:

- اسلمى ياست خديجة.. دور تعديد على المرحوم بابا!!..

وخرجت فوقية..

ونظرت خديجة الى اختها فايزة طويلا كأنها لا تصدق ان اختها لا تزال سانجة الى هذا الحد، او كأنها تبحث عن السر الذى يكمن فى صدرها ويدفعها الى تصرفاتها ، ثم مدت ذراعها وأحاطتها بها وقالت فى حنان:

- انتى زعلانة من حاجة يا فايزة.. حد منا زعلك.. ناقصك حاجه؟..

وقالت فايزة فى صوت خفيض:

- أبدا..

- أمال مالك؟!..

- مش عارفه مالى.. أنا محتاره.. محتاره بينكم وبين الناس.. انتم عايشين فى وسط ما بتسمعوش فيه حاجه.. انما أنا باسمع حاجات كتير.. باسمع اسمك واسم ماما فى المعهد وعلى كل لسان..

وربتت خديجة على ظهر اختها قائلة:

- بأه انتى يهمك كلام الناس.. مافيش حد مابيتكلمش على

حد يا فايزة.. كل الناس بتتكلم على بعضها.. ولو عرفتى بلاوى الناس تصدقى اننا أشرف منهم ميت مرة..

وقالت فايزة وقد استراحت الى حنان اختها:

– أنا ما بستحملش حد يجيب سيرتكم..

وقالت خديجة:

– تعرفى لو قفلنا على نفسنا البيبان والشبابيك.. برضه الناس حتتكلم علينا.. زى احنا ما بنتكلم عليهم.. هاتيلى اللى تعجبك وانا احكيلك عليها ميت حكاية.. تعرفى زبيدة هانم مثلا ايه رأيك فيها؟..

– ست طيبة..

– أهى بتحب عزيز اخو اسماعيل الصغير.. وواخد لها شقة فى ميدان الازهار كل يوم والتانى تروحله فيها..

– مش معقول..

ورحمة بابا.. تعرفى مين كمان.. اقولك حاجه بس ما تزعليش.. تعرفى منير حلمى ماشى مع مين اليومين دول؟

ورفعت فايزة رأسها من على صدر اختها ونظرت اليها فى لهفة ممزوجة بالألم، واستطردت خديجة:

– مع زوزو فتحى..

– مش ممكن.. دى حجت السنة اللى فاتت مع والدتها..

– أهو من يوم ما رجعت من الحجاز وهيه معاه.

وقفزت فايزة من فوق الفراش ووقفت فى وسط الحجرة وصاحت:

– مش ممكن.. مش ممكن..

– أنا باقولك حقايق.. بس عيبنا اننا ما بنعرفش نخبى.. وماما طول عمرها جريئة وصريحة وما يهمهاش حد.. كانت تقدر تعمل كل حاجة وتحتفظ بالمظاهر، انما ما رضيتش تتجوز بعد بابا ما مات علشان خاطرنا، والناس من يومها بيتكلموا عليها وعلينا.. رغم كده فضلت محافظة علينا وعلى شرفنا.. لو كانت سابتنا يوم ولا غمضت عينها عنا، مين عارف كان جرى لنا ايه.. ولولا هيه ما كانش اسماعيل فكر انه يتجوزنى وتأكدى انه ما خطبنيش إلا لما عرف انى شريفة وانه ما يقدرش ياخد غايته منى الا بالجواز..

وقالت فايزة فى صوت ذاهل:

– شريفة؟؟.. ايه هو الشرف؟..

وقالت خديجة وكأنها لاتزال تلقى على أختها درسا فى الحياة:

– الشرف معناه انك تشغلى مخك.. انك ما تطلعيش فى السما بخيالك، ولا تندبيش على بوزك فى الأرض.. تفضلى واقفه على رجليكى وتشوفى الناس ماشيه إزاى وتمشى زيهم وتشغلى مخك فى كل خطوة ؟!

وقالت فايزة فى صوتها الذاهل:

ـ مش فاهمة !!

وعادت خديجة تلقى درسها:

ـ البنات اليومين دول كلهم زى بعض.. كلهم رايحين جايين فى السكك.. وماحدش عارف دى رايحة فين ودى جاى منين.. اللى رايحة تقرأ الفاتحة للسيدة يمكن تكون فاتت فى سكتها

على جرسونيرة.. واللى يقولوا عليها خسرانة تلاقيها غلبانة وعبيطة.. والرجالة كلهم زى بعض ماحدش عارف مين فيهم الكويس ومين الوحش.. اللى عامل شيخ تلاقيه مقطع السمكة وديلها من تحت لتحت.. واللى داير فى البارات وبيضحك وبيرقص يمكن يكون طيب وابن حلال وعنده اخلاق. دى حال الدنيا يا فايزة، ومافيش قدامك طريق فيها إلا ان تشغلى مخك وتدورى على حالك!!

وقالت فايزة وكأنها تقاوم اقتناعها، وتطرد شبحا مخيفا يحاول ان يسطو على رأسها:

- أنا مليش دعوة بالناس.. كويسين وحشين، مايهمنيش.. اللى يهمنى انى اكون مقتنعة باللى باعمله.. ماقعدش اسكر مع الرجالة وأترمى على كل واحد، وأقول الناس كلها بتعمل كده.. اذا كانت الناس كلها غلطانة، مش ضرورى اغلط زيهم!!. وقال خديجة وهى تطل على اختها بنظرة مشفقة:

- انا خايفة عليكى يافايزة.. حتتعبى طول حياتك..

وأجابت فايزة ثائرة:

- معلهش.. أنا راضية بتعبى..

وخرجت وفى عينيها نظرات ثائرة .. انها ثائرة على الناس كلهم.

وتتحدى المجتمع كله..

●

وانشغلت العائلة كلها فى الاعداد لحفلة عقد قران خديجة واسماعيل..

حتى فايزة جرفتها زحمة الاستعداد فانشغلت عن عذابها، واصبحت تقضى يومها مع امها واختيها فى الطواف بالمحال التجارية ودور الخياطة والطواف على العائلات لدعوتها إلى الحفل..

وبدأت تحس نحو اسماعيل بشعور احترام عميق.. نسيت ادمانه الخمر، ونسيت كلماته الخارجة واصبحت تعتبره رجلا عزيزا عليها.. لا تنفر منه ولا تحتقره ولا تلومه.. بل ترحب به دائما، وتتحمل نكاته كما تتحمل اخطاء رجل ساذج طيب القلب.

وسألتها امها:

- مش حتعزمى بتوع المعهد يافايزة؟

وفكرت فايزة قليلا، ثم التمعت فى عينيها نظرات التحدى، وجلست تكتب دعوات لحضور الحفل إلى عميدة المعهد والى جميع المدرسات، وإلى جميع الاساتذة، بما فيهم الدكتور رشاد، وإلى زميلتها هدى، بل حتى إلى زميلتها عزيزة.

وكانت تكتب اسم كل منهم على بطاقة الدعوة، وكأنها تصفعه، وتتحداه، وتعلن نفسها أمامه..

وأقسمت توحيدة ان يكون فرح ابنتها تاما من كل شيء.

اتفقت مع عزوز العشى..

واتفقت مع ليلى مراد.

واتفقت مع كارم محمود..

واتفقت مع نعيمة عبده لتحيى زفة العروس.

واتفقت مع موسيقى البوليس لتعزف الحانها بجوار باب

العمارة.

وزينت واجهة العمارة كلها بالكهرباء.

واقيم صوان كبير شغل سطح العمارة كله.. وقسم إلى قسمين: قسم للسيدات، وقسم للرجال..

لم تدع شيئا لم تعده ولم تنفق عليه.. وكانت مسرفة.. غاية الاسراف.. وكان اسماعيل يطاوعها فى اسرافها فى طيبة وسذاجة.. كأنها كانت تريد باسرافها ان تعوض شيئا ينقصها.

وجاءت الليلة الموعودة..

وبدأت فايزة تحس بالقلق.. كان هناك شيء يقبض قلبها ويهز رئتيها بعنف داخل صدرها.

كانت تخاف.. تخاف ان يتخلى الناس عنها وعن عائلتها.

تخاف ان يعاقبهم المجتمع فلا يلبى دعوتهم إلى الحفل.

وتصورت فى انقباضها، الصوان العريض وقد خلا إلا من بضعة انفار.. وتخيلت ليلى مراد تغنى فى مأتم انصرف عنه المعزون.

.. وكارم محمود يعزف على عوده كأنه يبكى حظه، وتخيلت نعيمة عبده تقود الزفة بين المقاعد الخالية وتخيلت البوفيه والخراف التى فوقه اكثر عددا من الواقفين حوله..

وتخيلت اختها خديجة تبكى حفلها الخالى كأنه انقاض خيالها وامها تضرب كفا بكف وهى تهدد وتتوعد كعادتها، واسماعيل مكتف بندمائه يشرب الكأس تلو الكأس ولا يجد من يقنعه بأنه العريس.

وأخذ خوفها يشتد كلما اقترب الليل، حتى خيل اليها انه اهون عليها ان تفر..

ولكن المدعوين بدأوا يفدون لهم.

جيرانهم القدامى، وجيرانهم الحاليون، والاصدقاء والصديقات واقرباؤهم الذين لم يروهم من زمن.. ثم مدرسات المعهد وزميلاتها.. وبعض اساتذتها.

كلهم ماعدا العميدة والدكتور رشاد.

ولكن العميدة ارسلت برقية.. والدكتور رشاد ارسل باقة من الورد.

وادارت عينيها في الصوان المزدحم وامتلأت اذناها بالضحكات والضجيج.. ولم تحاول ان تستمع إلى همسات المدعوين، ولم تحاول ان تسأل نفسها: هل جاء كل هؤلاء من اجل ليلى مراد وعزوز العشى، أم ليشاركوا اختها فرحتها؟

واحست ان العائلة قد انتصرت، واستردت شرفها.. وابتسمت ساخرة من الجميع، وهمست بينها وبين نفسها؟

- الناس كلاب.

٧

وقامت فايزة من نومها صباح اليوم التالى لحفلة قران اختها، والدنيا قد اتسعت امامها حتى اصبحت ترى ماوراء الأفق.. اصبحت تحس انها ارتفعت لتقف فوق جبل عالٍ وترى دنيا لم ترها من قبل، وترى الناس كما لم ترهم من قبل.. تراهم صغارا اقزاما لا يؤبه لهم، انما يتعلقون بقدميك كلما سرت بينهم، وعلى قدر قوة خطاك تستطيع ان تشق طريقك، وان تنفضهم عن قدميك، وان تصل إلى هدفك.

لقد رأت الناس على حقيقتهم عندما لبوا الدعوة لحضور حفلة قران اختها.. الناس الذين كانت تخافهم، وتخاف ألسنتهم وتدارى عنهم سلوك امها واختيها.. الناس الذين

اعتقدت يوما أنهم نبذوها من مجتمعهم، ونبذوا عائلتها لانها عائلة لا تراعى اصول الفضيلة ومظاهرها.. هؤلاء الناس قد جاءوا كلهم إلى البيت الذى اتهموه فى عرضه.. جاءوا بنسائهم.. ورجالهم.. وشيوخهم.. وشبابهم جاءوا بكل تقاليدهم وورعهم وتقاهم ومظاهرهم، ليستمعوا إلى غناء ليلى مراد وكارم محمود، ويشاهدوا رقص نعيمة عبده، ويلتهموا الاطباق التى اعدها لهم عزوز العشى!!

ما أرخص الثمن الذى تستطيع ان تسترد به كرامتك فى المجتمع!!

يكفى ان تقيم حفلا، وان تستأجر مطربة، وان تعد طعاما يكفى هذا ليزحف المجتمع كله اليك على يديه وقدميه.. ككل البهائم التى تسير على أربع!!

يكفى هذا لتحمل توحيدة لقب «هانم» ويقبلها جميع نساء مصر فوق هذا الخد، وقبلة اخرى فوق خدها الثانى!!

ويكفى هذا لتصبح خديجة «عروس الموسم» كما تقول الصحف، وان يحتفل بقرانها كل الناس وبنفس الحماس الذى يحتفلون به بمولد القديسين وأولياء الله الصالحين!!

ويكفى هذا لتصبح فوقية حلما يراود كل شاب يسعى للزواج ويراود كل أم تفكر فى ان تختار لابنها زوجة.. مادامت فوقية من عائلة تستطيع ان تقيم مثل هذا الحفل الباذخ الكريم!..

ويكفى هذا لتقتنع فايزه بأن الناس كلهم كلاب!!

وعادت فايزة الى المعهد بعد ايام من عقد قران اختها..

انها لم تنس قصتها مع استاذها الدكتور رشاد..

ولم تنس خيانة صديقتها هدى لها عندما أفشت سرها للطالبات..

ولم تنس مشاجرتها مع زميلتها عزيزة، وما تفوهت به من ألفاظ فى حق عائلتها..

ولم تنس الاتهامات الظالمة التى وجهتها اليها العميدة..

ولم تنس الخطابات الحقيرة التى ارسلتها بعض المدرسات وبعض الطالبات الى العميدة..

ولم تنس شيئا..

وقد عادت الى المعهد لتتحدى هؤلاء جميعا..

انها لا تزال مؤمنة بمعانى الفضيلة، ولا تزال مؤمنة بأن الشرف هو ان يبقى كل ما فيها عذريا لا تمتد اليه يد رجل، ولا تزال مؤمنة بأن الحب ليس له الا نهايتان: الزواج.. او الانتحار..

ولم يتحول ايمانها رغم الجهود الكبير الذى بذلته اختها خديجة لتقنعها بأن «الشرف» هو «الذكاء» وان من يستطيع ان يستعمل ذكاءه يصبح شريفا فى نظر الناس، وان الزواج «عيشة» والحب «مزاج» ولا يمكن ان تجد العيشة والمزاج فى شخص واحد..

كل ما تحول فيها انها لم تعد تؤمن بالناس، ولم تعد تخافهم.. وقد قررت ان تتحداهم، وتدافع عن فضائلها ضدهم..

لم لا؟..

لقد دافع محمد عن مبادىء الاسلام بحد السيف..
ونشر المسيحيون فضائل دينهم بحد السيف..
وكل أصحاب المبادىء تحدوا الناس بمبادئهم، وحاربوا فى سبيلها..
وستحارب هى.. ستتحدى.. ستطرد عن نفسها الشعور بالعذاب والظلم.. وستنسى انها تعسة منذ ان مات عنها أبوها وستجعل من مبادئها أبا لها يصونها ويحميها..
ولكنها لم تجد نفسها فى حاجة الى اعلان الحرب..
لقد استقبلتها زميلاتها الطالبات مرحبات، وأخذت كل منهن تهنئها بزواج شقيقتها، ووجدت المعهد كله يتحدث عن حفلة القران، وعن ثوب العروس، وعن اغانى ليلى مراد، وعن تصرفات المدعوين..
حتى العميدة نادتها وهنأتها ثم قالت لها وهى تفتعل الحنان:
«انا عايزاكى تاخدى بالك من نفسك يا فايزة.. مش عايزه اسمع عنك حاجة ابدا»..
وأجابت فايزة وعلى شفتيها ابتسامة فيها من السخرية اكثر مما فيها من أدب:
– بإذن الله..
وربما خيل اليها ان الطالبات يتهامسن فيما بينهن عن الحفل، وعنها، وعن عائلتها، وأنهن لم يعفينها من ألسنتهن رغم تلبيتهن لدعوتها.. ولكنها لم تعد تهتم بالهمسات.. أصبحت تعتقد أن كل هامس جبان، وأن من يهمس دون أن

يرفع صوته برأيه أشبه بالذى يكتب خطاب تهديد غفل من الامضاء.. وما دام أحد لايجرؤ على ان يواجهها برأيه فيها، فلا يجب ان تهتم بأحد..

أصبحت تثق فى نفسها، وفاض هذا الشعور بالثقة على وجهها وأطل من عينيها وطبع جميع تصرفاتها، حتى أحست به جميع الطالبات، فأصبحن اقل تجرؤا عليها، وأصبحن يتوددن اليها.. بل أنها وجدت بين طالبات السنة الأولى من تحبها حبا عنيفا فتهديها الورود كل صباح، وتطلب صورها، وتكتب لها خطابات أقرب الى الخطابات الغرامية..

وكانت كلما ازدادت ثقة فى نفسها، إزدادت احتقارا للناس وأقنعت نفسها بأن كل ما تبديه لها الطالبات من تودد ما هو الا نفاق.. وأنهن ينافقنها لأنهن شعرن بقوتها.. وقوة جمالها.. وقوة مظهرها وقوة تحديها لهن!!..

حتى الدكتور رشاد أصبحت تتحداه..

لم تعد تخفض عينيها عندما تلتقى به او عندما يلقى درسه.. اصبحت تحملق فيه طوال الوقت بعينيها كأنها تتحداه أن ينظر اليها.. واصبحت ترد اسئلته فى قوة وحزم وثقة.. بلا ضعف، وبلا تردد، وبلا شعور بانها اخطأت يوم سمحت له باعطائها دروسا خصوصية.

وخيل اليها ان الدكتور رشاد بدأ يتراجع.. بدأ يخشاها ويتحاشاها حتى لم يعد يرفع عينيه اليها، وكل ما هنالك انه ظل يظلمها فى تقدير الدرجات لها وربما كان ينتظر منها ان تتقدم اليه لتحاول ان ترجوه ان ينصفها وان يرفع من

الدرجات التى يقدرها لها.. ولكنها لم تفعل.. كانت تعلم الثمن الذى تدفعه لتشترى به الدرجات.. وربما كان يكفى ان تبتسم له، او ان تجرى وراءه عقب القاء درسه كما تفعل بقية الطالبات..

ولكنها لم تفعل.. لم ترض ان تدفع شيئا من الثمن.. ولم تأبه بدرجاتها فى الأدب الانجليزى.. انما ظلت تتحداه وتجره الى مناقشتها اثناء الدرس، وكأنها تتلذذ من شعورها بتحديه، وتتلذذ من ايمانها الجديد بنفسها..

وصاحبها هذا الشعور فى البيت ايضا..

كانت خديجة قد انتقلت الى بيت زوجها.. «فيلا» انيقة فى شارع الهرم، ولم يبق فى البيت الا هى وشقيقتها فوقيه وامها.. وقل عدد الرجال الذين يترددون على البيت، عندما اصبح اسماعيل وأصحابه يقضون سهراتهم فى بيت اختها..

ولكنها لم تعد تشعر بالثورة التى كانت تشعر بها، سواء قل عدد الرجال او زاد..

لقد أصبحت تعتقد ان المجتمع يقر امها على سلوكها بدليل انه لبى دعوتها الى حفل عقد القران..

لقد حضرت كل الأمهات هذا الحفل، وكل الزوجات، وكل البنات.. حضرن وهن يعلمن عن سلوك امها ما يعلمن.. فلماذا تظلم أمها وحدها، ولماذا تثور هى وحدها ما دام المجتمع كله لا يثور..

وقربها هذا التحليل من أمها، لم تعد تنفر منها، ولم تعد

تتحاشى الحديث معها.. بل أقبلت عليها فى كل مناسبة تسمع منها مشاكلها وتحاول أن تحلها معها، وتسمع نصائحها ولا تعمل بها..

وزاد التقارب بينها وبين أختها أيضا، وأصبحت تستمع الى مغامراتها كما تستمع الى قصص واقعية من صميم الحياة..

وأصبحت تنظر الى الرجال الذين يفدون الى المنزل كضيوف عاديين، ولم تعد تسائل نفسها عن السبب الذى يزور الرجال من أجله بيتا ليس فيه رجال.. لم تعد تتساءل، فلا بد ان المجتمع يسمح بذلك، فاذا كان فى ذلك خطيئة فهى خطيئة المجتمع كله..

ولم تعد تخشى هؤلاء الرجال، ولم تعد تتعمد ان تتحاشاهم ولكنها بقيت لا تشترك فى سهراتهم، لا لشىء الا لانها لا تريد ولأنها لا تجد متعة فى الاشتراك فى هذه السهرات، ولأنها تؤمن بأنه اذا كانت هذه السهرات هى خطيئة المجتمع كله، فهذا لا ينفى انها خطيئة..

وعندما كانت تأوى الى فراشها لم تكن تجد خيالها فوق الوسادة وعذابها تحت اللحاف.. لقد طردت خيالها، وطردت عذابها.. ولم يبق لها الا الوحدة!!..

لقد كان الخيال والعذاب يملآن وحدتها، ويلهيانها فى عزلتها عن الناس، فلما طردتهما لم تجد ما يعوضها عنهما.. لم تجد هناء ولا سعادة.. لم تجد الا شعورها باحتقار الناس.. واحساسها بالثقة فى نفسها..

ولكن ماذا تفعل بهذه الثقة؟..
الى أين توجهها؟..
ماذا تريد؟..

انها تريد ان تكون معلمة، وهى فى سبيل ذلك تذهب الى المعهد وتقضى وقتا طويلا فى استذكار دروسها.. ولكن لا المعهد ولا الاستذكار يكفيان لملء وحدتها.. هناك ناحية من ناحيتها يشغلها فراغ كبير.. وهذا الفراغ بدأ يعذبها!.

واشتد احساسها بالوحدة..

وقرأت فى كتاب الفلسفة قول « نيتشة»: «الرجل القوى هو الرجل الوحيد»!.

انها قوية بثقتها فى نفسها.. وهى وحيدة.. ولكن ماذا تفعل بقوتها، وماذا تفعل بوحدتها. هل تصبح فيلسوفة كنيتشة تتأمل فى الكون وتضع له النظريات!.

ثم ان نيتشة يتحدث عن الرجل القوى.. وهى ليست رجلا.. انها فتاة، هل الفتيات ايضا يصبحن اقوياء بوحدتهن!.

وبدأت تفكر فى شغل وحدتها.. الوحدة التى تدهمها مع الليل..

ولم تجد الا التليفون.. وقفز الى ذهنها الاستاذ منير حلمى.

لم لا تحادثه!.
لماذا تخافه!.
إنه سافل.. هذا صحيح..

وقد خدعها عندما ادعى حبها وهو على علاقة بأختها.. وهذا صحيح ايضا!.

ولكن لماذا تخاف من خداعه، ما دامت تعلم أنه خادع!!..

ألا تثق فى نفسها!.

ألم تقرر أن تتحدى الجميع!.

وادارت رقم منير حلمى.. الرقم الذى لا تزال تحتفظ به فى ذاكرتها..

وتثاءب قلبها فى صدرها، عندما سمعت صوته، وكأنه يستيقظ بعد نوم طويل، وبذلت جهدا كبيرا لتسيطر على نبرات صوتها، وقالت فى لهجة ساخرة متحدية وقلبها لا يزال يتثاءب:

– الأستاذ منير؟..

وسمعت صوته الكسول يرد عليها كأنه يدعوها الى ان تكسل بجانبه:

– أيوه يا أفندم..

– قصتك الأخيرة بايخة قوى يا أستاذ..

فأجابها وقد اهتز صوته من المفاجأة:

– معلهش.. القصة الجاية حتعجبك باذن الله....

– مش ممكن.. ولا قصة بتكبتها تعجبنى..

– مرسى.. وحضرتك تبقى مين؟..

– أنا واحدة.. واحدة عايزه تقولك ان الخيال اللى بتكتبه ده ما حدش يصدقه.. والحب اللى بتحكى عنه مش موجود.. عايزاك تكتب قصة من الحياة.. قصة تصور حياتك او حياة

أى واحد او واحدة من اللى عايشين على الأرض..

وأجاب كأنه يهتم بسماع نبرات صوتها أكثر مما يهتم بسماع ما تقول:

– انا فاكر انى سمعت صوتك قبل كده؟..

– ما أظنش..

– طيب.. اسمك ايه..

– ملكش دعوة..

– أول حرف من اسمك ايه؟..

– ما قولكش..

– أقولك أنا..

وخفق قلبها وضعف صوتها وقالت:

– قول..

– بس احلفى لو كان صحيح ما تكدبنيش..

– طيب..

– احلفى..

– حلفت..

– أول اسمك يا ستى «ف».. مش كده!!..

وألقت فايزة سماعة التليفون كأنه صوته لسع يدها.. ولم ترد عليه..

وخيل اليها بعد أن ألقت سماعة التليفون انه يقهقه بصوت عال شماتة فيها، وتباهيا بذكائه الذى اكتشف اسمها من وراء صوتها..

انه يظن انها عادت اليه، ولكنها لم تعد.. انما فقط اخذت

تحادثه فى التليفون فى فترات متفاوتة بعيدة.. كل شهر مرة، وأحيانا كل شهرين.. وكانت تحرص دائما على أن يدور حديثهما حول قصصه، حتى اذا بدأ يخرج بالحديث عن مجال القصص .. هربت وانهت الحديث!!..

كانت تعلم ان ثقتها بنفسها لها حدود، وانها قد تلين امام منطقه والحاحه.. وقد تذهب اليه فى بيته وتعيد حياتها من اولها، فكانت تفر عند الحد الذى تعتقد انها ستضعف عنده!

ولم تكن الأحاديث التليفونية تكفى لشغلها عن وحدتها. فبدأت تزحم حياتها بالصديقات.. صديقات من جيرانها، وصديقات من المعهد.. وعودت نفسها ان تقابل النفاق بنفاق، والمجاملة بمجاملة، والمظهر الكاذب بالمظهر الكاذب.. بل انها بدأت تشجع صديقاتها على ان يروين لها مغامراتهن ويشركنها فى اسرارهن، وأصبحت تقر ان تتحدث احدى صديقاتها مع فتاها تليفونيا، وان تتستر على صديقة اخرى عندما تدعى امام اهلها أنها كانت فى زيارتها بينما هى على موعد مع فتى.

لقد أصبحت تقرأ الخطيئة وتعترف بها كحقيقة من حقائق المجتمع، ولا تقترفها.

ولكنها ظلت تحس ان بينها وبين صديقاتها حاجزا يبعدها عنهن كلما حاولن ان يقتربن منها، ويبعدهن عنها كلما حاولت ان تقترب منهن..

حاجز يقوم من مبادئها.. فليست لها مغامرات تضمها الى مغامراتهن، ولا تريد ان يكون لها مغامرات..

وهو حاجز يقوم من طبيعة حياتها.. فهى حرة فى حياتها ولم تتعود أمها ان تحد من حريتها، فليست مضطرة ان تكذب كما تكذب صديقاتها، وليست مضطرة ان تحتال على اهلها كما تحتال صديقاتها..

وأصبحت تعيش بين هؤلاء الصديقات كأنها تعيش فى دار للسينما، تشاهد الفيلم دون ان تشترك فيه، ودون ان يحس بها الممثلون والممثلات!!..

وانتهى بها هذا الشعور الى ان اكتشفت انها لا تزال وحيدة.. وان الوحدة اقسى عليها من خيالها الذى طردته، ومن عذابها الذى انتصرت عليه..

وحاولت ان تسترد خيالها..

حاولت ان تعود لتعيش فى قصص الحب التى تقرأها..

ولكنها لم تستطع، فالحقيقة التى تكشف امامها.. حقيقة الناس.. كانت تصدمها فى خيالها..

واستسلمت لليأس..

انها قوية..

وهى واثقة فى نفسها..

وهى تتحدى المجتمع وتحتقره..

ولكنها يائسة.. يائسة من ان تجد سعادتها!!..

●

ومرت الأيام..

وتخرجت فايزة من المعهد، وكل ما تحس به ان الدكتور رشاد قد ظلمها فى تقدير درجات مادة الادب الانجليزى، والا

لأصبحت في مقدمة الخريجات..

وعينت معلمة في مدرسة (....) بمدينة (.....) بمديرية الغربية..

وكانت تعلم انها تستطيع ان تعين في احدى مدارس القاهرة، لو سعت لدى بعض موظفي الوزارة، او لو وسطت احدا لدى عميدة المعهد.. وقد عرضت عليها امها فعلا ان تتوسط لها، وعرض عليها اسماعيل زوج اختها ان يتدخل بنفوذه لدى بعض اصدقائه، ولكنها رفضت وأصرت على الرفض، فصرخت أمها:

– ما هو يا تشتغلي في مصر، يا مفيش شغل ولا هباب.. مش كفاية سبتك لغاية ما أخذتي الشهادة، ويكون جزائي انك تشحططي قلبي وراكي.. أنا عارفة حا تعيشي ازاي.. ولا حتاكلي ازاي..

وقالت فايزة في رجاء:

– معلهش يا نينه.. هو «انا رايحه مجاهل افريقيا.. دي المسافة ساعتين بالقطر.. وكل يوم حا بعتلك جواب!!..

وعادت الأم تقول:

– انا بدي اعرف حا تخدي ايه من المرمطة دي.. ما انت قاعدة يابنت الناس. ناقصك حاجه.. بتشتكي من حاجه؟

وقاطعتها فايزة وهي تحاول ان تبدو مرحة:

– علشان يقولوا يا نينه ان بنتك مدرسة أد الدنيا..

وربما اعجبت توحيده بهذا المعنى، وأحست بالزهو لأنها تتراجع:

- طيب أما نشوف المدرسة حا تجيب لنا ايه!.

وقالت فايزة وهى لا تزال تحاول ان تبدو مرحة:

- حا تجيبلك كل خير، باذن الله..

وقاطعتها فوقيه:

- والنبى انا مستخسراكى فى الهم ده.. ده انتى اجمل واحدة فينا، ولولا قنزحتك كان زمانك اتجوزتى وبقالك بيت اد الدنيا..

وقالت فايزه ضاحكة:

- ما تخافيش تو ما تتجوزى انتى، حابطل قنزحة وأتجوز على طول وراكى!!.

وقضت العائلة اياما تستعد لسفر فايزة، وكل افرادها لا يكفون عن إلحاحهم بأن ترفض فايزة السفر، وأن تسعى لتعين فى احدى مدارس القاهرة او تبقى فى البيت وترفض العمل..

ولكن فايزة اصرت على ان تسافر، فقد كانت تريد شيئا جديدا فى حياتها.. تريد ان تبتعد عن المجتمع الذى يحيط بها، وعن بيتها، وعن عائلتها..

انها لم تجد السعادة هنا.. فلتجرب ربما وجدتها هناك!

ووقفت العائلة كلها تودعها على محطة القطار..

الأم تبكى، وتكرر وصاياها على ابنتها:

- كل يوم خميس وجمعة تقضيهم معانا.. اوعى تتأخرى وتلمى هدومك كلها وتجيبيهم معاكى يتغسلوا هنا.. ما تكليش الأكل بتاع المدرسة.. فاهمة.. ابعتى اشترى اللى

تشتهيه.. و.. وتستمر الأم فى وصاياها.. بينما فوقيه تحادث خديجه فى موضوع لا يمت الى سفر فايزه، واسماعيل يتشاغل عن الجميع بالنظر الى بقية المسافرين، ويدق الأرض بقدمه كأنه يتعجل ساعة الوداع.. الساعة التى لا تستطيع فيها ان تحزن لأن ليس فيها سبب كاف للحزن ولا أن تفرح لأن ليس فيها سبب كاف للفرح.. انها ساعة تمر ثقيلة كالضباب المشبع بالرطوبة!!..

وقد مضت ساعة الوداع..

وتحرك القطار، ودموع الأم لاتزال آثارها على صدر فايزة، وأحمر شفاة شقيقتيها، لا تزال آثاره على خديها..

وأطلت فايزه على المزارع التى يمر بها القطار بعينين ساهمتين كأنها تمر بحياتها كلها.. الحياة الجافة التى لم تبللها إلا الدموع..

وعادت تسائل نفسها: لماذا قبلت هذه الوظيفة؟.. لماذا لم تبق فى بيتها؟.. لماذا لم تقبل ما عرضته عليها خديجة من ان تقيم معها؟..

انها لا تدرى؟..

لا تدرى ماذا تريد.. فان الطريق الذى تسير فيه ليس هو طريق الزواج، ولو قبلت ان تقيم مع اختها خديجة لتزوجت احد اصدقاء زوجها، ولكنها لم تقم معها وأصرت على السفر؟.

لماذا؟..

ربما لأنها أرادت ان تجرب حظها فى الحياة.. حظها فى

حياة شريفة نقية طاهرة.، الزواج فيها حب وثقة، وليس خطة موضوعة تدبرها أم، الزوج فيها حبيب وليس ممولا!!..

وربما لأنها عندما فقدت ايمانها بالناس لم تعد تؤمن الا بنفسها.. وقد ارادت ان تثبت لنفسها انها قوية وأنها تستطيع ان تعيش فى دنيا بلا رجال!!..

وربما لأنها وجدت فى هذه الوظيفة ما يشغلها عن وحدتها وما تملأ به الفراغ الكبير فى حياتها..

وربما لأنها تفر من شىء.. تفر من نفسها، من عائلتها، من المجتمع..

انها لا تدرى.

لا تدرى شيئا..

وأحست انها مقبلة على عالم مجهول..

٨

ووقف القطار عند محطة الوصول، واطلق نفسا عميقا كأنه يستريح من حمله الثقيل..

وأطلت فايزة من نافذة القطار على العالم المجهول الذى وصلت اليه.. وخيل اليها انه عالم مجهول فعلا، وأنها تقف على ابواب غابة كثيفة تسكنها أقوام غريبة.. الناس غير الناس الذين كانت تراهم فى القاهرة، والتعابير الكسولة التى تغطى وجوههم ترسم دنيا غير الدنيا التى خرجت منها، واللهجات التى تسمعها تملأ أذنيها بضجيج مثير لا تكاد تتبين منه شيئا، والرائحة التى تملأ أنفها تسدل على روحها ستارا كثيفا يفصل بينها وبين ما مضى من عمرها.. رائحة الفلاحين ورائحة المزارع، ورائحة

البهائم..

وأحسست برهبة..

ومرت عليها لحظة تمنت فيها ان تعود الى القاهرة، وأن تلقى بنفسها فوق صدر أمها لتحتمى به، ولكنها جمعت ارادتها، واستردت ثقتها بنفسها، وتذكرت تحديها المجتمع.. ثم نادت شيالا وناولته حقيبتها، ونزلت من القطار..

لم يكن احد فى انتظارها.. ولكنها ما كادت تضع قدميها على رصيف المحطة حتى التفت العيون حولها، وكأن كل شىء فى هذه الدنيا الغريبة قد توقف لينظر اليها.. الى القوام الذى يتثنى كأنه يتأوه من الألم، والى البشرة السمراء النضرة التى انسكبت فوقها الوان الصحة والعافية فبدت فى لون الرمان، والى الشعر الأسود المتماوج كأنه استار الليل تعبث بها اصابع عاشق، والى الشفتين العريضتين وقد خلتا من الأصباغ فبدتا كوسادة ملاك صغير!!..

ونسى ناظر المحطة امر القطار وسقطت يده من فوق الجرس الذى كان على وشك ان يدقه، وركز عينيه عليها فى نظرة بلهاء، وقد سقط احد فكيه من تحت شاربه المتهدل..

وتسمر المعاون فى مكانه، ثم قال لزميل له وكأنه يخاطب نفسه: «شايف ياوله اللى انا شايفه»!!

وأسقط ثرى ريفى يجلس على «البوفيه» مبسم الشيشه من فمه وصاح وكأنه يتلمظ على أكلة دسمة: «أهلا.. أهلا.. شرفت بلدنا»!!..

وقام ثلاثة من الشبان يرتدون حللا افرنجية كلحت من كثرة كيها، وكل منهم يحمل فوق رأسه اقة من البريانتين الرخيص

اللامع.. قاموا يتبعونها في صمت، وفي عيني كل منهم خطة موضوعة!!..

وتعمدت فايزة ألا تشعر نفسها بكل هذه المظاهر التى استقبلت بها، وسارت وراء الشيال الذى كانت تعلو شفتيه ابتسامة خبيثة، حتى خرجت من المحطة وركبت عربة حنطور وقالت للسائق فى لهجة فيها من الجدية اكثر مما يجب:

- مدرسة البنات يا اسطى!!..

واستدار اليها السائق العجوز فى بطء، ونظر اليها من بين عينيه المرمدتين وقال فى صوت بطىء كأن العمر كله ينتظره الى ان يتم كلامه:

- حضرتك المدرسة الجديدة؟!..

ونظرت اليه فايزة كأنها تستنكر تدخله فيما لا يعنيه..

وقالت فى اقتضاب:

- أيوه!!..

ولم يقل الرجل شيئا، انما عاد يستدير فى بطء ناحية الخيل، وأسقط رأسه فوق صدره كأنه اغفى..

وسارت العربة فى شوارع البلدة، وسط موكب من العيون التى اصطفت على الجانبين..

ولم تلق بالا الى التعليقات التى نثرت عليها وهى فى جلستها من العربة، ولم تسمع شيئا من الهمسات التى مرت بها، بل لم تعلم انها اصبحت حديث البلدة كلها منذ اللحظة التى جاءت فيها..

ووصلت المدرسة.. بناء ضخم بالنسبة لمعظم مبانى المدينة

ويبدو من طراز مبانيه كأنه أليق ليكون سجنا منه ليكون مدرسة بنات.. وقد تركت حديقته بلا زرع، وترك السور الذى يحيط به دون ان يتم، وتركت الحفر التى خلفتها عملية البناء كما هى رغم مر السنين.. ورغم ذلك فلم يكن البناء بالنسبة لمبانى المدينة يبدو انه ينقص شيئا.. وكأن المهندس الذى وضع تصميمه تعمد ان يترك حديقته بلا زرع، وأن يترك السور قبل ان يتم، وان يترك هذه الحفر التى تحيط به وتفغر فاها امام الداخلين والخارجين.. وكأن المهندس الموهوب تعمد أيضا أن يلطخ واجهة البناء بهذا الطين، وان يحطم زجاج بعض النوافذ، وأن يخلع ضلف بعض الأبواب حتى ينسجم البناء مع باقى أبنية المدينة..

ومرت لحظة أخرى شعرت فيها فايزة بالرهبة عندما وقفت بها العربة أمام باب المدرسة، ولكنها تمالكت نفسها، ودفعت أجرا سخيا للسائق، ثم حملت حقيبتها بيدها وتقدمت الى الباب..

كان العام الدراسى لم يبدأ..

وكانت المدرسة يسودها هدوء وصمت..

ودقت فايزة على الباب الكبير بيدها ففتح لها بواب ريفى، ونظر اليها وكأنه عرف من هى، فافسح لها الطريق، ومد يده يلتقط حقيبتها، ولكنه عاد وأسقطها فجأة وبدأ ينظر الى فايزة من جديد وكأنه لم ير كل شىء فيها من النظرة الأولى او كأنه تبين انها صنف جديد من المدرسات لم يفد من قبل على المدرسة..

وهو يتلعثم:

د لله على السلامة..

وقالت فايزة فى برود حاولت ان تخفيه بابتسامة فاترة:

- الله يسلمك.. الست الناظرة موجودة؟..

- أيوه .. موجودة.. حصلت لنا البركة!!..

وحمل الرجل الحقيبة فوق كتفه وسار خلفها يدلها على الطريق الى مكتب ناظرة المدرسة..

ولم تفاجأ فايزة برؤية الناظرة، كانت كما تخيلتها، وكما رأت معظم الناظرات.. سمينة، مكتنزة الوجه، فى عينيها دائما معانى السلطة التى تتمتع بها، وفى حركتها ثقل كأنها زوجة عمدة.

وقد تساءلت فايزة كثيرا لماذا كل الناظرات سمينات.. وهل يجب ان تسمن ويكتنز وجهها اذا أرادت ان تكون ناظرة؟!..

واستقبلتها الناظرة بابتسامة متكلفة لابد منها، قائلة:

- أهلا وسهلا.. الحمد لله على السلامة..

وتوقفت الناظرة عن الحديث قليلا لتنظر اليها.. وطافت بوجهها فى لمحات سريعة، ثم استقرت عيناها على ثوبها الأنيق وشرابها النايلون، وحذائها الدقيق، وحقيبتها «الفرنيه»، والقفاز الأبيض الأنيق الذى تضعه فى يديها.. ثم ابتسمت ابتسامة ساخرة قائلة:

- مش خسارة الفستان الحلو ده فى مرمطة السفر؟..

وقالت فايزة وهى تحاول ان تبتسم:

- أصله غسيل ومكوة يا أبلة!!..

ورفعت اليها الناظرة عينيها وقالت فى حدة:

- أبله ده ايه.. انتى فاكره نفسك تلميذة لسه؟!

وقالت فايزة متعلثمة:

- آسفة.. آسفة ياست الناظرة..

وقالت الناظرة فى صوتها الآمر:

- أيوه كده.. اتفضلى استريحى!

وجلست الناظرة على مقعدها خلف مكتبها، وجلست فايزة على طرف الكرسى الكبير الموضوع بجانب المكتب..

وسادت برهة صمت قطعتها الناظرة قائلة:

- طبعا انت عارفة اننا فى بلد ارياف.. صحيح البلد كبيرة انما برضه اسمها أرياف، وكل واحد فيها بيتكلم على التانى.. واكثر حاجة تهمنى سمعة المدرسة، وسمعة المدرسة من سمعة معلماتها.. والحمد لله، من يوم ماحطيت رجلى هنا ماحدش قدر يقول كلمة ولا يفتح بقه..

وسكتت فايزة..

واستطردت الناظرة:

- طبعا انتى عارفة ان الأخلاق قبل العلم.. وانما الأمم الأخلاق مابقيت، فان هم ذهبت اخلاقهم ذهبوا، والاخلاق تدل عليها المظاهر.. وعلشان كده حبيبت انبهك اننا مش فى مصر.. الناس والعوايد حاجة تانية.. ويمكن سمعتى عنى انى شديدة، انما على أد ما انا شديدة مع اللى تغلط، باكافىء اللى ما تغلطش.. وكل حاجة با كتب بيها تقارير للوزارة اول بأول، والمفتشين كلهم عارفين ان المدرسة اللى انا فيها بتمشى زى الألف.

وأحست فايزة انها تختنق.. كانت تعتقد انها انتقلت الى مرحلة أخرى بعد ان عينت مدرسة.. مرحلة تتم فيها شخصيتها

وتقف خلالها على قدميها، ولكن حديث الناظرة اشعرها انها لاتزال تلميذة ولا تزال تعامل كأنها صبية فى حاجة الى نصائح فيما يجب أو لا يجب.. وضبطت اعصابها بصعوبة، وقالت وهى تتلهى بالنظر الى قفازها:

– باذن الله حا كون دايما محل رضاكى..

وابتسمت الناظرة كأنها اقتنعت بأنها سيطرت على الموقف، وقالت وقد خفت حدة لهجتها:

– اتفضلى بأه استريحى من السفر وبعدين نتكلم فى الشغل!

وضغطت الناظرة على الجرس، فدخلت خادمة المدرسة– أو «الفراشة»– فأمرتها:

– اطلعى اندهى لست عيشة ولا ست سعدية ولا حد من اللى فوق.. اللى فاضيه فيهم تيجى..

وخرجت الخادمة.

وأخذت الناظرة تسأل فايزة عن دراستها وعن معلمات المعهد الذى تخرجت فيه، الى ان جاءت سعدية.. فتاة فى الرابعة والعشرين رفيعة القوام حتى لايبدو من تفاصيل جسدها شىء وكأنها عود من القصب، على وجهها مرح دائم وكأنها تخفى ضحكاتها فى شدقيها.

وقالت لها الناظرة فى لهجة جدية:

– أقدملك زميلتكم الجديدة الآنسة فايزة..

ومدت سعدية يدها الى فايزة وهى تقول فى ترحيب منطلق:

– أهلا وسهلا، أنستى وشرفتى الحمد لله على السلامة.

انتى باين عليكى متخرجة السنة دى.. و....

وقاطعتها الناظرة ملتفتة الى فايزة:

– الآنسة سعدية، مدرسة الحساب فى المدرسة!.

ووقفت فايزة تصافح زميلتها، وهى لا تستطيع ان تتمالك نفسها من ان تبتسم لها ابتسامة كبيرة خالصة.

وقالت الناظرة لسعدية:

– فى أودتكم سرير فاضى؟!..

وقالت سعدية فى فرح..

– أيوه..

– طيب تاخدى ست فايزة معاكم!.

ولم تكد فايزة وسعدية تخرجان حتى احاطت سعدية خصر فايزة بذراعها بلا تكلف وصعدت معها الى الدور العلوى حيث يضم مساكن المعلمات.. وكانت تتكلم طول الطريق دون ان تمنح فايزة فرصة للرد عليها.. تتكلم عن المدرسة وعن البلدة وعن الطالبات وعن المعلمات والمعلمين.

الى أن وصلتا الى الحجرة التى ستقيم فيها فايزة، ومن خلفهما «الفراشة» تحمل الحقيبة.

حجرة متوسطة الطول والعرض، تضم ثلاثة أسرة وبجانب كل سرير دولاب صغير، وفى ركن منها مائدة عليها وابور جاز وبعض معدات القهوة والشاى، وتحتها بعض الأوانى النحاسية.

وأشارت سعدية –وهى لا تزال مستمرة فى حديثها– الى السرير المخصص لفايزة، فألقت نفسها جالسة عليه، وهى تزفر كأنها كتمت أنفاسها طويلا حتى لم تعد تستطيع حبسها..

وسألتها سعدية:

- انتى اتغديتى؟..

وقبل ان تجيب فايزة استطردت سعدية:

- احنا عاملين النهاردة صينية بطاطس فى الفرن.. أصل أنا اللى متولية أمر الطبيخ فى الأودة دى.. آه لو دقتى المسقعة من ايديه.. تاكلى صوابعك وراها؟..

وألقت فايزة نظرة على الأوانى النحاسية الموضوعة تحت المائدة.. ثم قامت وحملت حقيبتها الكبيرة ووضعتها فوق السرير وبدأت تفتحها..

وفى هذه اللحظة دخلت زميلاتها المعلمات، وبدأت سعدية تعرفها بهن.. والتففن كلهن حول الحقيبة المفتوحة يتفحصن مافيها بأعين دهشة، انقلبت الدهشة فى بعضها الى حسد، وفى بعضها الآخر الى سخرية..

وقالت احداهن وهى ترفع فى يدها ثوبا:

- ايه ده كل ده.. ده ولا جهاز العروسة!..

وقالت اخرى:

- ده انتى باين عليكى عايزة توقفى البلد على رجل!..

وقالت ثالثة وهى تمسك بقميص نوم من النايلون الامريكانى:

- الحاجات دى عمر المدرسة ما شافتها!!.

وكانت فايزة ترد بابتسامات صامتة تصحبها احيانا بكلمة «اتفضلى» بينما تخرج كل قطعة من ثيابها وترتبها فى الدولاب الصغير، حتى ازدحم الدولاب واضطرت ان تصف الأحذية تحت السرير وتترك باقى ثيابها الداخلية فى الحقيبة.

وتولت سعدية مهمة اخراج زميلاتها من الحجرة صائحة فيهن:

– يا للا يا جماعة، كل واحدة على أودتها.. خلوها تستريح شوية!!..

وخرجت الزميلات وكل منهن تهمس فى اذن زميلتها.. خرجن ليعقدن ندوة صاخبة عن الزميلة الجديدة التى وصلت هذا الصباح..

ولم يبق فى الحجرة الا الثلاثة اللاتى يعشن فيها: فايزة، وسعدية، وعائشة..

كانت عائشة مدرسة اللغة الانجليزية، أكبر من زميلتيها قليلا.. ليست جميلة وليست قبيحة.. انما فيها شىء يجذبك اليها دون لهفة، وشىء يجعلك تنساها بمجرد ان تدير ظهرك لها.. ولم تكن تتكلم كثيرا، بل كانت تميل الى الصمت، وكانت فى صمتها كأنها تجتر شيئا من عمرها الذى فات.. شيئا ينضح على وجهها فيطبعه بطابع حزين، وهى فى حزنها لا يبدو عليها انها تبحث عن ثأر، أو انها تحسد السعداء، بل إن حزنها لايثير فيك الشفقة انما يجبرك على أن تتركها له دون ان تحاول مواساتها..

وقامت فايزة فخلعت ثوبها وحذاءها وارتدت ثوبا بيتيا ومن فوقه «روب دى شامبر» ووضعت فى قدميها شبشبا، وأخرجت فوطة الوجه، وأخذت تبحث عن فرشاة الأسنان.. وبحثت طويلا، ثم قالت:

– يظهر انى نسيت اجيب معايا فرشة الأسنان..

وردت سعدية:

- معلهش يا اختى.. العصر أنزل معاكى نشترى واحدة من الاجزخانة.. ماهو احنا فلوسنا كلها ضايعة على الاجزخانة دى!

وخرجت فايزة من الغرفة لتغتسل.. ثم عادت لتشارك زميلتها فى صينية البطاطس.. ثم استلقت على فراشها وتركت خيالها يعود بها الى مصر.. الى امها واختيها والى حجرتها فى البيت.. وأحست ان كل شىء أوحشها، واشتدت بها الوحشة حتى أحست بصدرها يضيق ويكاد يخنق قلبها..

ان كل شىء تحس له بوحشة ولم تنقض على مفارقتها له ساعات، حتى دولابها.. ومرآتها، و«الكومدينو» الذى يجاور فراشها والذى كانت تصف فوقه المجلات والكتب الشهرية، وصورة والدها والمعلقة فوق رأسها.. و.. و... ان كل هذه الأشياء تكون جزءا من حياتنا ومن شخصيتنا، وتترك فى نفوسنا اثرا منطبعا لا نحس به الا عندما نفارقها.

وتمنت للمرة الثالثة فى هذا اليوم ان تعود من حيث اتت.. ان تعود الى امها والى بيتها.. إنها ليست فى حاجة الى العمل لتكسب عيشها.. لماذا تبقى؟..

ولكنها كانت تشعر فى الوقت نفسه بأنها مقدمة على حياة مثيرة.. ان كل مجهول مثير.. كل مجهول لذته فى الاقدام عليه وفى تحديه.. وقد شعرت بهذه اللذة!..

وكانت سعدية خلال هذه الساعات لا تكف عن الكلام.. تتكلم فى كل شىء، وتروى قصصا من الشرق والغرب، ولم تعن فايزة كثيرا بكلامها ولا بالرد عليها، الا عندما قالت لها:

- احنا كل واحدة فينا بتدفع اربعة جنيه فى الشهر علشان الأكل.. ايه رأيك؟..

واجابت فايزة بلا مبالاة:

– موافقة!!..

واستطردت سعدية:

– وعيشة هى امينة الصندوق.. والصندوق عادة بيفلس فى بيوم عشرين من الشهر.. وبعد كده ربنا بيحلها!!

واكفت فايزة بالابتسام، وقالت عيشة فى صوتها الحزين:

– ربنا بيحل حاجات كتير فى البلد دى!

وخرجت فايزة وسعدية فى الساعة الخامسة متجهتين الى الصيدلية القريبة..

كان نسيم العصر طريا نديا كأنه عائد من معركة مع الشمس هزم فيها فسرى ضعيفا متهافتا تبلله الدموع!..

وسارت فايزة وقد أحست ان كل شىء فيها قد هدأ.. خيالها وقلبها واعصابها.. ولفتها رائحة الزرع المنبعثة من الحقول القريبة فأحست انها تحت تأثير مخدر خفيف مريح!..

ولم تلحظ فايزة العيون التى تلاحقها ولا الكلمات التى كانت تلقى تحت قدميها.. ربما لأنها تعودتها حتى اصبحت شيئا مفروضا فى حياتها، ولكن سعدية لاحظت.. وربما خيل اليها ان لها نصيبا من هذه النظرات وهذه الكلمات، فانتصب عودتها وتأنقت فى مشيتها، وتعمدت ان تضع فى عينيها نظرة صارمة كأى فتاة تصد عن نفسها مغازلات المارة، ثم همست فى اذن فايزة..

– اوعى تبص لحد، احسن البصة هنا بيعملوا منها حكاية!

وبغتة رأت فايزة دراجة تقترب منها بسرعة، فقفزت الى

جانب الطريق قبل ان تدهمها، وارتبك الراكب فسقط بدراجته على الارض..

كان صبيا يبدو أنه فى الثالثة عشرة من عمره، وكان يرتدى بنطلونا نظيفا وقميصا نظيفا مما يجعله يبدو ابنا لاحد اعيان البلدة او احد كبار موظفيها..

ووقفت فايزة تنظر الى الصبى، وتمد يدها اليه لترفعه عن الأرض، ولكن الصبى رفض يدها واخذ ينظر اليها بعينين مشدوهتين وهعو فاغر فاه، ثم قال وهو يقوم من على الارض:

– باه.. ده انتى حلوة قوى!!..

وابتسمت فايزة، وكانت الابتسامة الوحيدة التى سمحت لشفيتها ان تنفرج عنها لعابر طريق..

وكان بعض المارة قد بدأوا يتزاحمون بعيونهم حول الموقف، فاستمرت فايزة فى طريقها مع سعدية بعد ان قالت للصبى:

– تانى مرة، ابقى خد بالك من نفسك!..

وركب الصبى دراجته، وسار خلف الزميلتين، وهو يدق الجرس كأنه يحاول ان يلفت نظرهما اليه..

ووصلتا الى الاجزخانة..

كانت اجزخانة تقوم على ناصية الميدان الفسيح.. وكانت تبيع بجانب الأدوية، لوازم التجميل للسيدات.. العطور، واحمر الشفاة، والبريانتين، والأمشاط، و«الفراتين»، بل كان يبدو ان صاحبها يعتمد على بيع لوازم السيدات اكثر من اعتماده على بيع الأدوية، وانه كان يفضل ان يكون بائع خردوات اكثر مما يفضل ان يكون صاحب صيدلية!!..

واصطفت امام الصيدلية وفوق الرصيف المرشوش حديثا بالمياه، بضعة مقاعد جلس عليها رجال تبدو عليهم الاناقة والأهمية. قد يكون بينهم وكيل النيابة أو رئيس الحسابات فى المديرية أو طبيب المركز او عمدة احدى القرى القريبة.

وكان صاحب الصيدلية قد استدار لأحد الجالسين وبينهما مقعد فتح فوقه صندوق النرد واخذا يلعبان «عشرة طاولة».. وكان ثالث يدخن فى شيشة وكان اربعة آخرون قد التفوا حول مائدة صغيرة مما يستعمل فى المقاهى البلدية تحمل اقداح الشاى!.

وكأن الصيدلية علاوة على انها محل لبيع الخردوات، قد اتخذ منها صاحبها مقهى او منتدى خاصا يجتمع فيه اصدقاؤه من وجوه البلدة..

وما كادت فايزة وسعدية تهلان امام الجالسين حتى سكت صوت تقاذف النرد وتحريك «القشاط» وتعلقت اكواب الشاى بأيدى اصحابها فى الهواء، وكفت الشيشة عن «الكركره».. وجحظت العيون!..

ودخلت فايزة ومن خلفها سعدية وقد ارتبكت خطواتها بعض الشىء وكأنها تتعثر فى النظرات التى تتساقط تحت قدميها.

وأفاق صاحب الصيدلية من ذهوله، وقفز من فوق مقعده، ولحق بهما فى الداخل.. وقال وهو يصافح سعدية وبين شفتيه ابتسامة واسعة:

– أهلا بالست سعدية..

ثم مد يده الى فايزة وفى عينيه نظرة مرتعشة كأن عينيه تنتفض تقززا من صاحبها:

- الحمد لله على السلامة ياست فايزة شرفت ونورت البلد!

ومدت فايزة له يدا باردة وفى عينيها نظرة أبرد، وقالت سعدية:

- قوام عرفت الاسم.. دى لسه واصلة من كام ساعة!.

قال وقد علق عينيه بفايزة:

- الأخبار وصلتنا من الصبح!!

وقالت سعدية ملتفتة الى فايزة:

- حضرته الدكتور عوض صاحب الاجزخانة.. كلنا مديونين له!!..

وقال الدكتور عوض:

- يا ستى حد بيحاسبكم احنا لنا بركة الا انتم!..

وقالت فايزة فى برود وكأنها لا تشترك فى هذا الحديث ولا يعنيها:

- من فضلك عايزة فرشة اسنان ميديم!..

وتمهل الدكتور عوض قليلا وكأنه دهش لكلمة «ميديم» ولم يتعودها من معلمات مدرسة البنات. فلم تكن احداهن تهتم ان تكون فرشاة اسنانها جافة الشعر، او ناعمة، او متوسطة بين الجفاف والنعومة كما طلبتها فايزة..

وكأنه أحس بأنه أمام شخصية اقوى من شخصيات الأخريات فمرت على وجهه سحابة سريعة من الفكر.. وقال وهو يدور حول دواليب الصيدلية:

- بس كده!..

وحدجته فايزة بطرف عينيها وهو يدير ظهره لها.. رجل فى

الخامسة والثلاثين من عمره.. نحيل حتى لتبدو أعصابه من تحت جلده، وكل شيء فيه مفتعل.. شعره الاسود وقد وضعت كل شعرة بجانب الأخرى بدقة وثبتت مكانها بالبريانتين، وابتسامته الدائمة تقطر رياء، وشاربه الصغير يبدو من شدة عنايته به كأنه اشتراه جاهزا، وتحت عينيه بقع سوداء تروى ليالى كثيرة لم يرحم خلالها نفسه ولم يرحم احدا.. وهو كثير الاهتمام بأناقته.. قميصه الحرير الهفهاف، وسترته المرتفعة الأكتاف، والساعة ذات السوار الذهبى فى يده، والخاتم ذو الفص الأخضر الكبير.. انه يهتم كثيرا بما يبدو منه وكأنه يريد أن يخفى ما لا يبدو..

وعاد الدكتور عوض يحمل بين يديه فرشاة الاسنان، وزجاجة عطر زرقاء صغيرة ماركة «سوار دى بارى».. وقال من خلال ابتسامته..

- آدى فرشة الاسنان.. ودى حاجة صغيرة هدية من الأجزخانة بمناسبة تشريفك بلدنا..

وتناولت فايزة الفرشاة.. ورفضت ان تتناول زجاجة العطر:

- لأ.. مرسى.. كام من فضلك؟

- دى حاجة صغيرة لازم تقبليها..

- ما فيش لزوم..

- يا ستى النبى قبل الهدية..

- أنا مش النبى..

- ما تكسفنيش أمال ياست فايزة..

ولم تثر فايزة، انما كانت تنظر اليه فى برود يشوبه نوع من

السخرية، وعادت تقول:

- يا ترى كل اللى يشترى فرشة أسنان بياخد فوقها زجاجة بارفان؟!..

- الزباين الكويسين بس..

وردت سعدية:

- وانا مش كويسة ولا ايه يا دكتور عوض!!..

- ياسلام يا ست سعدية.. ده انتى الخير والبركة!!..

ولف حول دواليب الصيدلية مرة ثانية، وعاد يحمل زجاجة كولونيا من انتاج محلات الشبراويشى، وقال:

- ودى علشانك يا ست سعدية!

وقبل ان يناولها لها، لف الزجاجتين مع فرشاة الأسنان فى ورقة واحدة، ثم أعطى اللفافة لسعدية، وكأنه يشفق على فايزة من مؤونة حملها، وقالت فايزة:

- عايز منى كام من فضلك.

- ما تخلى.. احنا حنعملك حساب زى بقية المدرسة..

- لأ.. مرسى.. أنا أحب ادفع اول بأول..

وكأنه شعر أن من الأفضل ألا يلح كثيرا، فقال وابتسامته الواسعة لم تفارق شفتيه:

- تسعة صاغ ونص.. بس!!

ودفعت فايزة وقالت قبل ان تخرج:

- مرسى على البارفان!!

ولم تكد تهم بالخروج حتى اصطدمت برجل داخل.. رجل سمين مترهل كل شىء فيه له «كرش».. خداه كل منهما له

«كرش»، وعيناه كل منهما لها «كرش»، وأنفه كل فتحة فيها كأنها «كـرش»، وهو كله «كـرش» يرتدى الملابس البلدية ويضع على رأسه طربوشا ويسير على قدمين..

والتفت الرجل الداخل الى سعدية يصافحها، ثم نظر الى فايزة نظرات طويلة كأنه يوزنها بعينيه كما يوزن اللحم، وقال وصوته كالشخير:

– ما شاء الله.. ما شاء الله..

وهرع الدكتور عوض يقدمه اليها:

– عبدالمقصود بك عمدة كفر شرف..

ثم التفت اليه واستطرد:

– دى الست فايزة المعلمة الجديدة فى مدرسة البنات!..

وكرر عبدالمقصود بك:

– ما شاء الله.. ما شاء الله.. سنتنا بيضة باذن الله!..

ومد يده يصافحها، وقالت فايزة وهى تصافحه وتحس بثقل يده فى يدها:

– تشرفنا..

وقال الدكتور عوض كأنه يهمس فى اذن فايزة:

– عبدالمقصود له ثلاث بنات فى المدرسة!..

ولم تفهم فايزة ما يعنيه الدكتور عوض عندما يحمل صوته هذه الخطورة ومعانى التهديد والترغيب، وهو يقول ان عبدالمقصود له ثلاث بنات تلميذات فى المدرسة..

وهزت رأسها تحييه ثم نظرت الى سعدية وخرجتا، وعيون الجالسين على الرصيف تتبعهما وتثير فى رؤوس اصحابها

خيالا يهتز مع اهتزاز قوام فايزة فى مشيتها..

وعاد نسيم العصر يملأ صدر فايزة ويريح كل شىء فيه.. ولم يتحرك تفكيرها حول الرجلين اللذين كانا أول من عرفتهما فى البلدة.. الدكتور عوض وعبدالمقصود بك.. بل لم يدر تفكيرها حتى حول زجاجة العطر التى اهديت اليها فى اليوم الاول من وصولها.. كان تحديها للناس.. واحتقارها للمجتمع قد تمكن منها حتى لم تعد تهتم بما يأتى به الناس ولا بمقاييس المجتمع..

وقالت سعدية وهما فى الطريق:

– أهو مشوارنا طلع فايدة.. انتى طلعت بقزازة سوار دى بارى، وأنا طلعت بقزازة شبراويشى.. والنبى أحسن من عينه.. انما تعرفى انه راجل لطيف، ما فيش حاجه تطلبيها منه الا لما تلقيها عنده.. الحقيقة راجل خدوم وكريم..

وقالت فايزة وكأنها كانت ساهمة:

– مين هوه؟..

وردت سعدية فى دهشة:

– الدكتور عوض..

ولم ترد فايزة، وفتحت صدرها تستنشق فى نهم نسيم العصر ورائحة الزرع..

ووصلتا الى المدرسة..

ودخلتا الى حجرتهما، حيث كانت عائشة جالسة فوق سريرها تطرز قطعة من القماش لتصنع منها مفرشا، والحزن الصامت ينضح على وجهها..

وحلت سعدية اللفافة التى تحملها، واخرجت زجاجتى العطر..

ولحت عائشة زجاجة العطر الزرقاء فاتسعت عيناها

فجأة،و وبرز الحزن على وجهها حتى كأنها لم تعد تستطيع ان تبتلع ريقها..

وقامت تخطو كأنها تسير على شوك ثم أمسكت بالزجاجة الزرقاء فى يدها ونظرت اليها طويلا بعينيها المتسعتين.. ثم وضعتها مكانها فى صمت.. وعادت تخطو على الشوك، الى ان جلست كما كانت فوق سريرها والتقت قطعة القماش وعادت الى التطريز..

ولم تفهم فايزة شيئا..

وقالت سعدية وكأنها توجه الحديث الى عائشة:

– الدكتور عوض كان كريم قوى معانا النهارده..

ورفعت عائشة رأسها واكتفت بأن ردت بابتسامة ضعيفة مفتعلة..

وقالت فايزة:

– سوار دى بارى بطلت خالص من مصر.. ما بقاش منها إلا فى الأرياف.. انا عمرى ما استعملتها.. خديها لك ياسعدية!!..

وصاحت سعدية..

– والنبى صحيح.. مرسى.. الف مرسى!!..

وجاء المساء..

وتناولت الزميلات الثلاث العشاء مما بقى فى صينية البطاطس من وجبة الظهر..

وعندما فتحت عائشة دولابها لتغير ملابسها وترتدى ملابس النوم، لمحت فايزة داخل الدولاب زجاجة زرقاء من عطر سوار دى بارى..

زجاجة فارغة..

٩

وبدأ العام الدراسى..

ودخلت فايزة الى «الفصل» وجلست على المقعد المخصص لها وأخذت تضم بعينيها تلميذاتها الجدد وتقبل كل واحدة منهن بابتسامتها..

كان قد سبق لها ان قامت بالتدريس اثناء فترة التدريب التى استغرقت العام الاخير من دراستها فى معهد المعلمات.. ولكنها لم تحس ابدا اثناء فترة تدريبها بما تحسه الآن.. انها تحس ان كل هؤلاء البنات بناتها وانها مسئولة عنهن كأم لهن، وأنها تحبهن جميعا من كل قلبها..

وأخذت تنقل عينيها بينهن.. إن كل واحدة منهن تمثل حياة

خاصة، وهى تستطيع ان ترى أم كل واحدة منهن، من درجة اعتنائها بثيابها، ومن طريقة تصفيف شعرها، وتستطيع أن ترى البيئة التى تعيش فيها من خلال الألفاظ التى تستعملها ومن طريقة حركاتها ولفتات عينيها..

وأحست بمتعة غريبة وهى تحاول أن ترسم لكل تلميذة من التلميذات صورة لأمها وبيئتها وللدنيا التى تعيش فيها..

واستقبلتها التلميذات بأعين مشدوهة.. كان جمالها وأناقتها أكثر مما تعودته التلميذات فأخذن ينظرن اليها كأنها صورة من الصور التى تنشرها المجلات، وشدتهن هذه الصورة اليها حتى لم يستطعن أن ينزعن عيونهن عنها.

ومر الدرس الأول هادئا لم يتخلله ما يعكره، وكأن التلميذات نسين شقاوتهن وصباهن، فأخذن يستمعن الى درس التاريخ صامتات..

وعندما دق الجرس معلنا انتهاء الدرس، وبدأت التلميذات يخرجن الى ساعة الراحة، لا حظت فايزة أن واحدة منهن تتعمد أن تتأخر عن زميلاتها.. وتتلكأ فى حركاتها وهى مرتبكة، حتى اذا اصبحت آخر من بقى فى الحجرة، ازداد ارتباكها ثم تقدمت وأخرجت من جيبها قطعة صغيرة من الحلوى ووضعتها على المكتب المخصص لفايزة وجرت خارج الغرفة..

ونادتها فايزة..

ووقفت الفتاة الصغيرة وهى تنظر اليها بأعين متوسلة كأنها تخشى العقاب..

وابتسمت فايزة ابتسامة كبيرة حنونة وطلبت منها ان تقترب..

ثم قالت لها وهى تلف ذراعها حولها:

– انتى اسمك ايه يا حبيبتى؟..

وأجابت فى صوت ناعم خفيض كهمس الملائكة:

– سميرة..

وقالت فايزة وهى تطمئنها بابتسامتها:

– طيب يا سميرة.. اللى يجيب هدية لحد مش يقدمها كويس ولا يرميها ويجرى..

وقالت الصغيرة فى براءة:

– أنا باحبك قوى يا أبله فايزة..

ونظرت فايزة الى الوجه الصغير الجميل وقالت وهى تضغطها الى صدرها:

– وأنا كمان باحبك يا سميرة.. منا هنا ورايح حنبقى صحاب، والملبسة دى مش حاكلها انما حاشيلها تذكار منك.

ولم تجب سميرة، انما جرت خارج الحجرة كأنها تطير على اجنحة الفرح..

ولم تكن سميرة هى وحدها التى أحبت فايزة، بل كانت الأولى فى قائمة طويلة من التلميذات الصغيرات، كلهن أحببن فايزة وأغدقن عليها هداياهن الساذجة البريئة..

ولكن سميرة ظلت دائما اقربهن الى قلب فايزة.. اصبحت تحبها الى حد لا تستطيع ان تنتزعها من تفكيرها كلما خلت الى نفسها، ورغم ذلك فقد كانت تحرص على اخفاء هذا الشعور الفياض حتى لا تغضب بقية التلميذات اللاتى احببنها، أو تثير غيرتهن.

وفى يوم من الأيام تقدمت منها تلميذة عجفاء يبدو الذل على وجهها ولكنه ذل ينعكس فى عينيها قسوة وخشونة، وقالت فى لهجة نصف ريفية:

- انا بنت عبدالمقصود بيه العمدة!..

وأجابت فايزة فى برود:

- عارفه..

وقالت الفتاة كأنها تؤدى مهمة ثقيلة على نفسها:

- ابويا بيسلم عليكى..

وقالت فايزة وهى تدير عنها وجهها:

- الله يسلمه..

ثم تركتها واستمرت فى عملها..

وبعد ايام جاءت نفس الفتاة تحمل فى يدها مجموعة من الفطائر ملفوفة فى فوطة بيضاء معقودة من اطرافها، وقالت فى صوتها الجاف وكأنها تؤدى ايضا مهمة ثقيلة على نفسها:

- ابويا بيسلم عليكى وباعتلك حتتين الفطير دول..

وسكتت فايزة..

واحتارت ماذا تفعل..

هل ترفض؟..

ولكن ربما ألحت الفتاة الى درجة ان تثير ضجة، وربما دفعها الخوف من أبيها -اذا ما رفضت فايزة هديته- الى البكاء وربما سألتها الناظرة عن سبب رفضها للهدية وهل هناك دافع خاص لرفضها؟..

هل تقبل الهدية؟..

ولكن لماذا تقبل.. انها لا تحب الفطير، وتستثقل دم الرجل الذي يهديه، ودم ابنته التي تحمله؟..

وظلت فايزة صامتة لا تمد يدها لتتناول اللفافة..

وعادت التلميذة تقول في صوتها البليد كأنها تردد جملة حفظتها:

- أبويا بيسلم عليكي وباعتلك حتتين الفطير دول..

ومرة واحدة قررت فايزة ان تقصر الشر وان تتجنب اى اشكال، فمدت يدها وتناولت لفافة الفطير.. وحملتها وصعدت الى غرفتها حيث وجدت سعدية تصحح بعض الكراسات فصاحت فيها:

- الراجل العمدة ده اتجنن ولا ايه اتفضلى يا ستى البلاوى.. حضرته باعتلى فطير!!..

ولمعت عينا سعدية وتناولت اللفافة من يد فايزة فى لهفة، وأخذت تفردها قائلة:

- وماله يا أختى.. ده فطير عبدالمقصود بيه ما يتبعتش الا للغالية..

وقطمت قطعة من الفطير:

- الله.. والنبى تدوقى يا فايزة.. يجنن.. بس كان حقه بعت معاه علبة قشطة بلدى ولا عسل نحل..

وقالت فايزة وهى لا تزال ثائرة:

- أنا عمرى ما شفت ناس بالسماجة دى..

وقالت سعدية:

- والنبى كتر خيره، على الأقل حاسس بالشقا اللى بنشقاه

فى تعليم بناته.. باعت حتتين فطير.. لا رشوة ولا حاجة.. مجرد عرفان بالجميل..

وسكتت فايزة، واستطردت سعدية:

- وعلى فكرة، الدكتور عوض صاحب الاجزخانة سألنى عليكى، ولما عرف انك ادتينى قزازة السوار دى بارى قاللى انه حيبعت مصر يجيبلك قزازة «جى رفيان».. مش تيجى نفوت عليه؟!

وقالت فايزة:

- لأ يا ستى متشكرين.. لما عوز حاجه أبقى أفوت.

●

وبدأت حياة فايزة تتخذ شكلا منظما، وقد ارادتها حياة هادئة رتيبة، فلم تسمح للمشاكل ان تقترب منها، ولم تحاول ان تثور على وضع من الأوضاع، وخضعت خضوعا تاما لأوامر الناظرة وان كانت قد حرصت على ان تحتفظ باحترامها امامها، وتعمدت ان تجعل بينها وبين زميلاتها المدرسات وزملائها المدرسين حدا بحيث لا يزعجونها فى حياتها او تزعجهم فى حياتهم..

وربما احست ببعض الملل من انتظام الأيام حولها، فكانت تتغلب على مللها بكتابة خطاب طويل الى امها او الى احدى شقيقتيها.. خطاب تسرد فيه كل التوافه التى تمر بها فى يومها..

وربما احست انها بدأت تفقد شعور الأمومة نحو تلميذاتها.. الشعور الذى كان يطغى عليها فى الاسابيع الاولى من الدراسة. فقدته من كثرة ما انهكها التدريس وتصحيح الكراريس، ولكنها كانت تتعزى دائما بحبها لتلميذتها سميرة.. الحب الذى لم يخف

ابدا..

وقد ذهبت مرة مع فريق من زميلاتها الى السينما، ولاحظت ان عددا من الشبان -بقدر عدد زميلاتها- ينتظرون عند الباب ثم يدخلون خلفهن، ويجلسون وراءهن فى مقاعد الدار.

وبدأت الهمسات..

ولاحظت ان معظم هذه الهمسات تنصب حولها، فلم تثر، ولم تغضب، ولم تأخذ على زميلاتها اهتمامهن بهؤلاء الشباب... كانت قد اقتنعت من زمن أن هذه هى طبيعة المجتمع، وأن الخطيئة حقيقة لا يمكن تجاهلها!!..

ولكن ما حز فى نفسها هو أن زميلاتها أنفسهن بدأن يتضايقن من وجودها بينهن، وبدأن يحقدن عليها لالتفاف العيون حولها.... فقررت من يومها ألا تخرج معهن الى مكان الا اضطرارا. واكتفت باصطحاب سعدية وعائشة، وان كانت عائشة لا تميل كثيرا الى الخروج وتفضل ان تبقى مع حزنها فى وحدتها..

وكانت قد وضعت بين ساعات يومها ساعة بعد انتهاء مواعيد الدراسة، تخرج فيها مع سعدية لتروى صدرها من نسيم العصر الطرى، وتمسح عن ذهنها آثار العمل المضنى الذى تقوم به..

كانتا تتجهان الى خارج حدود البلدة، وتسيران على شاطىء المصرف الكبير، وتجلسان أحيانا عند اقدام شجرة ضخمة وتقومان بتصحيح الكراريس، بينما تتبادلان الحديث الذى تروى خلاله سعدية -عادة- جميع وقائع اليوم الدراسى وما حدث بين المدرسات والمدرسين، وما حدث بين المدرسات والناظرة، وما حدث بين المدرسات واهالى المدينة.. حتى اذا مالت الشمس الى

المغيب قامتا عائدتين الى المدرسة قبل ان تلحقهما يد الليل..

وفى اليوم الأول من نزهتهما هذه، التقتا بالصبى الذى كاد يدهم فايزة بدراجته فى يوم وصولها..

وأخذ الصبى يدور حول فايزة بدراجته، ويبتعد ثم يعود، وهو لا يكف عن دق جرس الدراجة دقات متوالية كأنه يستجديها فى الحاح ان تلتفت اليه..

والتفتت اليه فايزة فى غضب تخففه ابتسامة صغيرة وقالت:

– وبعدين.. مش خايف تقع تانى!

قال الصبى وكأنه فرح لأنها حادثته:

– انا.. مش ممكن ماتخافيش على.. ده انا احسن واحد يركب عجل فى البلد.. بصى، ده انا اعرف اركب وانا سايب اديه!!..

ورفع الصبى يديه عن مقود الدراجة وجرى بها، ولكنه كاد يبتعد قليلا حتى سقط على الارض.

وقفزت اللهفة الى عينى فايزة، وشهقت شقة خفيفة، ولكنها عندما رأت الصبى بخير ابتسمت، واتسعت ابتسامتها حتى كادت تضحك..

وقام الصبى من على الأرض، ونفض الغبار من على سرواله ثم عاد سائرا على قدميه وهو يجر دراجته بجانبه. وقال عندما اقترب منهما:

– اصل كان فيه حفرة فى الأرض!!

ونظرت اليه فايزة لترى ملامح وجهه لأول مرة.

انه اصغر مما كانت تعتقد.. وربما لا يتجاوز عمره الثانية

عشرة.. جميل الوجه.. واسع العينين.. دقيق الأنف، رقيق الشفتين، نحيل كعود الورد، تكسو ملامحه صفرة رقيقة كزهرة لم يكتمل عمرها.. كان يبدو كأنه ملاك ضل طريقه فى السماء فسقط على الأرض ولم تعنه جناحاه الصغيران على الصعود ثانية، او كأنه فنان صغير تتجاذبه أحاسيس وعواطف أكبر من فنه فعجز ان يعبر عنها، وكتمها حتى أضنته..

وقالت له فايزة فى حنان:

– انت اسمك ايه يا شاطر..

– اسمى محمد..

– طيب ارجع البيت بأه يا محمد، أحسن بعدين اقول لوالدك..

وهزت أصبعها أمام وجهه كأنها تهدده، وأجاب دون ان يتحرك:

– بابا فى مصر.

– طيب حاشتكيك لوالدتك..

– ماما ماتت السنة اللى فاتت..

قالها الصبى فى بساطة واستسلام.. وشعرت فايزة بقلبها ينكمش فى صدرها كأنه يتراجع جزءا امام مصيبة، ووجدت نفسها تضع كفها على كتفه وتربت عليه ثم تسأله:

– قاعد مع مين دلوقت؟..

– قاعد مع طنط.. مرات أبويا!!..

قالها الصبى كأنه يخفى جرحا فى صدره، وعادت فايزة تسأله:

– وانت بقيت فى سنة ايه دلوقت؟

قال فى زهو الصبا:

– فى سنة رابعة ابتدائى!!..

– طيب روح بأه علشان تذاكر، وتاخد الابتدائية السنة دى!!..

ولوى الصبى شفتيه وكأنه يستكبر على نفسه ان تحادثه كأنه طفل، وقال وهو يشير الى الكراسات التى تحملها فايزة:

– تحبى أشيلك الكراريس دول؟

وقالت فايزة وهى تتصنع الغضب:

– اذا ما روحتش دلوقت حازعل منك!

وأعقبتها سعدية ساخطة فى وجهه بصوت جاف:

– ياللا يا شاطر ياللا على بيتكم بلاش لعب عيال!!..

ونظر الصبى الى سعدية نظرة صامتة كأنه يحتقرها ولا يأبه بوجودها، ثم عاد ينظر الى فايزة وبين شفتيه ابتسامة فرحة طاهرة كأنه يرى فيها امه، ثم جر دراجته بيديه وابتعد عنهما.

ومن يومها، وهو ينتظر فايزة كل يوم فى نفس الساعة، وفى نفس المكان.. وأحبته فايزة كما أحبت تلميذتها سميرة.. كانت ترتاح اليه، وكانت ترى فيه كل معانى الطهر والعفة التى ملأت خيالها منذ صباها ومزقها الرجال الذين التقت بهم فى حياتها.. كانت ترى فيه المجتمع قبل أن يتلوث، والنفوس قبل ان تستبد بها الغرائز، والقلوب قبل ان تفسدها معركة الحياة. وتمنت لو ان الرجال كلهم ظلوا اطفالا لا يكبرون، اطفالا لا تزيد اعمارهم على الثانية عشرة، ولا يريدون اكثر من هذا الحنان البرىء العف الذى يتطلبه منها محمد.

وقد لمست فى الصبى روحا شاعرية اكبر من سنه.. كان

يحفظ كل الاغانى العاطفية ويلقيها بألحان صحيحة وأنه يحس بكل معانيها، وكان يرسم رسوما تدل على احساس فطرى بالفن وكان يحاول ان يكتب ازجالا ساذجة يقلد فيها كلمات الأغانى التى يسمعها..

كل ذلك قربه من قلب فايزة، وجعلها تضمه الى تلميذتها سميرة فى عاطفة الامومة التى يشعها قلبها.. واصبحت تلقاه فى نزهتها كل يوم، فيحمل لها الكراريس، ثم يسير بجانبها حتى تجلس هى وسعدية عند اقدام الشجرة الكبيرة، فيعيد لها الكراريس لتصححها ثم يأخذ فى الغناء او فى الرسم على الارض بعود من الحطب او فى رواية بعض ما حدث له فى يومه.. ثم يحمل عنها الكراريس مرة ثانية الى ان تدخل المدرسة..

واصبحت فايزة تعتمد على صحبته، حتى لم تعد تخشى ان تخرج بمفردها الى نزهتها فى المرات التى تعتذر فيها سعدية عن الخروج معها..

وفى احدى هذه المرات كان يبدو غاضبا صامتا، وسألته فايزة عن سر غضبه وصمته، فقال بعد تردد:

– سمعت حاجة عنك..

– سمعت ايه؟..

– سمعت انك بتحبى بنت اسمها سميرة!!..

– طيب وماله!؟..

– فيه واحد صاحبى كبير فى المدرسة الثانوى، قاللى ان المعلمات ما بيحبوش الا البنات!!..

– ما تصدقش.. أنا باحب سميرة وباحبك انت كمان..

- مش ممكن.. شادية بتقول فى الغنوة بتاعتها «ما أقدرش احب اتنين»!

وضحكت فايزة كما لم تضحك من قبل، ثم قالت بين ضحكاتها وهى تنظر اليه من خلال ضحكتها فى حنان وتربت على وجهه بكفها:

- وانت يهمك ايه.. هيه بنت وانت راجل!!

واشرقت الفرحة على وجه محمد، وقال جذلا:

- صحيح والنبى.. يعنى بتحبينى انا؟!

- طبعا باحبك.. امال بخليك تكلمنى وتقعد معايا ازاى؟

وقال محمد فى صوته الطفل وقد اغرق فى الخجل والارتباك .. حتى لم يعد يسمع صوته:

- يعنى.. يعنى.. اقدر اقولك « يافايزة»؟!..

وسكتت فايزة عن ضحكتها وقالت وهى لا تستطيع ان تخفى ابتسامتها:

- ليه.. مش عاجباك «ابله فايزة»!

وقال مترددا:

- بيتهيأ لى وانا بأقولها انى زى البنات..

- بس انا كبيرة.. انا زى ماما.. ولازم تحترمنى..

- ماما الله يرحمها كانت اكبر منك.. وطنط كمان اكبر منك.. انتى احلى منهم هم الاتنين!..

كان يتكلم فى سذاجة لم تستطع فايزة ان تقاومها فاتسعت ابتسامتها وعادت تضحك، ثم قالت فى حنان:

- طيب أنا حاسمح لك تقوللى «فايزة» بس بينى وبينك.. انما

قدام الناس تقوللى «يا أبلة فايزة»!!..

وقفز الصبى من جانبها كأنه وجد أجنحته التى يطير بها، وقال فى كلمات متقطعة؟

- مرسى.. مرسى.. يا.. فايزة!

ثم انحدف عليها فجأة وقبلها فوق خدها، ثم أخذ يعدو بعيدا عنها..

وقبل أن تفيق فايزة من دهشتها صرخت وراءه:

- محمد.. محمد.. تعال.. تعال هنا!!..

وتوقف محمد عن العدو، ثم عاد اليها فى خطوات بطيئة وهو منكس رأسه الى الأرض، وقالت فايزة وهى تفتعل العنف:

- أوعى تعمل كده مرة ثانية.. المرة دى حاسمحك، انما المرة الجاية حازعل منك ومش حا كلمك تانى.. ثم ازاى تجرى وتسيبنى لوحدى؟.. انته مجنون.. حد يسيب واحدة ست لوحدها فى الشارع..

ولم يجب محمد وظل غارقا فى خجله وارتباكه، ثم حمل الكراريس، وسار بجانبها حتى باب المدرسة..

ولم تعلق فايزة كبير أهمية على قبلة الصبى.. انها لم تكن اكثر من قبلة طفل محروم من حنان الأم لامرأة وجد فيها حنان الأم.. ولم تعلق ايضا كبير أهمية عندما قلبت مرة فى احدى كتبه المدرسية فوجدت اسمها مكتوبا على كل صفحة من صفحات الكتاب.. ولم تعلق ايضا اهمية عندما رأته مرة من نافذة حجرتها واقفا بجانب سور المدرسة يتطلع الى نافذتها والساعة قد تجاوزت السابعة مساء، فاكتفت بأن نهرته فى اليوم الثانى..

كان لا يعدو ان يكون طفلا جميلا رقيقا محروما من الحنان، وكانت تعصر قلبها لتقطر فى قلبه الظامىء حنانها..

ودخلت سعدية عليها فى حجرتها ووجهها يتهلل فرحا وهى تصيح كأنها تزغرد:

- يا بختك.. يا بختك.. شوفى يا ستى جالك ايه!!.

وفتحت لفافة فى يدها وأخرجت منها زجاجة عطر، ورفعتها فى يدها أمام وجه فايزة كأنها تزغلل عينيها، واستطردت:

- قزازة جى رفيان، باعتهالك الدكتور عوض.. لسه واصلة من مصر النهاردة، مخصوص علشانك!!..

وتنبهت عائشة التى كانت جالسة فوق فراشها تطرز قطعة من القماش، واتسعت عيناها كأن شبحا مخيفا مر من أمامها!!

وقالت فايزة فى حدة:

- اسمعى يا سعدية.. أنا ماسمحشى انك تقبلى هدايا باسمى.. من قالك انى متعودة اقبل هدايا من عوض ولا من غيره.. من فضلك ترجعيها مطرح ماجبتيها..

وقالت سعدية وقد أخذت، وتراجع صوتها حتى أصبح كالصدى البعيد:

- حد يرفض النعمة!!..

وقالت فايزة وهى لا تزال فى حدتها:

- دى مش نعمة، دى نقمة.. تسمحى تقوليلى واحد زى الدكتور عوض يبعتلى هدايا ليه.. عايز منى ايه؟..

وقالت عائشة كأنها تحادث نفسها وكأنها تعانى ألما فى معدتها:

– عايز منك اللى بيعوزه كل الرجالة.

وقالت سعدية ملتفتة الى عائشة وقد عاد صوتها الى الارتفاع وكأنها تتحداها:

– ما فيش راجل يقدر ياخد من واحدة اكثر من اللى هيه عايزه تديهوله.. حتى لو غرقها بالهدايا وبعتلها ميت قزازة بارفان.. الرك على الست!!

وقالت عائشة فى صوتها الهامس:

– انتى أصلك ما جربتيش!!..

وارتفع صوت سعدية حتى اصبح أشبه بالصراخ وقالت وهى تكاد تفقد أعصابها:

– ما جربتش ليه.. أنا مش ست زى بقية الستات ولا ايه.. لا ياحبيبتى جربت كتير.. بس كنت دايما عارفه انا باعمل ايه، علشان كده عمرى ما ندمت على حاجة عملتها.. وعمرى ما شلت الهم زى بعضهم.. ومش ضرورى اقولك مين بعضهم.. انتى عارفه انا اقصد مين!!..

وسكتت عائشة كأنها خرست، ونكست رأسها فى ذل!!

واستمعت فايزة الى مناقشة زميلتيها، وخيل اليها انها تستمع إلى مناقشة من المناقشات الكثيرة التى كانت تدور بينها وبين شقيقتيها..

ثم قالت لسعدية فى هدوء:

– مافيش لازمه للكلام ده كله.. المهم انك ترجعى القزازة دى للدكتور عوض بكره..

وقالت سعدية وهى تهز كتفيها:

- رجعيها انتى.. انا مش مستغنية عن مستقبلى!!..

وقالت فايزة فى دهشة:

- وايه اللى دخل مستقبلك دلوقت!

وقالت سعدية وهى تدعى عدم المبالاة:

- ما أقدرش أزعل الدكتور عوض.. ده راجل عارف كل البلد.. مين عارف يقدر يعمل ايه لما يزعل!!..

وفهمت فايزة ما تقصده سعدية، وقالت وكأنها وقعت فى مشكلة:

- طيب هاتيها.. انا ارجعها بنفسى!

ولم يتناول الثلاثة طعام العشاء فى تلك الليلة.. وان كانت سعدية قد تسللت بعد اطفاء النور بقليل وصنعت لنفسها «ساندويتش» حشته بالجبن، وأخذت تلتهمه فى صمت وهى مستندة على حافة النافذة..

ولم تنم فايزة..

كانت تفكر فى زجاجة العطر، وكان يطوف بأذنيها صوت شقيقتها خديجة وهى تقول لها: «الشرف هو انك تشغلى مخك»!

ماذا يقول مخها اليوم ليحتفظ لها بشرفها؟

هل تذهب الى الاجزخانة وتلقى بزجاجة العطر فى وجه صاحبها الدكتور عوض، وتعلمه درسا فى الاخلاق؟..

أم هل تقبل زجاجة العطر وتسكت وتقصر الشر، كما سكتت وقصرت الشر يوم جاءتها هدية الفطير من عبدالمقصود «بيه» العمدة؟..

وظلت تفكر..

وعندما سقطت خيوط الفجر فوق عينيها كان مخها قد استقر على الرأى الثانى..

ونامت بين أحضان الفجر، نوما قلقا لا هو بالنوم ولا هو باليقظة.. كالفجر نفسه، لا هو بالليل ولا هو بالنهار!!..

وعندما اصبح الصباح لم يدر حديث بين الزميلات الثلاث عن زجاجة العطر، ولم تسألها سعدية عما قررته بشأنها..

وعندما جاء المساء ارتفعت ابتسامة فوق شفتى سعدية وهى ترى زجاجة العطر لا تزال فى مكانها!!..

وجاءتها بعد ايام تقول:

- الدكتور عوض سألنى عليكى، وقلتله انك متشكرة على قزازة البارفان..

وارتفعت فوق شفتى سعدية ابتسامة خبيثة..

وقالت فايزة وهى تتجاهل الابتسامة:

- ابقى سلميلى عليه..

وكأن سعدية تشجعت.. فعادت تقول:

- والنبى ده بيعزك قوى.. ولما قلتله انك مابتروحيش الأجزخانة علشان بتجيبى لوازمك من مصر، طلب منى أقولك انه مستعد يجيبلك مصر كلها لغاية عندك.. حقه يا بختك يا فايزة!!..

وقالت فايزة فى اقتضاب:

- قوليله متشكرين!!..

واصبحت فايزة تتعمد ان تغلق باب الحديث عن الدكتور عوض، كلما حاولت سعدية ان تفتحه، ثم اصبحت سعدية نفسها تتجنب الحديث عنه حتى لا تثقل به على فايزة فتخسر صداقتها

وثقتها..

الى أن قالت لها يوما هامسة وكأنها أعدت لها مفاجأة:

– الجمعة دى مش ممكن حتنزلى مصر يا فايزة.

– ليه؟

– معزومين..

– معزومين فين؟..

– فى عزبة عبدالمقصود «بيه».. جنة.. جنة يا فايزة اللى يروح هناك بيتحسر على بخته.. فواكه ايه.. وخير ايه.. ونركب حمير وخيل.. والفلاحين يرقصوا .. وتبقى زيطه!!..

وابتسمت فايزة كأنها تصورت نفسها فى الجنة، ولكنها عادت وسحبت ابتسامتها وقالت:

– انما الراجل ده دمه تقيل.. باين عليه فجعان ستات، ويوم ما شفته فى الاجزخانة حسيت انه حياكلنى بعينيه، ويحطنى فى كرشه..

وقالت سعدية متحمسة:

– أبدا والنبى ده راجل طيب.. وكل سنة بيعزم المعلمات كلهم على دفعات علشان خاطر بناته.. وحتى الست الناظرة بتروح هناك.. وبينى وبينك يظهر انه بيستلطف الست الناظرة، أصلهم الاتنين من وزن واحد..

وعادت فايزة تبتسم وهى تتصور عبدالمقصود بكرشه الضخم المترهل وبجانبه الست الناظرة السمينة المكتنزة، وقالت من بين ابتسامتها:

– ياسم عليهم همه الاتنين.. الطيور على أشكالها تقع!!.

وقبلت فايزة الدعوة..

وأرسلت الى امها خطابا تعتذر عن الذهاب اليها فى موعدها الأسبوعى..

وفى مساء الخميس، همست سعدية فى أذن فايزة:

- بكره الساعة تسعة، الدكتور عوض حيستنانا على السكة الزراعية بالأتومبيل..

وقالت فايزة دهشة:

- هوه جاى معانا؟!!..

واجابت سعدية:

- ما هوه اللى حيودينا..

والتفتت فايزة الى عائشة قائلة:

- عاجبك كده يا عيشة..

- خير.. ما سمعتش!!..

- الدكتور عوض جاى معانا!..

وقالت عائشة وفى عينيها نظرة غبية:

- فين؟..

- الله.. انتى مش جايه معانا ولا ايه.. سعدية ما قلتلكيش؟..

- على ايه؟!..

- احنا معزومين بكره فى عزبة عبدالمقصود بيه!!..

وتدخلت سعدية وهى محرجة:

- الحقيقة.. عيشه مش معزومه، يمكن يعزموها نوبه تانيه!..

وقالت فايزة:

- وانا مش رايحة الا لو جت معانا عيشة..

وقالت سعدية:

- بس هيه مش معزومه.. يا ترى حنرمى نفسنا على الناس!!..

وقالت فايزة:

- هم اللى بيترموا علينا.. يا نروح احنا التلاته.. يا محدش رايح!!..

وقالت عائشة فى صوت ذليل:

- بلاش انا يا فايزة.. بلاش احسن!!..

- مش ممكن.. انتى قبل اى حد.. عاجبهم على كده نروح!!..

وقالت سعدية وقد اشتد بها الحرج:

- طيب مش نستأذنهم قبله؟!!..

وقالت فايزة بحزم:

- ولا نستأذن ولا حاجه.. يعني حيدبحوا خروف زياده.. مالكيش دعوة انتى!!..

وقالت سعدية:

- أصلك ما تعرفيش الحكاية.. فى حاجات كتير ما تعرفيهاش!!..

- مش عايزة أعرف..

وقالت عائشة فى ذل:

- اعفينى انا يا فايزة!!..

وقالت فايزة وهى تضمها بابتسامة حنونة:

- لأ.. مش حاعفيكى!!..

وابتسمت عائشة لابتسامة فايزة، ثم قفز الى عينيها بريق

عجيب كأنها قررت شيئا، والتفتت الى سعدية قائلة كأنها تتحداها وتغيظها:

- علشان خاطر فايزة.. حاجي معاكم!!..

وقالت سعدية دون ان يسمعها احد:

- يا باى!!..

ونام الثلاثة وكل منهن فى عالم خاص..

وخرجن فى الصباح متجهات الى خارج البلدة، وفايزة مستبشرة بيوم جميل، وسعدية ممتعضة كأنها تتوقع كارثة وعائشة هائمة فى صمتها وعلى شفتيها ظل ابتسامة حزينة كأنها تحادث نفسها..

وعند اول الطريق الزراعى كان الدكتور عوض ينتظرهن جالسا على مقعد القيادة من سيارته.. كل شىء فيه مفتعل.. شعره الأسود قد وضعت كل شعرة منه بجانب الاخرى وثبتت مكانها بالبريانتين، وشاربه الصغير يبدو من شدة عنايته به كأنه اشتراه جاهزا، وتحت عينيه بقع سوداء تروى ليالى كثيرة لم يرحم خلالها نفسه ولم يرحم احدا..

والتفت اليهن الدكتور عوض، واربد وجهه عندما رأى بينهن عائشة، ولكنه تمالك نفسه سريعا، ووضع فوق شفتيه ابتسامة تقطر رياء، وهو يقول:

- اهلا وسهلا.. يا صباح الخير!!..

وصافح الثلاثة وهو لايزال جالسا فى مكانه، وقالت سعدية وكأنها تدافع عن نفسها:

- فايزة صممت ان عيشة لازم تيجى معانا!!..

ومال الدكتور عوض، وفتح باب السيارة المقابل له قائلا:

- وماله.. علشان خاطر عين تكرم الف!!.

وتجاهلت فايزة الباب الذى فتحه، وفتحت هى الباب الثانى ودلفت منه بسرعة وجلست فى المقعد الخلفى، ودلفت وراءها عائشة.. ووقفت سعدية حائرة كأنها لا تجرؤ على الجلوس بجانب الدكتور عوض فى المقعد الأمامى..

والتفت الدكتور عوض الى فايزة قائلا وعلى وجهه علامات الخيبة:

- مش كنتى تيجى تقعدى قدام.. ده انتى ضيفة الشرف!!.

واجابت فايزة فى اختصار حازم:

- هنا كويس !!..

ونقل عينيه بين فايزة وعيشه ثم استدار الى عجلة القيادة قائلا:

- اتفضلى يا ست سعدية..

وجلست سعدية بجانبه وهى تبتسم كأنها تتباهى..

ولم يستغرق الطريق الى عزبة عبد المقصود «بيه» اكثر من ربع ساعة قضاها الدكتور عوض فى الحديث عن نفسه، والتلميح عن مغامراته النسائية..

واستقبلهم عبدالمقصود «بيه» كأنه كرش يقف على قدمين، وعاد يكرر بصوت كالشخير وهو يضع يده الثقيلة فى يد فايزة:

- ما شاء الله.. ما شاء الله.. سنتنا بيضه باذن الله!!..

ثم قال وهو يصافح عائشة:

- والله وحشتينا ياست عيشه.. فين ايامك!!..

ثم قهقه بصوت عال..

وقال وهو يصافح سعدية:

– جرى ايه يا ست سعدية، مش تسمنى شويه بأه.. انا حاجزك عندى هنا ومش حاسيبك الا لما تبقى اده كده اربع مرات..

ثم استدار إلى فلاح عريض يقف وراءه وهوى بكفه السمين على قفاه وصاح فيه:

– يا وله اجرى افتح المندره.. ده ماله واقف مبلم زى التيس!!..

كانت المندرة تقع فى ركن قصى من حديقة الموالح التى تحيط بالبيت الكبير، واتجه الجميع اليها سائرين فى ممرات الحديقة ومدت فايزة يدها وقطفت حبة من «اليوسف افندى» وهى تقول للعمدة:

– تسمح!!..

وقال العمدة:

– الجنينة كلها تحت امرك..: واذا ما كفتش ازرعلك جنبها جنينه ثانية!..

ولم ترد فايزة، واخذت تقشر حبة «اليوسف افندى» وهى تحس برغبة ملحة تدفعها لان تنطلق حافية القدمين بين الأشجار، تقبل كل ثمرة فيها، وتتعلق بكل فرع منها.. تريد ان تجرى.. تريد ان تمرح.. تريد ان تضحك.. والتفتت الي زميلتيها قائلة:

– تيجو نلعت استغماية يا بنات!!..

وضحكت ضحكة من قلبها كأنها تذكرت ايام طفولتها.. الأيام

البعيدة قبل ان يتوفى عنها ابوها..

ولم ترد عليها زميلتاها.. سوى بابتسامات باهتة، ومدت كل منهما يدها فى وقار وفى انوثة مفتعلة، وقطفت حبة من الثمار....

ودخل الجميع الى المندرة..

وجلست فايزة على الاريكة «الاستنبولى» الطويلة وكأن كلا من العمدة والدكتور عوض، كان يتربص ليرى اين تجلس فما كادت تجلس حتى جلس كُل منهما بجانبها من ناحية!!..

وقال العمدة وهو يرفع يده ويربت بها على فخذ فايزة:

– نورت بلدنا يا ست فايزة..

ثم رفع يده..

وعاد بعد قليل يقول وهو يرفع يده ايضا ويضعها على فخذ فايزة:

– شرفت العزبة يا ست فايزة..

ثم رفع يده..

وادعى الدكتور عوض الرقة، فبدأ يسأل فايزة عن مصر، واين تقيم عائلتها فيها.. و.... و...

وقاطعه العمدة، وقال وهو يرفع يده ايضا ويضعها على فخد فايزة:

– أهلا وسهلا بالست فايزة!.

وفى هذه المرة لم يرفع يده، انما أبقاها بكل ثقلها على فخذ فايزة..

وتمالكت فايزة اعصابها، ومدت يدها ورفعت يده عن فخذها فى ادب قاس، وقالت وهى تلتفت اليه وتعتدل فى جلستها بحيث

تبعد عنه فخذيها:

- امال الهانم فين؟!.

وقال العمدة متعجبا وكأنه يحاول ان يتذكر شيئا نسيه:

- هانم مين؟!..

وقالت فايزة وهى تعلم أنها تعكر مزاجه:

الست حرمكم!..

وطاف العمدة بعينيه على الحاضرين كأنه يشهدهم على سخافة السؤال، وقال وهو يزفر:

- والله الست عيانة شوية، ما بتقدرش تنزل من السرير!!

وعادت فايزة تقول كأنها تزيد من ضيقه:

- والبنات فين.. مش بيجوا يسلموا على ابلواتهم؟!..

وقال العمدة وهو يلتفت الى الدكتور:

- شوف لنا سيجارة معاك يا دكتور.

ثم التفت الى فايزة واستطرد:

والله البنات بايتين عند عمتهم من امبارح..

واخرج الدكتور عوض من جيبه علبة سجاير من الصفيح، وقدمها مفتوحة الى العمدة، وتناول العمدة منها سيجارة مدببة الطرف وهو يقول:

- ده انته ما معاكش كتير.. انته مش عامل حسابك ولا ايه؟..

وقال الدكتور عوض:

- بس لما يخلصوا.. يبقى يحلها حلال!..

ومد يده بالعلبة الى سعدية قائلا:

- اتفضلى يا ربة المزاج!..

وتناولت سعدية سيجارة بيد ملهوفة.. ثم طاف الدكتور عوض بالعلبة على عائشة وهو يقول:

– وانتى كمان ياست عيشة.. والله زمان!

وقالت عيشة وهى تتناول سيجارة من العلبة:

زمان ما اتنسى خلاص..

وقال عوض:

– ازاى بأه.. وانا انسى يوم ما قعدت تحكى نص ساعة بعد اول نفس!!..

وقدم عوض العلبة الى فايزة، فقالت فى هدوء:

– مرسى ما بدخنش!..

وقال عوض:

– ده مش دخان.. مدى ايدك مدى!..

وقالت فايزة:

– صحيح ما بادخنش!

وقال العمدة:

– جرى ايه بأه ياست فايزة.. انتى باين عليكى غاوية محايلة!!

وكان العمدة وسعدية وعائشة قد أشعلوا سجائرهم وبدأوا يدخنونها، وشمت فايزة رائحة غريبة تتجمع فى جو الغرفة.. وقالت وكأنها تخاف شيئا:

– ده ايه ده؟..

وقال الدكتور عوض وهو يسحب علب سجائره من أمامها ويشعل لنفسه سيجارة..

– قوليلها يا سعدية يبقى ايه!..

وقالت سعدية وهى تلتهم الدخان بأنفاسها وتزفره سحبا كثيفة سوداء:

– يعنى مش عارفة يا فايزة.. خديلك سيجارة خدى.. ده والنبى يروق الدماغ وينسى الهم..

وقالت عائشة:

– ويقلب الحال...

وسكتت فايزة وقالت وهى تضم شفتيها:

– فهمت.. لأ مرسى.. بأه هو ده!..

وقاطعها العمدة:

– أهو ده.. والله لا انت واخده سيجارة.. خليكى معانا أمال!..

وقالت فايزة:

– لأ.. مرسى، انا عمرى ما دقته!..

وقال الدكتور عوض:

– ازاى بأه.. ده كل ستات مصر غاويينه..

وقالت فايزة:

– لا زم انا مش من ستات مصر!!..

وقال العمدة:

– ده انا جانى ديك النهار على بك خيرت زى المجنون بيدور على المدعوق ده.. قلتله جرالك ايه يا على بك، ما كنت بطلته..

قاللى: مش علشانى ياسيدى علشان الست..

وضحك عبدالمقصود ضحكة ضخمة كأنه يتجشأ، وقال وهو يغمز لفايزة باحدى عينيه:

– بلاش كهن بأه ياست فايزة.. هو ده عيب مدى ايدك خديلك سيجارة!.

– لأ، مرسى..

ورفع عبدالمقصود صوته قائلا:

– طيب على الطلاق بالتلاته لا انتى وا خده سيجارة!!..

وساد الصمت..

والتفتت فايزة بعين مذعورة الى من حولها.

كان الدكتور عوض ينظر اليها بخبث..

وكانت سعدية تنظر اليها كأنها تشجعها..

وكانت عائشة منكسة رأسها الى الارض لا تتنظر اليها.

وظلت فايزة لا تتحرك، وقال الدكتور عوض في صوت كالفحيح:

– اظن ما يخلصكيش توقعى يمين العمدة..

ورفعت اليه فايزة عينيها كأنها مذهولة.. وخيل اليها انها فى قفص، والذين حولها قضبان له.

وترددت..

ثم مدت يدها الى العلبة، وتناولت سيجارة ما كادت تلمسها حتى سقطت من بين اصابعها كأنها لمست قطعة من الجمر.

وانحنى الدكتور عوض والتقط السيجارة وأعادها اليها، ثم أشعل عود ثقاب وقربه منها.

وهزت رأسها وقد انقلب صمتها الى ثورة تضج فى صدرها وتنطلق من عينيها:

– لأ.. مش حاولع.. العمدة حلف انى آخد سيجارة.. ما

حلفش اني ادخنها!.

وقهقه العمدة، وقال:

- بس كده. بسيطة، طيب على الـ ...

وقفزت فايزة واقفة على قدميها وصرخت كالمجنونة تقاطعه:

- لو حلفت بالطلاق تاني، حاسيبك تطلق.. انت فاهم!

وذهل الجميع..

ونظر اليها العمدة متعجبا، ونظرت اليها عائشة معجبة، ونظرت اليها سعدية مبهوتة، ونظر اليها الدكتور عوض ساخرا.

ونظر اليها العمدة كأنه لا يصدق.. ثم قال متراجعا:

- طيب بلاش يا ستي.. حقك علينا.. بس ما تزعليش قوى كده!!.

وقال الدكتور عوض وكأنه أعد خطة اخرى:

- احنا آسفين.. كنا فاكرينك بتتقلي علينا، علشان نتحايل عليكي.. ما تخديش على كلام العمدة ده بيحلف بالطلاق كل يوم ميت مرة.

وعادت فايزة تجلس على الاريكة «الاستنبولي» بين المقصود بيه والدكتور عوض..

وفرغ الجميع من تدخين سجائرهم المدببة، وبدأ كل منهم يشغل سيجارة اخرى مدببة ايضا.

كانوا يتكلمون كلاما سخيفا، ويتبادلون الفاظا من الشرق والغرب لا معنى لها ولا رابط بينها، ورغم ذلك كانوا يضحكون ويضجون بالضحك..

ومرت عليهم اكواب الشاي المرة تلو المرة، ووضعت امامهم

اطباق الفطير والكعك الفلاحى..

وشربوا الشاى، واكلوا بنهم..

وظلت فايزة تحس بالضيق، وكانت سحب الدخان المسوم قد تجمعت كثيفة حتى اصبح الهواء كله دخانا مسموما.. وبدأ هذا الدخان يتسرب الى انف فايزة ويخنق رئتيها.. وأحست كأن مفاصلها قد بدأت تتخلى عنها، وأحست كأن كل ما حولها يهتز أمام عينيها، وأحست كأن أصوات الكلام تصل اليها من بعيد.

وشربت الشاى لعلها تتماسك.. واكلت الفطير لعل حركات فكيها تنبه اعصابها.. وحاولت ان تفهم ما يقولونه وان تضحك معهم، ولكنها لم تفهم شيئا، ولم تضحك..

وفجأة هبت واقفة مرة ثانية وقالت فى حزم وهى تتجه الى الباب:

– أنا عايزة اتمشى فى الجنينة.. احنا مش جايين علشان نقعد فى اودة مقفولة!!

وكانوا منذ ثارت عليهم يتحفظون فى الحديث معها، ويدعون الرقة والمجاملة فى معاملتها، فقال العمدة فى صوته الذى يشبه خوار الثور:

– مش نستنى لما نتغدى، وبعدين نطلع الجنينة..

وقالت فايزة وهى تحاول ان تجامله:

– هو لسه فيه غدا بعد الفطير ده كله!

وقال العمدة:

– لسه فيه كتير.. بس اقعدى انتى واهدى بالله!..

وقالت فايزة:

- معلهش.. اخرج اتمشى شوية علشان نفسى تتفتح.. ثم التفتت الى زميلتيها واستطردت:

- ما حدش عايز يتمشى فيكم!..

وتململت سعدية كأنها تعترض على تعكير مزاجها بهذا الاقتراح، ونظرت اليها عائشة صامتة ثم نكست رأسها الى الأرض كأنها اضعف من ان تبقى رأسها مرفوعا..

وقال الدكتور عوض:

- آجى معاكى انا..

ورد عليه العمدة فى سرعة كأنه يقف فى وجهه معترضا سبيله:

- خليك انت.. ولا عايزنا نقوم كلنا معاك..

ثم التفت العمدة الى سعدية مستطردا:

- قومى انتى معاها ياست سعدية، فرجيها على الجنينة!..

وخرجت فايزة وسعدية تطوفان بين اشجار الموالح.. واحست فايزة ان الهواء النقى الطلق بدأ يغسل رئتيها، وينزع الضيق عن صدرها..

وكان يبدو ان سعدية مرتبكة لا تدرى كيف تبدأ حديثا مع فايزة، وانتظرت طويلا ان تبدأها فايزة بالحديث.

ولكن فايزة ظلت متشاغلة عنها بالتطلع الى اشجار الموالح.. واخيرا قالت سعدية متلعثمة:

- الحقيقة انا ما كنتش حاسبه حساب القعدة دى.. كنت فاكره حنقضى اليوم نلعب ونجرى!!..

ونظرت اليها فايزة كأنها تحتقرها ولم تتكلم..

وعادت سعدية تقول بعد فترة صمت:

- والبتاع اللى بيشربوه يقطع النفس.. ده انا حاسه ان صدرى كله قايد نار!!..

ولم ترد فايزة ايضا..

وسكتت سعدية لحظة ثم عادت تقول كأنها تدافع عن نفسها:

- انما بيقولوا انه بيسمن.. اصله بيفتح النفس، تقوم الواحدة تاكل كتير وتسمن.. وانا فى عرض اتنين كيلو بس احطهم على عضمى!!

وقالت فايزة فى هدوء كأنها تقفل موضوع الحديث:

- انتى مش بتقولى انك دايما عارفة ايه اللى بتعمليه؟..

- أيوه..

- أنا كمان عارفة ايه اللى باعمله.. ومافيش لازمة للكلام بأه!!.

وأنا عملت حاجة؟..

- مش قصدى.. انما اقفلى الموضوع، وخلينا نشم شوية هوا..

وسكتت سعدية.. وسارت بجانب فايزة الى أن خرجتا من الحديقة وانطلقنا فى المزارع الخضراء.

واستعادت فايزة ابتسامتها، واستردت مرحها، فأخذت تقفز فوق القنوات الصغيرة، وتبحث بين الزرع عن حبات الفول الحراتى وأوراق «الجعضيد» لتاكلها..

وكانت سعدية تسير وراءها مستسلمة لا تستطيع ان تجاريها فى مرحها، وانما يبدو الضيق من وجهها، ثم بدأت تحس بالتعب

من طول السير، وقالت كأنها تسترحم فايزة:

- ده احنا بعدنا قوى عن الجماعة.. مش نرجع بأه؟!!..

وقالت فايزة:

- يا شيخة سيبك منهم.. يعنى عاجبك فيهم ايه.. العمدة اللى زى العجل، والا الدكتور اللى بينقط سم..

- بس زمانهم مستنينا على الغدا..

خليهم يستنوا..

واستمرت تقفز فوق القنوات وتلتقط الفول الحراتى وأوراق الجعضيد، الى ان احست بالشبع من الهواء النقى، والتعب من السير فعادت تجر وراءها سعدية..

وعندما وصلت الى الحديقة رفعت عينيها الى بيت العمدة فلمحت فى الشرفة بناته الثلاث.. تلميذاتها!!..

وأحست بالخجل، وعاد الضيق يزحف على صدرها..

كيف تستطيع ان تواجه البنات غدا صباحا فى المدرسة؟..

كيف تستطيع ان تحتفظ باحترامها امامهن؟!!..

وماذا يقلن الآن بينهن وبين بعضهن، ومن يرينها مع ابيهن فى المندرة؟!!..

وكيف يسمح ابوهن لنفسه بأن يجلس مع معلمات بناته هذه الجلسة المريبة؟!!..

وتمنت لو انها نادت البنات واخذتهن معها الى ابيهن لتقول رأيها فيه امامهن، ولتعلمه كيف يحتفظ بكرامة بيته الذى يضم بناته..

ولكنها لم تفعل، وارخت عينيها عن الشرفة التى تقف فيها

البنات، وسارت الى المندرة وبين ضلوعها نار تكتمها فى صدرها فتأكل من قلبها..

وفوجئت بوجوم مخيم على الجميع..

كانت عائشة تجلس ورأسها فوق يدها وعلى وجنتيها آثار دموع.. وكان العمدة تبدو على وجهه آثار خيبة الأمل.. وكان الدكتور عوض ينفث دخان سيجارته فى عصبية وقد برزت عظام فكيه من تحت جلده الأصفر.

ووجدت على المائدة زجاجة كونياك وعدة كوبات، بعضها فارغ وبعضها نصف ممتلىء..

وقالت سعدية:

– ما لكم يا جماعة.. جرى ايه؟!!..

وقال الدكتور عوض:

– ولا حاجة... انتو اتأخرتوا كده ليه.. ده احنا كنا عايزين نقوم من الصبح!..

ورفعت عائشة رأسها الى سعدية، ثم التفت الى فايزة، ثم اخرجت منديلها ووضعته فوق انفها كأنها تحبس مزيدا من الدموع تكاد تنهمر!..

وقال العمدة:

– اهلا بالست فايزة.. اتفضلى اقعدى.. تاخدى كأس كونياك بأه!!..

وقالت فايزة بحدة:

– لأ.. متشكرة!!..

وقال العمدة كأنه يسلم امره لله:

- حتى ده كمان. بلاش ياستى ماهو اليوم كله نكد.. نجيب الغدا بأه.

والتفت الى عائشة:

- اظن ما عند كيش مانع نتغدى يا ست عيشه.. ناكلنا لقمتين ننسى بيهم الهم!!..

وقال عوض ملتفتا الى سعدية وهو يزفر:

- انا عارف كنتم جبتوها معاكم ليه؟!!..

وقالت سعدية فى حقد:

- فايزه هيه اللى صممت تعزمها.. انا ماليش دعوة!!..

والتفتت فايزة الى الجميع تحاول ان تفهم ماذا حدث.. كانت تعرف ان هناك مأساة فى حياة عائشة، وكانت قد استنتجت ان الطرف الثانى فى هذه المأساة لابد ان يكون الدكتور عوض، ولكنها لم تكن تعرف التفاصيل.. لم يقلها لها احد، وفضلت ألا تسأل احدا عنها..

وصفق العمدة بيديه، ليدخل خادم ريفى عريض، امره بأن يعد طعام الغداء، ثم قاموا جميعا الى غرفة ثانية تتوسطها مائدة خشبية كبيرة ازدحمت فوقها اطباق الطعام..

ولم تأكل فايزة إلا النذر رغم الحاح العمدة..

ولم تأكل عائشة، ولم يلح عليها احد بالأكل..

وكان الدكتور عوض يأكل بشراهة، حتى تعجبت فايزة اين يجد مكانا فى جسده النحيل لكل هذا الطعام.

وكانت سعدية تحاول أحيانا ان تدعى التمنع، وتحاول احيانا ان تدعى الرشاقة فتمسك «بدبوس الفرخة» بأصبعين اثنين

وترفع اصابعها الثلاثة الاخر فى الهواء كأنها تشهد الله على رشاقتها.. ثم لا تلبث ان تنسى تمنعها ورشاقتها.. وتقبل على الطعام كأنها تهبه جسدها كله..

اما العمدة فكان هادئا امام الأطباق.. كأنه أعد لكل طبق مكانا من كرشه..

وانتهى الطعام او كاد، وفجأة قفز الدكتور عوض قائلا:

- ياللا بينا..

وقال العمدة:

- على فين.. ما تستنى الشاى!!..

وقال الدكتور عوض وهو يمسح يديه فى الفوطه:

- اشربه فى البلد.. اصل عندى شغل!!..

وقال العمدة دون ان يتحرك من مكانه، وهو لايزال مقبلا على الطعام:

- انا عذرك.. الحقيقة حاجه تنكد.. انما برضه الحق عليك!!..

وقامت الزميلات الثلاث فاستطرد العمدة:

- احنا آسفين ياست فايزة، احنا ما عملناش بالمقام..

ثم نظر الى عائشة قائلا:

- افرديها بأه أمال.. كل حاجة تتعوض!!..

ونظرت فايزة الى عائشة ثم احاطت خصرها بذراعها، وضمتها ضمة خفيفة كأنها تواسيها وتشكرها لأنها افسدت نزهة اليوم!!..

وحملت سيارة الدكتور عوض الجميع الى مدخل البلد، حيث نزلت منها الزميلات الثلاث..

وعندما وصلت فايزة الى المدرسة، واصبحت فى حجرتها، أحست أنها وصلت إلى شاطىء النجاة..

١٠

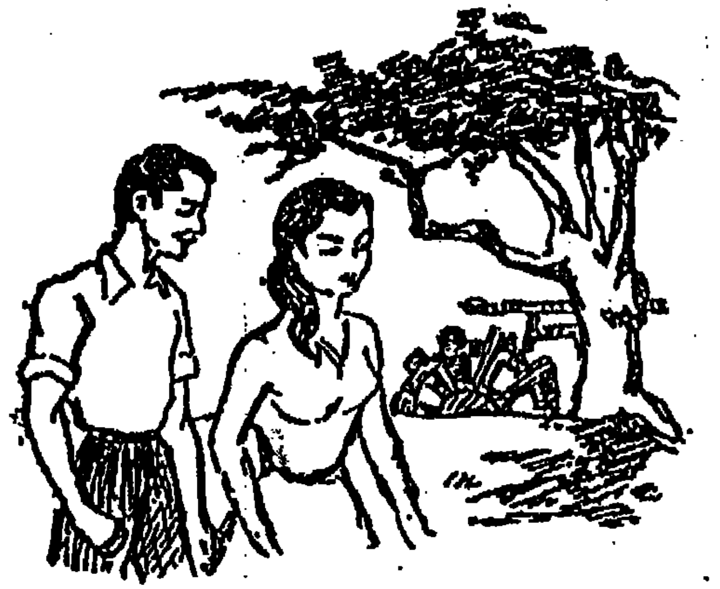

ومرت الأيام مملة متشابهة لا تدرى فايزة ماذا تصنع بها!!
كانت لا تزال تخرج فى نزهتها اليومية على شاطىء المصرف وان كانت قد اصبحت تفضل ان تصحب معها عائشة بدلا من سعدية..

وكان الصبى محمد يلحقها كالعادة بدراجته، ثم يحمل عنها الكراريس ويجلس بجانبها تحت الشجرة الضخمة العجوز يرسم على الأرض رسوما ساذجة بعود الحطب، او يترنم بأغنية شعبية، او يروى لها حوادث يومه، ويشكو لها تصرفات زوجة ابيه، واهمال ابيه له..

وقال لها يوما وهو جالس بجانبها لا ينظر اليها:

- بيقولوا فى البلد انك رحت عزية عبدالمقصود بيه عمدة كفر شرف!!..

ورفعت فايزة رأسها عن الكراس الذى تصححه، ونظرت اليه فى عينيه، وقالت:

- أيوه رحت.. وبيقولوا ايه كمان فى البلد؟!!..

وقال الصبى فى صوت خفيض:

- ولا حاجه..

وسكت قليلا واخذ يعبث بعود الحطب فى التراب، ثم رفع رأسه فجأة وقال كأنه يكاد يبكى:

- انا بكره عبدالمقصود بيه.. ما بحبوش!!..

وابتسمت فايزة وقالت:

- وانا كمان!!..

وقال محمد وكأنه انتفض رجلا رغم صوته الرفيع:

- أمال رحتى عزبته ليه؟!

ودهشت فايزة لجرأته، وبدأت تحس انه يتعلق بها اكثر من تعلق طفل يبحث عن الحنان، وانه يلقى عليها حملا ثقيلا ليست على استعداد لتحمله. انها تحب ان تعوضه عن بعض حنان امه التى فقدها، ولكنها لا تحب ان تنساق فى هذا الحنان حتى يصبح حقا له، يتدخل بموجبه فى حياتها..

وربما أحست ساعتها انها اخطأت عندما ربطت نفسها به الى هذا الحد، واخطأت عندما اعتبرته مجرد طفل لا يتجاوز عمره الثانية عشرة.. فخلف هذا العمر تكمن احاسيس وعواطف فجة قد تتفتح فجأة وقبل أوانها، عندما تعيش فى ظروف شاذة

من الحرمان..

ورغم ذلك اجابته فايزة فى لهجة حازمة:

- انا رحت عزبة عبدالمقصود بيه علشان بناته فى المدرسة.

وأجاب الصبى:

- ودول بنات دول ... و...

وقاطعته فايزة وقد ازدادت حزما:

- وبعدين معاك يا محمد. مش عيب!!..

وسكت محمد، وتشنجت عضلات وجهه كأنه يحاول ان يحبس دموعه.. ثم قام وركب دراجته واختفى..

ومن يومها قررت فايزة ان تخفف من تعلقه بها، وبدأت تقلل من نزهتها اليومية حتى لا تلتقى به..

وكانت تلمحه عندما لا تخرج الى نزهتها وهو يطوف حول المدرسة بدراجته، وكانت تلمحه يقف تحت نافذتها حتى يخفيه الليل عن عينيها، وكانت فى المرات القليلة التى تخرج فيها ويلحق بها تلمح على وجهه نحولا وحزنا صامتا كأنه يلف بالصمت جراحا عميقة فى قلبه.. ورغم ذلك فلم تكن تسأله عن سر تحوله او عن سر صمته.. كانت قد قررت ان تقسو على نفسها وتقسو عليه، حتى تنقذ نفسها منه، وتنقذه من نفسها!!..

وضاقت حلقة الملل والسأم حول فايزة..

وكانت تقضى امسيات كثيرة بين زميلاتها المعلمات فى «صالة» القسم الداخلى او فى حجرة احداهن، يستمعن الى الراديو، ويتحدثن عن الناس، ويتبادلن النكات.. وكان بعضها نكات خارجة لا تستطيع فايزة احيانا ان تمنع نفسها من

الضحك لها، ولكنها لم تكن ابدا تتداولها او تعيد روايتها.. كانت تحس للنكتة الخارجة بثقل على لسانها حتى لا تستطيع النطق بها..

وكانت المعلمات يتحدثن فى ذلك المساء عن مستوى الجمال فى البلدة، وقالت حسنية:

– انتم عايزين الحق.. من يوم ما فايزة جت ماشفناش اجمل منها!!

وسكتت بعض الزميلات حاقدات، وابتسم البعض الآخر ابتسامات لها معنى، وقالت واحدة او اثنتان، وكأنهما تحاولان ارضاء حسنية لا فايزة:

– لك حق..

كانت حسنية معلمة قديمة يبدو انها تعدت الثلاثين من عمرها وان كانت تصر على انها لم تتجاوزها.. وكانت قوية الجسد، مكتنزة فى غير ترهل، حتى يبدو اكتنازها متناسبا مع طولها، ولم تكن جميلة الوجه، ولكنها لم تكن منفرة.. وكانت قوية الشخصية بحيث تستطيع ان تسيطر بشخصيتها على كثيرات من زميلاتها، ولا تحاول ان تخفى هذه السيطرة، بل تظهرها كأنها تتباهى بها.. كانت شخصيتها عارمة خشنة، أقرب إلى شخصيات الرجال..

وكانت حسنية تغنى احيانا فى الندوات التى تعقدها زميلاتها.. كان صوتها مليئا قويا حتى ليخيل اليك انه صوت لنصف رجل او نصف امرأة.. ورغم ذلك كان صوتا ممتعا وكان اكثر ما يتميز به هو ضبط اللحن وسلامة النغم.. وكانت فايزة تحب ان تستمع اليها، وكان هذا الصوت يثيرها كأنه يتخلل دماءها وينقر على اعصابها.. ولكنها ظلت تنفر من صاحبته،

وظلت منذ اليوم الأول الذى التحقت فيه بالمدرسة تقاوم شخصية حسنية، لسبب لا تدريه.. لم تكن تأخذ عليها شيئا واضحا إلا انها تعودت ان تقبل جميع زميلاتها فى خروجها ودخولها..

واستطردت حسنية قائلة للزميلات المجتمعات وهى تبتسم ابتسامة واسعة:

– تفتكروا ايه اجمل حاجة فى فايزة؟ ونظرت الزميلات بعضهن لبعض نظرات ذات معنى، ثم قالت واحدة بلا تحمس:

– رجليها!..

وقالت ثانية:

– شعرها.. الحقيقة ما شفتش شعر اسود باللون الجميل ده..

وقالت ثالثة:

– أهى كلها على بعضيها حلوة.. ما حدش يقدر يقول حاجة!

وأحست فايزة بالخجل.. أحست أن العيون التى تلتف حولها قد خلعت عنها ثيابها، حتى لم يبق فيها شىء مستور.

وقالت حسنية فى صوتها المليء القوى وقد شابته حشرجة غريبة كأنها تكتم شيئا يكاد ينفلت منها:

– كلكم غلطانين.. اجمل حاجة فيها صدرها.. زى ما تكون بنت أربعتاشر.. والنبى انا اول ما شفت صدرها قلت عليها انها بنت عزيزة ما فيش راجل قدر يحط ايده عليها!.

ومدت حسنية يدا ملهوفة ولمست صدر فايزة، وهى تقول وفى صوتها هذه الحشرجة العجيبة:

– شوفو .. زى حبة الرمان!..

وانتفضت فايزة وتراجعت فى مكانها وهى تحس بقشعريرة مقبضة كأن ثعبانا املس مر فوق صدرها.

وضحكت الزميلات وقالت احداهن:

- ماتكسفيهاش يا حسنية.. ده لسه صغار!..

وضحكت الزميلات مرة ثانية..

وأحست فايزة بما فى ضحك الزميلات من تهكم وسخرية، وخشيت ان يتمادين فى تهكمهن وسخريتهن، فأعملت ذهنها بسرعة وتمالكت ارادتها ثم هبت واقفة وهى تقول وعلى شفتيها ابتسامة مفتعلة:

- مين قال انى جميلة.. ربنا يسمع منكم.. غنى لنا يا حسنية حاجه.. غنى غنوة «ياعطارين دولنى» يمكن ربنا يصبرنا على الهم اللى احنا فيه..

وقالت حسنية وهى تنظر اليها فى نهم:

- مش حا غنى الا لما تيجى تقعدى جنبى..

- بس كده..

وضغطت فايزة على ارادتها، وألقت نفسها بجانب حسنية.

ومدت حسنية ذراعها ووضعتها فوق كتفى فايزة، وبدأت تغنى..

وعندما انتهت حسنية من الغناء، قامت الزميلات كل منهن الى فراشها، وقبلت حسنية كلا منهن على كل من وجنتيها، وضغطت بشفتيها قليلا وهى تقبل وجنتى فايزة..

ومر يومان..

وكانت فايزة قد خلعت ثيابها فى المساء وارتدت قميص النوم،

عندما فوجئت بحسنية تدخل الى الغرفة وهى مرتدية ثياب النوم ايضا..وقالت فى مرح:

– انا اتفقت مع سعدية انها تنام فى سريرى الليلة وانا انام فى سريرها.. نفسى اغير الخلق اللى انا قاعدة معاها.. عندك مانع يا فايزة؟!..

وقالت فايزة فى تردد وارتباك:

– لأ.. أبدا اتفضلى!..

وقالت حسنية:

– اهو نقعد نرغى ونتحدث لغاية ما يكبس علينا النوم!..

وجلست حسنية على فراش فايزة، دون ان تهتم بعائشة التى كانت راقدة فى فراشها، أو توجه اليها كلاما، وكأنها شىء لا يستحق الاهتمام ولا الكلام..

وجاءت فايزة وهى تحاول ان تخفى ضيقها وجلست على الفراش بجانب حسنية، ثم رفعت الوسادة واسندتها الى الحائط وأمالت رأسها عليها..

وقالت حسنية وهى تضع ساقيها تحتها:

– قوليلى بأه.. الراجل اللى بتحبيه شكله ايه؟

وضحكت فايزة قائلة:

– مالوش شكل..

– ازاى بأه؟!..

– ما باحبش!.

– وده معقول.. المدرسة كلها بتقول انك بتحبى واحد فى مصر!!..

- لا فى مصر ولا فى اسكندرية!.

- يعنى عايزة تقوليلى ان واحدة فى جمالك وشبابك، ما لقتش راجل تحبه؟!..

- اعمل ايه.. ماليش بخت!!..

- بالعكس.. ده لو كان الكلام ده صحيح يبقى ربنا بيحبك.. هى الستات بتاخد حاجه من الرجالة الا الندم والهم وتعب القلب.. أهو كل يوم قلب ينكسر ولا واحدة تنتحر من تحت رأس الرجالة!..

وأخذت حسنية تروى لفايزة قصصا عن كوارث الحب التى تعرفها..

ثم مدت يدها الى فتحة قميص النوم الذى ترتديه فايزة، وقالت وقد عادت الحشرجة الغريبة الى صوتها، وهى تحاول ان تضغط بأصابعها على الصدر العزيز الغالى:

- القميص ده حلو قوى يافايزة... جايباه منين؟..

ووضعت فايزة يدها على صدرها فى لهفة كأنها تحميه، وقالت فى صوت خائف مذعور، بينما تحاول ان تسيطر على نفسها:

- والله ما انا عارفه.. نينه اشترتهولى وبعتته من مصر!..

وسحبت حسنية يدها من فوق القيمص وعادت تتحدث كأنها لم تتعمد شيئا..

وبدأت فايزة تتثاءب او تفتعل التثاؤب.. وقالت حسنية:

- انتى باين كابس عليكى النوم.. ايه رأيك ما تيجى ننام مع بعض علشان نكمل حديثنا..

وقالت فايزة بسرعة وفى إصرار:

- أنا متعودة من يوم ما وعيت انى انام لوحدى.. لو حد نام جنبى ما نمشى للصبح.. وانا أصلى بكره عندى الحصة الأولى..

ونظرت اليها حسنية فى تمعن كأنها تبحث فى وجهها عن الطريق اليها، ثم قالت:

- طيب تصحبى على خير يا حبيبتى..

وبحكم عادتها، مدت حسنية وجهها وطبعت قبلة على وجنة فايزة، وقبل ان تصل الى الوجنة الثانية مرت على شفتيها، فأطبقت عليهما..

وأحست فايزة بأنفاسها تضيق وبأمعائها تنقلب..

أحست كأن الثعبان الأملس يمر فوق شفتيها ويكاد يلدغ لسانها..

وكتمت انفاسها.. واستسلمت برهة ثم دفعت عنها زميلتها فى رفق..

وما كادت حسنية توليها ظهرها حتى مسحت شفتيها بذراعها فى غيظ، وهى تسخط على الدنيا، وعلى الناس..

ولم تنم..

ظلت مفتحة العينين طوال الليل، كأنها تخاف أن يسرق احد شيئا منها.. من جسدها!!..

وقامت فايزة فى الصباح متعبة، منهكة، مصدعة الرأس، وألقت تحية الصباح على حسنية وعائشة فى «قرف»، ودخلت الى تلميذاتها، وبحثت بينهن عن الوجه الذى تحبه.. وجه تلميذتها

سميرة.. ولم تجده..

وازداد قرفها وسخطها على الدنيا.. كانت سميرة هى الانسان الوحيد الذى تحبه ويرفه عنها فى هذه المدينة.. وكانت دائما فى حاجة اليها، وهى اليوم أشد حاجة اليها من أى يوم آخر..

وغابت سميرة فى اليوم التالى..

وفى اليوم الذى يليه..

وعرفت فايزة انها مريضة وقررت ان تزورها فى بيتها لتطمئن عليها وتخفف من لهفتها عليها..

وطرقت الباب..

وفتح لها شاب.. بل رجل!!..

والتقت عيناها بعينيه.. وأحست كأن يدا امتدت وأخذت تطرق باب قلبها فى الحاح مهذب لذيذ..

وربطتهما برهة خاطفة من الصمت..

وقالت فايزة فى ارتباك وقد تصاعدت الدماء الى وجنتيها فى مظاهرة حمراء:

– أنا المعلمة بتاعة سميرة.. جاية اطمئن عليها!!..

وقال الشاب فى صوت مهذب:

– اتفضلى يا افندم.. اهلا وسهلا..

وخطت الى الداخل، وهى تتمنى فى كل خطوة ان تلتفت وراءها لتلتقى عيناها بعينيه مرة ثانية!..

وكان البيت واحدا من هذه البيوت الكبيرة القديمة التى تدل على عز قديم، والتى يختفى سكانها وراء المشربيات..

الباب الخارجي الخشبي الضخم يفتح عن حديقة صغيرة تتوسط الدار.. وكأنه يفتح عن الجنة.. ثم تصعد سلما ضيقا تآكلت درجاته، حتى تصل الى الدور العلوى، فلا يلفت نظرك منه شيء إلا كثرة حجراته، والا هذا الجو الرطب الهادئ المشبع برائحة البخور الذى يضمك فى حنان فترتاح اعصابك حتى لتكاد تغفو فيه.. وكان كل شيء فى البيت قديما.. الجدران والأثاث والسجاجيد حتى الخدم كانوا جميعا كهولا يبدو عليهم القدم..

وكان اهل البيت يبذلون جهدا كبيرا ليحتفظوا بكل هذه الاشياء القديمة على حالها.. كانت السجاجيد قد انسلت خيوطها، ولكنها رتقت رتوقا ظاهرة وفرشت بعناية فوق الحصر لتحفظها من الرطوبة... وكانت قطع الأثاث متآكلة وقماشها كالحا، ولكنها كانت نظيفة لامعة كأن يدا حريصة تمر عليها كل صباح ومساء..

وسارت فايزة داخل البيت وقلبها واجف كأنها تسير فعلا فى أبهاء الجنة..

وتقدمها الشاب ببضع خطوات، ثم فتح لها باب احدى الحجرات، وهو يقول فى صوته المهذب:

– اتفضلى.. حا ادى خبر لوالدتى حالا!!..

ورفعت فايزة عينيها اليه ثم خفضتهما سريعا، وقالت فى صوت خافت:

– متشكرة..

وجلست على مقعد «ارابسك» كتبت على ظهره آية قرآنية بحروف من صدف، وأخذت تجيل عينيها فى تردد كأنها تخشى

ان تجـرح الجـدران وقطع الأثاث بنظراتهـا.. وأحـسست بشـعـور عميق بالراحة والهدوء.. احسست كأنها كانت تجرى العمر كله لتصل الى هذا البيت وترتاح فيه..

وبخلت سيدة كبيرة السن ترتدى السواد..

كان وجهها ناصعا كأنه يشع نورا، وبين شفتيها ابتسامة طيبة كأنها ابتسامة قديسة، وكانت تطل من عينيها نظرات حانية كأنها تضم كل الناس الى قلبها..

وقالت فى فرحة خالصة:

– اهلا وسهلا.. خطوة عزيزة.. لازم حضرتك ست فايزة!

وقامت فايزة واقفة، ومدت يدها تصافحها وانحنت كأنها تريد ان تقبل اليد التى التقطتها..

وعادت السيدة الطيبة تقول:

– انا اول ما سى احمد ابنى قاللى انك المعلمة بتاعة سميرة قلت لازم تبقى ست فايزة.. ده انتى ما تعرفيش غلاوتك عندى اد ايه.. اقعدى يا حبيبتى.. آنستى وشرفتى..

وجلست فايزة قائلة:

– ازى سميرة دلوقت.. انا مشغولة عليها قوى؟..

– ما تنشغليش على غالى يا حبيتى.. دى يا حبة عينى مسكتها السخونية كام يوم وبقت تفرفر لما فرفطت قلبى عليها.. وطول ماهى بتخطرف ما بتجيبش الا اسمك وسيرتك..

– وازيها دلوقت؟..

– الحمد لله.. الف حمد.. نشرب القهوة ونقوم ندخل لها..

– والنبى دى وحشانى أوى..

وابتسمت الأم فى حنان وقالت:

– طيب نشرب القهوة بعدين.. اتفضلى..

وقامت الى الغرفة التى ترقد فيها سميرة، وما كادت سميرة تلمح معلمتها حتى قفزت من فراشها وتعلقت برقبة فايزة وهى تصيح:

– أبله فايزة!!..

واحتضنتها فايزة بين ذراعيها وضمتها الى صدرها فى لهفة، ثم اخذت تقبل وجهها وهى تكاد تبكى من فرط انفعالها:

– اخص عليكى يا سميرة.. كده برضه تشغلينى عليكى!!

وتشبثت سميرة بعنق فايزة، واخذت الأم تنظر اليهما فى حنان، وهى ترتل بعض الأدعية..

وجلست فايزة على فراش سميرة وجلست الأم على الأريكة وطال بينهما الحديث.. وكان حديثا ساذجا حلوا تمنت فايزة ألا ينقطع ابدا.. كانت كل كلمة فيه نظيفة طاهرة لا تخفى شيئا اكثر من معناها..

ووجدت فايزة نفسها بين طيات الحديث تقارن بين هذه الأم الطيبة وبين امها.. بين الوجه النظيف الخالى من الأصباغ وبين الوجه الذى تتجمع فوقه كل الألوان.. بين الحشمة والوقار، وبين الخلاعة والمجون.. بين سجادة الصلاة وبين زجاجة الويسكى.. بين الاعصاب الهادئة ومنطق الاستسلام للقدر وبين الاعصاب الثائرة ومنطق اقتناص الفرص!!..

وأحست فايزة كأن هاتفا يصرخ فى صدرها ندما على حظها من الحياة..

لماذا لم يكن لها مثل هذه الأم؟!!..
لماذا لم يكن لها مثل هذا البيت؟..
لماذا لم تكن سميرة اختها واحمد اخاها؟..

ولم تشعر فايزة بالحقد والغيرة، انما احست بالحب.. حب هذه العائلة الطيبة، وحب هذا البيت الهادىء ذى الجو الرطب المشبع برائحة البخور..

وقامت فايزة مستأذنة فى الانصراف..

وقالت الأم فى لهجتها الحلوة النصف ريفية:

- استنى يا حبيبتى لما اندهلك ام ابراهيم توصلك لغاية المدرسة ده احنا بقينا ليل والمغرب قرب يدن!!..

وقالت فايزة:

- متشكرة..

وقبلت فايزة سميرة وهى تعدها بأن تزورها غدا، ثم صافحت الأم وهى تكاد تنحنى وتشعر برغبة اكيدة فى تقبيل يدها كأنها تريد بتقبيلها أن تتبرك بها..

وقالت الأم وهى تمسح على رأس فايزة بيدها:

- حنستنا كى بكرة ياست فايزة.. ما تتأخريش علينا.. والنبى ده انا حبيتك زى بنتى سميرة.. مع السلامة.. ربنا يحميكى ويحمى شبابك ويجعلك فى كل خطوة سلامة..

وخرجت فايزة، ولحقت بها أم ابراهيم.. خادمة عجوز ترتدى الثياب الريفية وتغطى وجهها بطرحة سوداء..

وفى الحديقة الصغيرة التى تتوسط الدار التقت فايزة مرة ثانية بأحمد.. واستطاعت هذه المرة، وفى لمحة واحدة ان تعى

وجهه كله.. وجهه الأسمر القوى.. وعينيه الواسعتين المهذبتين، وأنفه الأشم، وشفتيه الرقيقتين، وقوامه الطويل العريض كأنه نبت من ارض خصبة بكر.. كان كل مافيه ينبض بالرجولة، وكانت كل لمحة من لمحاته تلح عليك بأن تثق به.. وتحتمى به..

وجمعتهما برهة أخرى من الصمت.

ثم قال أحمد وهو يرخى عنها عينيه ولا يمد يده لمصافحتها:

– آنستى وشرفتى!!..

وأجابت فايزة وهى تحاول أن تسيطر على خطواتها حتى لا تهتز ارتباكا:

– الله يآنسك.. تتمسى بالخير!!..

وقال احمد وكأن الخير قد ملأ قلبه بمجرد ان تمنته له فايزة:

– يسعد مساك..

وخرجت فايزة وهى تتساءل: هل تتمنى حقا ان يكون أحمد أخاها؟..

وأحست بدقات قلبها تكذبها!!..

ولم تلق صعوبة –وهى فى طريقها الى المدرسة– لتجر أم ابراهيم الى الحديث، فقد أخذت المرأة من تلقاء نفسها تحدثها عن البيت القديم.. عن رجل البيت الذى كان من اكبر تجار المدينة، ثم أصيب بنكبة فى تجارته لم يعمر بعدها سوى سنتين، وعندما مات كان ابنه الوحيد أحمد طالبا فى كلية التجارة، فقطع دراسته وتسلم ما بقى من تجارة والده، وأخذ يكافح حتى نهض بها بعض الشىء.. واستطاع بذلك ان يصون اسم والده وكرامة العائلة وان يعول امه وشقيقته، وان يبقى البيت الكبير مفتوحا

تنبض فيه الحياة..

وأحست فايزة بكل كلمة قالتها أم ابراهيم كأنها تعيش فيها.. أحست بالفرح والزهو وهى تحدثها عن العز القديم وأحست بالحزن واللوعة وهى تحدثها عن وفاة رجل البيت كأنها تحدثها عن وفاة أبيها، وأحست كأنها تتباهى بأحمد وهو يجاهد ويكافح فى سبيل الاحتفاظ بالبيت الكبير وباسم العائلة.

وعندما وصلت الى المدرسة كانت قد أصبحت فى دنيا جديدة.. دنيا جميلة.. دنيا لا ترى فيها سعدية وعائشة وحسنية وحضرة الناظرة وبقية الزميلات الا من بعيد.. وعندما أصبحت تراهن من بعيد، لم تعد ترى مساوئهن وعيوبهن وشهواتهن، فصفحت عنهن جميعا، أحبتهن كأطياف تحيط بها ولكنها لا تصل اليها..

ولاحظ كل من فى المدرسة ان تغيرا بدأ يطرأ على فايزة.. لاحظن ابتسامتها الدائمة التى تطلقها فى الهواء دون ان تخص بها احدا. ولاحظن عينيها وقد امتلأتا بالمرح والأمل ولاحظن الكلمات الحلوة التى تلمع دائما فى حديثها ولا حظن أنها احيانا تهيم بعيدا، وانها تكون فى أسعد اوقاتها عندما تكون هائمة..

حتى التلميذات لاحظن ان «أبلة فايزة» كأنها ازدادت جمالا.. وكأن على وجنتيها دائما حمرة خفيفة.. كأن الملائكة أشبعوها تقبيلا. وكانت عيناها تلتمعان دائما كأنها ترى شيئا لا يراه الناس، وكانت شفتاها منفرجتين دائما كأنهما فى انتظار قادم اليهما. وكانت قد اصبحت تحبهن جميعا، وتلقى دروسها كأنها تترنم بأغنية حبيبة.. وتصحح الكراريس كأنها تقرأ خطابات

غرام.. وقد لاحظت التلميذات ايضا ان «ابلة فايزة» تسرح كثيرا بذهنها الى أفق بعيد عنهن، وأنها احيانا واثناء «الحصة» تطل من النافذة على الحقول البعيدة كأنها تبحث عن شيء طال غيابه..

وكانت فايزة خلال تلك الأيام تتردد على تلميذتها سميرة حتى أصبحت تتردد عليها كل يوم.. واصبحت تدخل البيت وتخرج بلا كلفة وبلا حرج كأنها قد اصبحت أحد افراد العائلة..

وكانت تلتقى دائما بأحمد.

كانت تلتقى به فى حديقة الدار، كأنها على موعد معه وكأنه يتعمد انتظارها..

ثم اصبح يصعد الى الدور العلوى، ويدور بين الغرف الى ان تناديه والدته:

– ما تيجى تقعد معانا يا أحمد يا ابنى.. مافيش حد غريب دى ست فايزة المدرسة!!..

فكان أحمد يجلس بينهن مهذبا مؤدبا، لا تكاد تلتقى عيناه بعينى فايزة حتى يخفضهما وكأنه يكتم فى صدره آهة يخاف منها ان تنطلق..

ولم يعد يكتفى بتحيتها بالكلمة الحلوة.. أصبح يمد يده الى يدها فى لمسة سريعة، ثم أصبحت يده تستقر فوق يدها برهة، ثم اصبحت يده تضغط على يدها ضغطة خفيفة كأنه يبلغها شكوى يعجز عنها الكلام..

وكانت العائلة تملك قطعة أرض صغيرة لا تتجاوز الخمسة أفدنة تقع عند مدخل المدينة، وتزرع بالخضراوات.

ودعت الأم فايزة الى ان تصحب سميرة وأم ابراهيم الخادمة ليقضين يوم الجمعة فى قطعة الأرض هذه حتى تستفيد سميرة من الهواء الطلق بعد ان أصبحت فى دور النقاهة..

لم تذهب الأم معهن، فلم تكن تخرج من البيت الا نادرا..

وركب الثلاثة عربة حنطور وحملن معهن غداءهن، وذهبن الى هناك..

وانطلقت فايزة بين الحقول كأنها استعادت صباها وكأنها تبدأ الحياة من جديد.. كانت فى انطلاقها ومرحها كأنها فى عمر تلميذتها سميرة.. تضحك وتلعب الاستغماية، وتقفز فوق القنوات، وتغافل الفلاحين وتنزع الخضراوات من الأرض لتأكلها، وتتفق مع سميرة على معاكسة ام ابراهيم..

كانت سعيدة.. تكاد تطير من السعادة..

ولكن.. كان يخيل اليها ان سعادتها ليست فى انطلاقها بين الحقول، بل فى شىء تنتظره.. وكانت بين ضحكاتها ولهوها تتلفت الى الجسر تبحث بعينيها عن هذا الشىء..

ولم يظهر ما تبحث عنه..

وتناولت الغداء مع سميرة وأم ابراهيم.. دون ان يحدث جديد فى يومها..

وبدأت سعادتها تنكمش، وبدأ يجتاحها شعور كأنه خيبة الأمل.. وأحست بالشبع من اللهو واللعب، فرقدت على الأرض صامتة، وبدأت تهيم فى افكارها، وتلتمع بين شفتيها ابتسامة لا تلبث ان تخبو تحت ظل سحابة من القلق.. ثم تعود الابتسامة تلمع مرة اخرى كأنها شارة الأمل..

وجلست سميرة بجانبها وقالت بصوتها الحلو الرفيع:

- انتى حتنامى يا أبلة فايزة؟..

وقالت فايزة وهى تحتضن تلميذتها بابتسامتها:

- باستريح شوية. ما شبعتيش من الشقاوة؟!!..

- أنا عمرى ما حاشبع منك يا أبلة فايزة!!..

واحتضنتها فايزة الى صدرها، وقالت فى حنان:

- ربنا يخليكى ليه يا حبيبتى!!..

وقالت سميرة كأنها تريد ان تفعل أى شىء لتسعد فايزة:

- أحكيلك حكاية؟!..

- أحكى!!..

وأخذت سميرة تحكى قصة ساذجة من قصص الأطفال.. وتقلد خلالها صوت ام ابراهيم ولهجتها، وفايزة تضحك من كل قلبها..

وفجأة تلقت أذنا فايزة صوت عجلات تسير على الجسر.. فالتفتت فى عنف كأن يدا مجهولة أمسكت برأسها ولفتتها رغم ارادتها..

وما كادت ترى العربة ومن فيها حتى ارتفعت الدماء الى وجنتيها، وعادت تنظر الى سميرة دون ان تسمع من كلامها شيئا، ودون ان تعتدل فى رقدتها..

والتفتت سميرة بعد برهة ثم صاحت:

- أخويا احمد جه!!..

واعتدلت فايزة جالسة، وأخذت تنظر الى احمد وهو ينزل من العربة كأنه ينزل عن عرشه.. طويلا مهيبا جميلا..

ولوح لهما أحمد بيده، ثم سار فى خطى وئيدة الى الساقية ووقف هناك منتصبا كأنه اله، وكأنه يأمرهما بأن تأتيا اليه لتقدما فروض الولاء والخضوع..

وقامت سميرة تجرى نحو اخيها..

وقامت فايزة تسير فى خطوات مرتبكة وهى ترفع رأسها فى خطوة وتخفضه فى خطوة اخرى.

واحتضن احمد شقيقته وقبلها.. ثم مد يده الى فايزة.. وضغط على يدها فى رقة كأنه يخشى ان يعتصرها، وقال فى صوت هادىء تكاد اللهفة تمزق هدوءه:

– ازيك يا فايزة..

قالها ببساطة.. كأنه كبير.. كبير جدا.. وكأنها صغيرة.. صغيرة جدا..

وقالت فايزة فى صوت خجول كأنها فتاة ريفية تكشف وجهها أمام الرجال لأول مرة:

– الله يسلمك..

– اوعى تكون سميرة ضايقتك النهاردة.

– ابدا.. عمر سميرة ما تضايقنى، ده انا اتمنى أعيش معاها العمر كله!!

وقال أحمد وهو يحاول ان يخفى عواطفه بضحكته:

– اللى يعيش مع سميرة لازم يعيش معايا انا كمان!!..

والتفت إلى سميرة مستطردا حتى لا تلتقى عيناه بعينى فايزة:

– مش كده يا سميرة!!

وأجابت سميرة وهى تحجل على قدم واحدة بينهما:

- أنا حا عيش مع أبلة فايزة على طول..

وقال أحمد:

- وتسيبينى.. خسارة تربيتى فيكى!

وقالت سميرة:

- ماهو مافيش فى الداخلية رجالة!

وقال أحمد:

- افتحلك داخلية مخصوص.. نقعد فيها أنا وأنتى وفايزة وبنتك.. ايه رأيك؟..

وقالت سميرة:

- وأم ابراهيم..

وأجاب أحمد:

- وام ابراهيم كمان، علشان خاطرك..

ثم التفت الى فايزة واستطرد:

- موافقة يا فايزة؟!..

وكان قلب فايزة يهتز لكل كلمة تسمعها كأن أحمد يطلب يدها من سميرة..

وصمتت ولم تجب.. كما تصمت العروس لتعبر عن موافقتها..

وارتفع صوت ام ابراهيم من الحقل، وهى تنادى على سميرة لتساعدها فى جمع الأطباق وأوانى الطعام التى حملنها معهن..

وبقى احمد وفايزة وحدهما بجوار الساقية..

وقفز احمد وجلس على حافة الساقية وأخذ يهز قدميه فى الهواء، وهو ينظر الى الأرض كأنه يبحث فيها عن كلمات ضاعت

منه ولا يجدها لسانه..

ووقفت فايزة مسندة ظهرها الى عريش الساقية.. كل شيء فيها ينطق الا لسانها.. دماؤها تتكلم فوق وجنتيها وصدرها يتكلم بأنفاسها، وعيناها تتكلم بنظراتهما، واعصابها تتكلم بحركات يديها اللتين لا تستقران وتحتار اين تضعهما.

وقال أحمد وكلماته تتعثر فوق شفتيه:

- أنا با فكر فى حاجات كتير.. ومش لا قى لها حل..

وقالت فايزة فى صوت خفيض وصدرها يرتفع ليلتقط كلماته، ثم ينخفض كأنه لم يفهم شيئا:

- بتفكر فى ايه؟..

- يعنى مش عارفه؟..

وترددت قليلا ثم قالت كأنها لم تجد طريقا آخر غير الاصرار على تجاهل قصده:

- لأ.. صحيح بتفكر فى ايه؟..

وقال احمد فى صوت رقيق كأنه يعاتبها:

- بافكر فيكى.. بافكر فينا احنا الاتنين.. يا ترى حنفضل على طول كده.. نبص لبعض من بعيد لبعيد!!

وقالت فايزة ورأسها منكس الى الأرض بينما تعبث بقدمها فى التراب:

- مش فاهمة!!..

وقفز أحمد من فوق حافة الساقية فى عصبية، واقترب منها حتى وقف قبالتها وكاد صدره يلامس صدرها..

ورفعت رأسها وتعلقت عيناها بعينيه..

وأحست أنه سيقبلها.. أحست انه يجب ان يقبلها.. يجب.. يجب!!..

ولكنه لم يفعل.. وظل في وقفته وصدره يكاد يلامس صدرها.. ثم قال كأنه غاضب:

– أنا مش غريب عنك يا فايزة.. ما يصحش تعامليني المعاملة دى.. مش من حقك تعامليني زى الغريب.. انتى عارفه أنا عايز اقول ايه.. عارفه بالضبط اللى اقصده ايه..

وسقطت عينا فايزة عن عينيه، وقالت فى صوت لا يكاد يسمع:

– عارفه يا احمد..

وارتفعت ابتسامة على شفتى احمد كأن قلبه قد ارتاح، وقال كأنه يبحث لديها عن امله:

– وحانفضل لأمتى محرومين من بعض.. حنفضل لأمتى نخبى عن بعض ونضحك على بعض.. انا محتار يا فايزة.. مش عارف أعمل ايه.. مش عارف اقول ايه؟!..

وقالت فايزة وهى تتنهد:

– انا محتارة اكتر منك.. مش عارفه انا رايحة فين؟!..

وقال أحمد وهو يلتقط يدها ويضغط عليها:

– احنا الاتنين رايحين لبعض!!..

ورفعت اليه عينيها كأنها لا تصدق كل هذه السعادة..

وقال أحمد وهو يدير عينيه عنها:

– أنا ما أقدرش أستغنى عنك يا فايزة.. و.. و..

وارتفع صوت سميرة وهى تجرى نحوهما صائحة:

- أبلة فايزة.. أبلة فايزة.. شوفى مسكت ايه..

ورفعت أمام عينيها فراشة كبيرة متعددة الألوان..

وأخذت فايزة الفراشة منها فى رفق،، ووضعتها على كفها ثم نفختها فى الهواء، وهى تقول:

- حرام عليكى يا شيخة!!..

ونظرت الى سميرة، ولأول مرة تحس بالضيق وهى تنظر اليها.. وتحس ان الدنيا كانت تكون اجمل لو لم تظهر سميرة فى هذه الساعة!!..

وجاءت أم ابراهيم خلف سميرة، تحمل السلال التى كانت محملة بالطعام، وقد ملأتها بخضراوات الحقل لتعود بها الى البيت، وقالت فى لهجتها الريفية:

- انت اتأخرت علينا قوى يا سى أحمد.. زمان الست الكبيرة انشغلت علينا..

ولم يجب احمد..

وتحرك الجميع نحو العربة..

وركبت فايزة وسميرة وأم ابراهيم، ووقف أحمد يشير الى السائق ان يتحرك.

وقالت سميرة:

- مش حتروح معانا يا أخويا احمد.

وقال احمد فى هدوء ثائر كأنه يستنزف كل قواه ليخفى عواطفه:

- لأ.. أنا حاستنى شويه فى الغيط، وبعدين حتمشى لحد البيت..

ثم نظر الى فايزة قائلا:

- مع السلامة..

وردت فايزة تحيته بعينيها وأنفاسها.

وسارت العربة الحنطور وهى تهتز بعنف، وفايزة لا تحس إلا باهتزازات قلبها..

وتعجبت، لماذا لم يركب معهن احمد؟

ربما تعمد ألا يركب معها حتى لايثير الأقاويل فى المدينة عندما تمر بهم العربة فى شوارعها؟..

وارتاحت الى هذا التفسير، ولم تجد غيره.. ثم اخذت تستعيد كلماته، وتستمع الى صداها الذى لايزال يملأ اذنيها.. وتعلقت أنفاسها وهى تستعيد قوله: «احنا الاتنين رايحين لبعض.. أنا ما أقدرش أستغنى عنك يا فايزة»!

وأحست أنها ترتفع الى سماء يملؤها ضجيج محبب.. ضجيج العوالم ومن يقرعن الدفوف فى زفاف عروس..

وقفز ذهنها الى أمها.. أحست برغبة ملحة تدفعها اليها لتلقى نفسها فوق صدرها، وتروى لها كل شيء.. كأن السعادة قد فاضت بها حتى لم تعد تتحملها وحدها وتريد أمها لتعاونها على حملها..

ولكن ماذا تروى لها؟..

وابتسمت فايزة عندما وجدت نفسها قد انساقت فى احلامها الى هذا الحد.. ان شيئا لم يحدث حتى تبنى حولها كل هذه القصور..

ورغم ذلك فهى سعيدة.. سعيدة بأحلامها وسعيدة بالقصور

التى يبنيها خيالها.

ووصلت العربة الى بيت سميرة..

ونزلت سميرة وام ابراهيم، وبقيت فايزة فى العربة التى حملتها الى المدرسة.

ولم تع فايزة وجوه زميلاتها اللاتى التففن حولها يسألنها اين قضت يومها، انما حيت الجميع، وابتسمت للجميع.. ثم اسرعت الى غرفتها والقت بجسدها فوق الفراش فى دلال.

وعادت الى احلامها وقصور خيالها..

ولم تنم ليلتها رغم تعبها.. كأنها كانت تضن بالليل ان تضيعه فى النوم..

انما عاشت الليلة كلها معه..

ولأول مرة فى حياتها يشركها خيالها مع رجل فى فراش واحد..

وكانت تتعجب من نفسها وتبتسم.. انها لا تفكر فيه بعقلها فحسب، ولا تشعر به فى قلبها فحسب..

انما تفكر فيه بأعصابها.. وتشعر به بجسدها..

انها تشعر بكفيه فوق ذراعيها العاريتين تضغطان عليهما فى قسوة حتى لتكاد ترى بعين الوهم آثار اصابعه فوق لحمها!

وتحس بصدره يصهر صدرها، حتى لينتفض نهداها ويشبان، كأوراق الورد تتفتح فى الدفء!!

وتحس بشفتيه تتلمسان فى الظلام شفتيها ثم ترقدان بينهما..ثم تستيقظان فجأة وتعربدان حتى لا تعود تعرف اين شفتاها من شفتيه!!..

وتحس بعينيه تطوفان بثنايا جسدها، حتى لتجذب اللحاف فوقها كأنها تخفى جسدها عن عينيه، ثم تعود وترخى اللحاف كأنها تذكرت انه يملك كل شيء فيها!!..

انها تحس بأنوثتها..

وقد قضت عمرا طويلا لا تحس بها.. عمرا كانت تعيش فيه على مقاييس للفضيلة والشرف يضعها عقلها، ولا يحسب فيها حساب جسدها..

وتذكرت جسدها..

وتمنت لو قامت من فراشها، واضاءت النور، ووقفت أمام المرآة عارية لترى مدى جمال هذا الجسد..

كانت تعرف انها جميلة القوام.. هكذا يقول لها كل الناس.. ولكنها هى نفسها لم تكن تتذوق هذا الجمال، لم تكن تلمسه بحسها.. لم تكن تعيه.. كانت تنظر اليه كأنه شيء منها لا يثير فى نفسها زهوا ولا افتتانا.. لم تكن تلتفت الى استواء ساقيها، ولا الى نحول خصرها، ولا الى ثمرتى الرمان المعلقتين فوق صدرها.. كان كل ذلك كنزا يلوح امام الناس ويغفل عنه صاحبه. ولكنها اليوم تحس به..

أحست به عندما خطر لها ان تعطيه!

وقامت فى الصباح يبدو عليها التعب.. التعب من خيالها.. ولكنها كانت سعيدة، كأنها اكتشفت فى نفسها عالما جديدا طال بحثها عنه..

وقضت يومها المدرسى.. وكادت عقب انتهائه ان تذهب الى بيت سميرة، ولكنها عدلت فجأة..

يجب أن يبحث عنها..

يجب أن يخطو خطوة نحوها.. يجب أن يفتقدها..

انها لن تذهب اليه، الى ان يأتى اليها!

وقضت ليلا آخر مع خيالها..

ومر يوم.. ويومان.. وثلاثة ايام.. وأربعة..

ولم تأت الأيام بجديد..

وبدأت أعصابها تتلف..

وجاءتها زميلتها سعدية تقول لها:

– الدكتور عوض عايز يشوفك ضرورى.. بيقولك لازم تفوتى عليه فى الاجزخانة بكره فى فسحة الضهر!!..

وصرخت فايزة فى وجهها:

– أنا مش عايزة اسمع اسم الدكتور زفت ده.. فاهمه.. روحى قوليله لو جاب اسمى على لسانه مرة تانية حاسود عيشته..

ونظرت اليها سعدية فى دهشة، ثم أطلت من عينيها نظرة رثاء كأنها ترثى الى مستقبلها كله.. وانصرفت عنها..

وجاءتها تلميذتها ابنة عبدالمقصود بيه تحمل صندوقا بين يديها قائلة:

– ابويا بيسلم عليكى، وباعتلك شوية العسل دول.. وبيقولك انه عايزك تدينا دروس خصوصية فى البيت!!..

وصرخت فايزة فى وجهها:

– انا مـا بديش دروس خصوصية، ومـا بحبش العسل.. وقولى لأبوكى يتلم!

وجرت الفتاة من امامها فى هلع..

وجاءت حسنية ذات مساء وجلست بجانبها، وربتت على فخذيها قائلة:

– انتى مالك يا فايزة اليومين دول.. مش عاجبانى!!..

وقفزت فايزة من جانبها مبتعدة وهى تقول فى لهجة غاضبة حازمة:

– اعملى معروف سيبينى يا حسنية. انا متضايقة واللى يقربلى حا نفجر فى وشه!!..

ونظرت اليها حسنية فى استخفاف وتركتها لحالها..

كانت فايزة تعلم انها بدأت تفقد أعصابها..

كانت تعلم انها لو انتظرت اياما أخرى، ستجن...

لماذا لم يتصل بها؟!..

لماذا لم يرسل لها ام ابراهيم لتدعوها الى بيته؟!..

لماذا لم يجد اى حجة ليصل اليها؟..

وخرجت فى العصر بعد انتهاء الدراسة تسير فى شوارع البلدة.. ولم يكف النسيم الرطب المشبع برائحة الزرع ليهدىء من افكارها، او ليرخى اعصابها المشدودة..

وسارت قليلا..

ثم اتجهت الى ميدان المحطة، وقفزت الى عربة حنطور، وقالت دون ان تنظر الى السائق:

– سوق يا أوسطى..

والتفت السائق اليها وقال فى تعجب:

– على فين يا ست؟..

وقالت فى عصبية:

- سوق على الجسر..

ولم تكد العربة تتحرك قليلا حتى سمعت صوت اجراس دراجة تدق بجانبها والتفتت فوجدت الصبى الصغير محمد.

وابتسم لها محمد ابتسامة ضعيفة وهو ينظر اليها بعينين مبتهلتين..

وابتسمت له كأنها ترضيه لينصرف عنها..

وظل محمد يقود دراجته بجانب العربة وهو يقول لها:

- انتى مخصمانى..

- لأ.. ابدا.. ما دام انت ولد كويس اخاصمك ليه..

- امال مابتكلمنيش ليه؟

- بس مشغولة يا محمد..

- ورايحة فين دلوقت؟..

- رايحة مشوار.. ارجع انت بأه!!..

- أجى اوصلك؟..

- لأ.. متشكرة.. ارجع انته..

وأسرع محمد بدراجته قليلا حتى سبق العربة، ثم عاد اليها واخذ يطوف حولها، ويتبعها.. ونادته فايزة بصوت حازم:

- محمد.. اذا ما رجعتش حا خاصمك بصحيح.. مش حا كلمك عمرى!!..

وعاد محمد دون ان يحييها.. او هكذا ظنت بعد ان اختفى عن عينيها..

وسارت العربة فى طريق الجسر، ثم أوقفتها فايزة بعد قليل ونقدت السائق اجره، وسارت على قدميها..

كانت تعلم الى اين ذاهبة، ولكنها لم تكن تريد ان تصارح نفسها..

كانت تخدع نفسها بأنها تقوم بمجرد نزهة لشم الهواء وإراحة اعصابها..

ثم وجدت نفسها تنحرف عن طريق الجسر، وتنزل الى احد الحقول، ثم تتجه الى ساقية، وتستند بظهرها الى عريشها واقفة على قدميها، وانفاسها تتلاحق..

ثم .. أحست بدموعها تسيل فوق وجنتيها فى صمت..

ثم انهمرت الدموع حتى لم تعد وجنتاها تتحملانها، فانكفأت على حافة الساقية، وهى لا تستطيع ان تكتم نشيجها..

وسمعت صوتا من ورائها كأنه نداء السماء:

– فايزة؟.. الحمد لله.. انا كنت متأكد انك حتيجى هنا يوم..

ورفعت رأسها ورأته..

وارتفع نشيجها..

وفتح ذراعيه..

وسقطت بينهما فى استسلام..

وقال أحمد وهو يضمها الى صدره فى حنان، ويمسح بيده على شعرها:

– من يوم ما كنا هنا.. وأنا باجى كل يوم أستناكى.. ياما الساقية دى سمعت منى كلام، وياما حكيت لها عنك وعن أحلامى.. كنت عارف اننا حنتقابل هنا مرة ثانية.. وثالثة ورابعة.. وحنفضل طول عمرنا نتقابل هنا..

ورفعت اليه العينين المخضلتين بالدموع، وقالت فى همس:

- صحيح يا أحمد.. صحيح كنت بتستناني كل يوم؟!!

ولم يجب..

انما وجدت شفتيها بين شفتيه كأنه يكتب جوابه فوقهما.

واستسلمت لقبلته..

وأعطته الشفاه البكر الطاهرة..

وأرادت في هذه الساعة ان تحقق كل خيالها.. ان تعيش في قبلته كما عاشت خلال ليالي الأوهام..

ولكن شيئا كان يجذبها عنه..

شيئا لا يريد ان يغفو، ولا يريد ان يتركها له، ويحرمها من ان تندمج في قبلته حتى تنسى كل ما حولها.. تنسى الليالي الطويلة التي قضتها في انتظاره، وتنسى العمر الطويل الذي قضته محرومة من نفسها، تكافح الذئاب من حولها..

انه عقلها..

عقلها الذي ينشط ويتحرك بأسرع من نشاط وتحرك انوثتها..

عقلها الذي لا يريد ان يستسلم، انما يظل واعيا يسائل نفسه: انه يقبلني الآن.. انه يضمني الى صدره.. ان يديه تتحركان.. ماذا سيفعل بعد ذلك؟!!.

اسكت يا عقل..

دعني في هذه اللحظة..

ولكن مستحيل.. ان عقلها لا يريد ان يغفو.. لا يريد ان يتركها.. فهذه هي طبيعتها منذ بدأت قصتها مع الحياة..

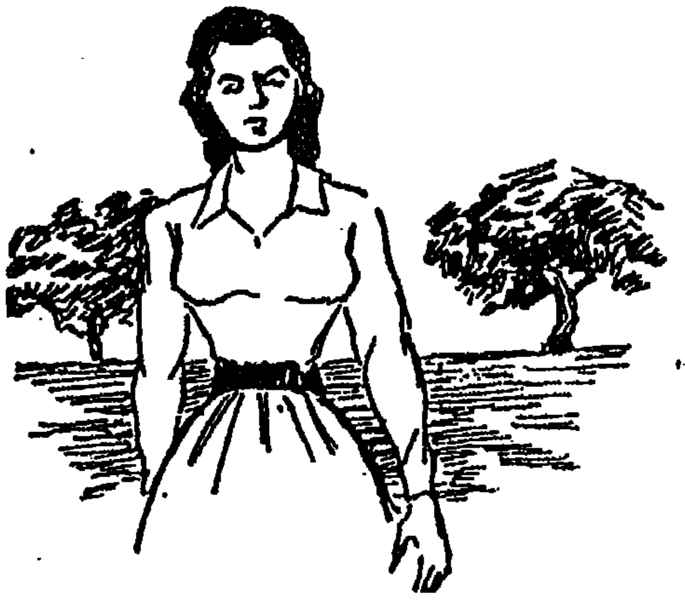

١١

ولم يعد لفايزة حياة إلا أن تلتقى بأحمد أو تنتظر لقاءه.. كانا يلتقيان دائما عند الساقية..

ولم يأخذ منها فى كل لقاء اكثر من القبلات..

كان أحيانا يضمها بقسوة حتى يكاد يعصرها فى صدره، وكانت أنفاسه تتهدج أحيانا حتى تحس بها كلفح النار، وكانت الحياة تجرى فى قبلاته أحيانا بعنف كأنها الشلال.. حتى لا تستطيع ان تجرى معها..

ولكنه كان دائما يقف عند حد معين..

كانت دائما تستسلم له.. كان فى صدرها شعور خفى يدفعها الى الوثوق به، وكانت تحس بأنه يخاف عليها اكثر مما تخاف

على نفسها..

وكانت تستسلم اكثر لحديثه.. عندما يشكو لها متاعبه، وعندما يضع امامها آماله في الحياة، آماله في ان يستكمل دراسته حتى ينال بكالوريوس التجارة، ثم يوسع من تجارته وينزح الى القاهرة، ويؤسس شركة، ويعيد مجد ابيه ازهى مما كان ..

وكانت تحس بنفسها في كل كلمة يقولها.. تحس بمتاعبه كأنها متاعبها، وتحس بآماله كأنها آمالها.. وتتخيل نفسها بجانبه في بيتها.. هي جالسة تطرز، وهو جالس يستذكر دروسه استعدادا لامتحان البكالوريوس!!

ولم يعد يهمها شيء من أمر المدرسة. لا المدرسات.. ولا التلميذات.. اصبحن لهن قيمة في حياتها.. لم تكن تركز عينيها إلا على تلميذتها سميرة، لأنها كانت ترى فيها وجه اخيها احمد.. وكانت احيانا تذهب مع سميرة بعد انتهاء الدراسة الى بيتها، فتلتقي بأحمد كالعادة في الحديقة الصغيرة التي تتوسط الدار فتشيع على وجه كل منهما ابتسامة كأنها النور، ويتبادلان تحية قصيرة تحمل سرها الأكبر. ثم تصعد الى الدور العلوي وتجلس مع والدته..

وكانت تحس بنفسها قريبة جدا من الأم الطيبة.. تحس كأنها أمها، أو كأنها حماتها.. وتجيل الطرف احيانا في وجهها كأنها تسألها: هل أبلغها أحمد شيئا؟... هل أعلنها برغبته في الزواج منها؟!!..

فاذا قالت لها الأم كلمة حلوة، فسرتها أكثر من تفسير، ينتهي دائما الى تفسير واحد، هو أن الأم تلمح الى زواجها من ابنها!!..

واذا استقبلتها مهللة قائلة: «أهلا بالست فايزة» سمعتها فايزة كأنها تقول لها: «أهلا بمرأة ابنى»!!..

ولم يكن هناك ما يضايقها فى هذه الأيام الا الصبى محمد.

لم تكن قد تنبهت الى الاقاويل التى تدور فى المدينة عنها، ولم تكن قد التقطت شيئا مما تطرقع به السنة زميلاتها.. كانت بعيدة عن كل ذلك، تعيش فى دنيا خاصة بها لا يشاركها فيها الا حبيبها أحمد..

ولكن الصبى محمد كان دائما يحاول ان يقحم نفسه فى دنياها الخاصة..

كان يتبعها كلما خرجت من المدرسة..

وكان يلحقها بدراجته كلما ركبت عربة حنطور واتجهت الى الجسر لملاقاة أحمد عند الساقية.

وكانت تجد صعوبة كبيرة فى التخلص منه واقناعه بالعدول عن ملاحقتها، حتى كانت تضطر الى الاختباء منه واتخاذ طرق ملتوية وشوارع جانبية كلما ذهبت الى موعد حبها..

ولم تكن تدرى لماذاتخاف هذا الصبى ولماذا تحسب له كل هذا الحساب؟..

ربما ظنت انه وحده الذى يستطيع ان يكشف سرها، ويفضح حبها امام الناس.. وقد كانت ضنينة بهذا السر، وهذا الحب..

وافلحت اياما متتالية فى الهروب من الصبى محمد كلما خرجت من المدرسة..

الى ان كان يوم..

وكانت قد اتخذت طريقا جانبيا يوصلها الى المحطة، حيث

تعـودت ان تركب من هناك عـربة حنطور تحـملهـا الى سـاقـيـة غرامها..

وفجأة وجدته أمامها..

لم تكن مـعـه دراجـتـه.. بل كـان يسـيـر فى هزال حـتى يكاد جسده يقع من فوق خطاه.. وكان وجهه شديد الاصفرار، وعيناه غـائرتين فى ظلال سـوداء داكنة تحيط بهما، وشـفتاه مرتعشتين جـافتين حـتى تكونت فـوقـهـمـا قـشـرة من الجلد الابيض الرقـيق يمزقها بين الحين والحين بأسنانه..

ووقف قـبـالتـهـا، ونظر اليـهـا نظرة حـملت من العذاب مـايكفى حياة رجل، لا حياة صبى فى الثانية عشرة من عمره..

وخاطبته فايزة مشفقة:

- مالك يا محمد.. انت عيان؟!!..

وأطال نظرته اليها، وتجاهل سؤالها، وقال وشفتاه ترتعشان بكلماته:

- انا عارف كل حاجه..

وردت فايزة دهشة:

- عارف ايه؟..

وسكت محمد، وعادت فايزة تكرر سؤالها:

- مالك يا محمد.. اتكلم.. عارف ايه؟..

قال ودموع باهتة ضعيفة تنحدر فوق خديه.. كأنها آخر ما بقى له من دموع:

- عارف ليه ما بتكلمينيش زى الأول.. عارف ليه ما بقتيش تطيقى تشوفينى.. عارف كل حاجة..

وقالت فايزة وكأنها تحاول ان تنهى الحديث فى أقصر وقت..

- أنا مش قلتلك انى مشغولة اليومين دول فى امتحان نصف السنة.. علشان كده ما بخرجش وما بشوفكش..

قال فى حدة من بين دموعه وكأنه ينشج:

- مشغولة.. انما مش فى الامتحان مشغولة بأحمد افندى اخو سميرة!!..

قالت وكأنه لطم قلبها:

- بتقول ايه؟..

- أيوه مشغولة بيه.. شفتكم بعنيه.. شفته بيبوسك عند الساقية!!..

ورفعت فايزة يدها امام وجهه كأنها تهم بصفعه.. وصرخت:

- انت مالك انت. ايش دخلك فى شئونى.. أنا مش عايزه أشوفك قدام وشى تانى.. سامع.. ياللا امشى بلا لعب عيال!!..

وانحرفت عنه وسارت فى خطوات عصبية وهى تسمعه يقول كأنه يودع الحياة:

- ياخاينة!!..

ثم ارتفع صوت نشيجه!!..

●

واستيقظت فايزة فى اليوم التالى، ولم تكد تتم ارتداء ثيابها، وقبل ان تتجمع التلميذات لدخول الفصول، جاءتها خادمة المدرسة تجرى فى جزع وقالت بين أنفاسها المتلاحقة:

- الست الناظرة عايزاك حالا ياست فايزة!!..

وألقت فايزة المشط من يدها وخرجت وراء الخادمة وهى

تسألها:

- خير على الصبح.. يا ترى عايزانى ليه؟..

وأجابت الخادمة:

- أنا عارفه يا ستى.. دى يظهر حكاية كبيرة قوى .. الدنيا مقلوبة فى اودة الست الناظرة!!..

وأسرعت فايزة الخطى..

ولم تكد تفتح باب حجرة الناظرة وتدخل حتى قالت لها الناظرة فى صوت صارم:

- ايه اللى عملتيه ده ياست فايزة؟..

ولم تكد فايزة ترفع عينيها تساؤلا حتى لمحت رجلا في الغرفة يهجم عليها ويصفعها على وجهها وهو يصيح كالمجنون:

- انتى.. انتى.. انتى فايزة.. يا مجرمة.. يا مجرمة.. يا مجرمة..

وتمايلت فايزة تحت وقع الصفعة حتى استندت بذراعها على الحائط، وأطلت من عينيها نظرة هلع، ودهشة، وتساؤل.. كأنها لا تدرى شيئا.. ولا تدرى اى مصيبة حلت بها..

وخرجت الناظرة من وراء مكتبها بسرعة، ووقفت بين الرجل وفايزة، ثم اخذت تبعده عنها قائلة:

- هدى أعصابك يا عبدالعظيم بيه..

واستمر الرجل فى صراخه وهو يلوح بيديه فى الهواء:

- يا مجرمة.. يا سافلة.. حرام عليكى يا شيخه.. حرام عليكى ده عيل عنده اتناشر سنة.. حتى العيال ما بترحمهمش.. انتم ايه؟.. حيوانات.. مصاصين دم.. جايبينكم منين.. لمينكم من اى

سكك علشان تفسدوا بنات الناس وأولادهم..

وكانت فايزة تضع يدها مكان الصفعة، وعيناها لا تزالان تحملان نظرات الدهشة وتنعكس فيهما المفاجأة..

وتماسكت قليلا، وقالت فى صوت كالصراخ الضعيف:

- أنا عايزه أعرف ايه الحكاية.. إزاى الراجل المجنون ده يضربنى!!

وصرخ الرجل يقاطعها:

- أضربك.. ده انا لازم اقتلك.. لازم أشرب من دمك.. لك عين تتكلمى يا مجرمة..

واحتاجت الناظرة الى كل قواها لتبعده عن فايزة، وتدفع به الى المقعد، وهى تقول:

- هدى أعصابك أمال يا عبد العظيم بيه.. خلينا نبحث المسألة بهدوء..

وقال الرجل وهو يخور كالثور الذبيح:

- هدوء.. ودى مسألة تستحمل هدوء..

وقالت الناظرة ملتفتة الى فايزة:

- انتى تعرفى ولد صغير اسمه محمد عبدالعظيم..

وقالت فايزة وأطرافها كلها ترتعش كأنها قد دبت فيها الحمى او كأنها تقاوم فى عنف حتى تفهم الموقف قبل ان تنهار مغشيا عليها، أو تثور على الرجل الذى صفعها:

- أيوه.. ماله؟!..

والتقطت الناظرة ورقة من فوق مكتبها وأعطتها لفايزة فى حدة وكأنها تدسها فى عينيها:

- خدى اقرى دى..

وقرأت فايزة:

«والدى العزيز.............»

«أنا انتحرت لأنى أحب فايزة المدرسة بمدرسة البنات، وقد خانتنى وأحبت احمد افندى شهدى اخو سميرة»..

«وداعا يا ولدى.. سألحق بأمى..»..

وصرخت فايزة فى هلع وهى لا تزال تنظر فى الخطاب الساذج بعينين مفتوحتين:

- مات؟..

وقال الرجل وأنفاسه تتلاحق كأنه يفيق من جنونه:

- طبعا كنتى عايزاه يموت علشان يدارى فضيحتك بموته!!..

وقالت الناظرة:

- شرب صبغة يود. وانقذوه فى آخر لحظة..

وقالت فايزة وهى تستند بيدها على مقعد حتى لا تقع على الأرض:

- الحمد لله.. الحمد لله..

وقالت الناظرة فى صوت صارم:

- انا بعت اشارة مستعجلة لادارة التحقيقات علشان يتولوا التحقيق..

وصمتت فايزة قليلا ثم شدت عودها والتمعت عيناها كأنها قبلت التحدى، وقالت فى هدوء:

- تحقيق بتاع ايه.. أنا ذنبى ايه فى ده كله!!..

وقال الرجل وكأن نوبة الجنون بدأت تعاوده من جديد:

- أنا اللى مش قادر أفهمه.. كنتى بتعملى ايه بعيل عنده اتناشر سنة.. هوه من قلة الرجالة فى البلد.. يا عالم.. دى حاجة تجنن..

وقالت فايزة فى حزم:

- من فضلك اتكلم فى أدب.. انا سكتلك لأنى مقدرة حالتك، ومحترمة حزنك على ابنك.. انما بعد كده مش حسكتلك..

وصرخ الرجل:

- ادب يا قليلة الادب.. ادب يا بتاعة العيال.. انتى لك عين تتكلمى..

وقفز من مقعده، وقفزت وراءه الناظرة تحول بينه وبين فايزة للمرة الثانية.

ووقفت فايزة صامدة لا تتحرك وبين جنبيها ثورة مكبوتة تصبغ وجهها بلون أحمر غامق، وتطل من عينيها فى نظرات شاردة تكاد تكون ساخرة..

وتكلمت الناظرة فى صوت كأنه العواء الأجوف:

- احنا عايزين نعرف الحكاية بالتفصيل.. ارجوك تهدى اعصابك يا عبدالعظيم بيه..

وقالت فايزة:

- ما فيش حكاية ولا حاجة.. ده ولد كنت بأعطف عليه.. كان بييجى يقعد معانا انا وسعدية لما نطلع نتفسح على المصرف واذا كان قدر العطف ده تقدير تانى فلأنه ولد محروم من الحنان ماتت امه وما لقاش حد يعوضه عنها.. كان عنده عقد نفسية هيه اللى دفعته لمحاولة الانتحار..

وقال الرجل وهو ينظر اليها كأنه يذبحها بعينيه:

– بأه ده كلام معقول.. انتى مالك وماله اذا كان محروم ولا مش محروم.. مين سمح لك تعوضيه عن امه.. ولما انتى بتفهمى كده فى العقد النفسية سبتيه ليه لغاية ما العطف اللى بتتكرمى بيه عليه يدفعه للانتحار.. و..

وقاطعته فايزة فى صوت جدى:

– انا فعلا حاولت فى الآخر انى ابعده عنى.. لأنى لاحظت انه تعلق بيه اكثر من اللازم..

وقال الرجل متهكما:

– ده طبعا بعد ما عرفت احمد..

وقالت فايزة فى حدة:

– من فضلك.. أنا ما اسمحلكش.. انته مالكش حق تحقق معايا..

وقالت الناظرة وعلى شفتيها ابتسامة خبيثة:

– وايه حكاية أحمد افندى شهدى؟..

وسكتت فايزة قليلا، وضعف صوتها كأنها تنهار.. وقالت:

– مالوش حكاية.. ده أخو تلميذة عندى كنت باروح ازورها فى بيتها..

واتسعت الابتسامة الخبيثة.. وقالت الناظرة:

– بس كده؟!!..

وسكتت فايزة كأنها لم تعد تقوى على الكذب..

وعادت الناظرة تقول:

– انتى فاكرة انى نايمه على ودانى ولا ايه.. تأكدى ان كل

حاجة بتعملها اى واحدة فيكم بتوصللى أول بأول.. واللى وصلنى عنك كتير.. كتير جدا..

وقالت فايزة وهى تحاول ان تقاوم:

– أنا معملتش حاجة.. وأنا مستعدة للتحقيق!!.

وقالت الناظرة فى سخرية:

– طيب اتفضلى شوفى شغلك.. لغاية ما يبتدى التحقيق..

واستدارت فايزة وسارت فى خطى متعثرة نحو الباب.. وما كادت تفتحه حتى وجدت أمامها عبدالمقصود «بيه» عمدة كفر شرف داخلا بكرشه الضخم..

ونظر اليها عبدالمقصود «بيه» نظرة شامتة، ولم يحييها، انما زاحمها بكرشه، ودخل وهو يصيح:

– ايه الحكاية يا حضرة الناظرة.. الواحد ما بقاش قادر يطمن على بناته فى المدرسة دى.. ايه الفضايح والجُرَس اللى الواحد بيسمعها دى.. و..

وأسرعت فايزة بالخروج، وصفقت الباب وراءها بعنف كأنها تسد به أذنيها..

وسارت نحو حجرة الدراسة، وكل من يصادفها فى طريقها يصمت فى وجهها كأنه يقرأ على روحها الشهادتين..

وخيل اليها ان تلميذاتها يتجهمن فى وجهها، وأنهن يوجهن اليها نظرات فيها اتهام وفيها خوف..

ولم تأبه بتلميذاتها ولا بنظراتهن..

وكتبت لهن سؤالا وأمرتهن فى صوت جاف ان تكتب كل منهن جوابه فى كراستها.. ثم جلست على مقعدها وتاهت فى

دوامة من الفكر لا تستطيع ان تخرج منها الى شاطىء..

كانت تحاول ان تحصر تفكيرها فى اعداد اقوالها التى تدلى بها فى التحقيق.. فتجد نفسها تفكر فى أحمد، وفى امه.. كأنها تدلى باقوالها امامهما..

وتحاول ان تحصر تفكيرها فى أحمد.. فتجد نفسها تفكر فى الصبى الصغير محمد..

وتحاول ان تحصر تفكيرها فى محمد.. فتجد نفسها تفكر فى المجتمع كله.. فى الناس.. فى الدنيا التى ظلمتها! لماذا لم يحقق مع زميلتها سعدية التى تدخن الحشيش وتقبل كل شىء.. لماذا لم يحقق مع حسنية وهى تنثر مرضها بين زميلاتها.. لماذا لم يحقق مع كل زميلاتها، ولكل منهن رجل.. لماذا يحقق معها هى وحدها.. لماذا؟..

ثم تجد نفسها تفكر فى امها وتحن اليها.. لماذا لم تسر فى طريقها؟.. لماذا تحدتها وحاولت ان تصنع لنفسها حياة اخرى.. حياة تنسجها من مثلها العليا وتبتعد بها عن الناس؟

ثم ينتهى تفكيرها دائما الى احمد..

ماذا يكون موقفه منها؟..

انها ستستقيل من وظيفتها، وتتزوجه وتعيش له.. لا تريد ان ترى من الناس احدا غيره، ولا تريد من الدنيا الا ان تكون بجانبه، تطبخ له وتعد له ثيابه وتشاركه مستقبله..

وأفاقت من دوامة الفكر على صوت جرس المدرسة..

وجمعت كراريس التلميذات دون ان تنظر الى وجوههن..

واستمرت فى عملها تنتقل من حصة لحصة، وبين الحصص

تتجمع حولها زميلاتها وكل منهن تدعى اللهفة عليها، ويسألنها عن الحادث فتجيب اجابات مبتورة مشتتة، لا يربطها خيط واحد كأن عقلها لم يعد يحتمل التفكير فى خط مستقيم..

ولم تحتمل كثيرا..

ما كاد النهار ينتصف حتى أحست انها لم تعد تستطيع ان تقف على قدميها.. ولم تعد تستطيع ان تكبت صراخ أعصابها.. ولم تعد تستطيع ان تحتمل نظرات من حولها ونفاقهن..

وصعدت الى حجرتها فى خطوات مهرولة والدنيا تظلم امام عينيها حتى لم تعد ترى طريقها..

وسارت تترنح حتى القت نفسها على فراشها..

وبكت..

بكت بحرقة كأنها تبكى عمرها كله..

واستبدت بها دموعها حتى لم تعد تطيقها، فأخذت تشد شعرها بكلتا يديها وتهمهم بكلمات خافتة لا تقصد لها معنى ولكنها تريح صدرها..

ثم بدأت تستريح..

وبدأت دموعها تضعف وتسيل من بين جفونها متباعدة، كعصير السحب عقب المطر الغزير..

ودخلت زميلتها سعدية، وجلست بجانبها فوق الفراش، وأخذت تربت على ظهرها وهى تقول فى صوت ناعم تحاول ان تتسلل به اليها:

– خلاص بأه يا فايزة.. انتى حتموتى نفسك.. كل حاجه لها حل!..

وقالت فايزة كأنها تتنهد:

- أنا مابدورش على حل.. أنا بادور على طريقة تريحنى من الدنيا واللى فيها..

وقالت سعدية:

- ما تقوليش الكلام ده يا فايزة..

- أنا خلاص تعبت .. تعبت من العيشة.. ما بقتش أقدر أستحمل!!..

- والنبى سيبك من الكلام ده.. ربنا يخليكى لشبابك وجمالك.. تعالى بس نتكلم جد وندور على حل.. والمسألة على كل حال بسيطة، ياما مدرسات وقعوا فى مصايب العن من دى طلعوا منها زى الشعرة من العجين..

- أنا ما وقعتش فى حاجة..

- انتى حتقوليلى يافايزة، ما أنا عارفه يا حبيبتى.. انما برضه المسألة خطيرة. ولد انتحر وواحد تانى بيتهموكى بيه.. مش بسيطة!!..

- وأنا ذنبى ايه اذا كان انتحر.. ما انتى عارفاه وكنتى معايا.. وذنبى ايه اذا كان الناس ألسنتهم طويلة وبيقولوا على كلام..

- يا ستى ماحدش قال ان لك ذنب.. انما احنا بقينا فى تحقيق.. يا ترى حتسيبيهم يعملوا اللى يعملوه فى الوزارة.. هوه البرىء مش بيدور على حل علشان المحكمة تحكم ببراءته.

- والحل ايه؟..

وسكتت سعدية قليلا كأنها تستعد لدخول ميدان جديد،

وقالت:

– الحل الوحيد.. انك تدورى لنفسك على ضهر..

– قصدك ايه؟..

– قصدى تشوفى حد يقف جنبك ويقدر يسندك..

ولوت فايزة شفتيها احتقارا واعتدلت جالسة فى فراشها وقالت فى استخفاف:

– زى مين؟..

ولم تلحظ سعدية احتقار فايزة وقالت:

– والنبى خايفة أقولك ترجعى تزعلى منى. انما أنا ما بدورش إلا على مصلحتك!!..

– مين بس.. قولى!!..

– يعنى مش عارفه!!..

ورفعت فايزة عينيها كأنها تخمن ثم قالت:

– آه.. قصدك الدكتور عوض صاحب الأجزخانة!..

وقاطعتها سعدية فى حماس:

– أهو مافيش الا هو.. الراجل ده هو اللى ماسك البلد كلها بين ايديه وبيلعبها بصوابعه.. وطاوى الموظفين كلهم تحت باطه.. مافيش مفتش فى الوزارة بيجى الا ويقعد عنده، ومافيش واحد له كلمة الا وهوه صاحبه.. وست الناظرة ما تقدرش ترفضله طلب.. هوه مافيش غيره اللى يقدر ينقذك من الورطة دى.

وقالت فايزة وهى لا تزال تستخف بزميلتها:

– كده !!..

واستطردت سعدية.. وهى لا تزال فى حماسها:

- كده ونص.. وبيني وبينك عيشة وقعت السنة اللى فاتت فى مصيبة وهوه اللى طلعها منها، ما سابشى فى الدوسيه بتاعها نقطة واحدة سوده..

وقالت فايزة تقاطعها:

- ده انا متهيألى ان عيشه كل أيامها مصايب وعيشتها كلها سوده..

وقالت سعدية كأنها تطرد موضوع عيشة من الحديث:

- هيه اللى مغفله.. غاوية هم.. انا من رأيى نقوم دلوقت نروح الأجزخانة وتحكى للدكتور عوض على كل حاجه، وهو يتصرف..

- كده لله؟!!..

وقالت سعدية وهى تحاول ان تبتسم:

- والنبى ده بيعزك قوى وما بيبطلش سؤال عليكى.. ويعنى حياخد منك ايه.. ما دمتى عارفه الدنيا ماشيه إزاى!!

وانفجرت فايزة فى وجهها وكأنها لم تعد تحتمل:

- انا لو كنت ماشيه زى الدنيا ماهى ماشيه ماكانش حصللى كل ده.. ولو كانت حياتى فى ايد الدكتور زفت ده مش حاروحله.. فاهمه.. انا ما اخرجش من مصيبة علشان اقع فى مصيبة ادهى وأمر.. وما أنقذش نفسى من شوية اشاعات علشان اعيش فى الطين اللى انت عايشه فيه.. ابعدى عنى من فضلك.. الله الغنى عنك وعن نصايحك المهببة..

ونظرت اليها سعدية كأنها تهم بأن تمد يديها الى عنقها، ثم قامت كأنها عود القصب الذى عصف به الهواء، وقالت:

- الحق على.. انا بنت ستين كلب اللى بحاول اخدم واحدة

زيك.. خليكى تندبى على بوزك.. وتستاهلى كل اللى يجرالك!.

وخرجت سعدية..

وظنت فايزة ان تحديها لسعدية قد أعاد لها قوتها.. قوة التحدى وقوة الصمود، فحاولت ان تقوم من فراشها..

وما كادت تقف على قدميها حتى أحست برأسها يدور.. والدنايا تظلم امام عينيها.. فسقطت مرة ثانية فوق الفراش..

واعتذرت عن تكملة اليوم الدراسى، وبقيت راقدة، تغفو من شدة التعب كأنها قد أصابها اغماء، وتفتح عينيها فتتمنى ان يغمى عليها مرة ثانية..

وبقيت حتى صباح اليوم التالى لا تستطيع ان تحصر تفكيرها فى موضوع واحد، ولا تستطيع ان تسيطر على نفسها لتعد الكلام الذى تلقيه امام المحقق..

وكانت زميلاتها يترددن عليها فيخيل اليها أنهن جئن يتفرجن عليها ويشمتن فيها.. وكانت تقرأ على وجه كل منهن خبرا جديدا فلا تسأل.. وكانت تعلم ان المدرسة قد انقلبت الى عش للدبابير يضج بالطنين، فلا تحاول ان تفسر هذا الطنين او تدفعه، انما فقط تحاول ان تغلق اذنيها دونه..

وكانت تريد ان تبقى وحيدة مع اطياف خيالها.. وكانت كلها أطيافا مهزوزة تقفز امام عينيها ثم لا تلبث ان تتلاشى... لم يكن فى خيالها الا طيف واحد ثابت، يقف امامها قويا جميلا كالأمل..

طيف احمد..

وانقضى الليل الطويل.. ليل العذاب.. وقامت منهكة تعسة مشتتة الذهن..

وبقيت فى حجرتها، فلم يكن عليها ان تلقى درس الحصة الأولى..

وجاءتها خادمة المدرسة تقول فى هلع:

- المحقق وصل يا ست فايزة!!..

والتفتت اليها فايزة بعدم اهتمام قائلة:

- طلبنى؟!!..

وقالت الخادمة كأنها تولول:

- لأ.. لسه.. بس حبيت اقولك ياستى.. المدرسة كلها مقلوبة.. وفضوا له أودة الست الناظرة!!..

ومرت ساعة ولم يستدعها المحقق..

وقامت لتلقى درسها. وألقت تحية صامتة على التلميذات واستدارت نحو السبورة لتكتب عنوان الدرس، فاذا بها تقرأ فوقها بخط كبير ركيك اسم «محمد عبدالعظيم»!!..

ووقفت فايزة تنظر الى الاسم المكتوب وهى لا تزال مديرة ظهرها للتلميذات.

ان الاسم كتبته احدى التلميذات كما يبدو من الخط الركيك.

وقد كتبته، لتقرأه هى..

ان التلميذات كلهن اصبحن يعلمن القصة.. قصة محمد عبدالعظيم الصبى الصغير الذى انتحر من أجلها..

ماذا تفعل؟..

هل تثير ضجة؟..

واحتاجت الى كل ارادتها لتضغط بها على ذهنها وتفكر..

واخيرا امسكت «بالباشورة» القماش ومسحت الاسم من فوق

السبورة، وكتبت عنوان الدرس، ثم استدارت بوجهها للتلميذات، وكأنها لم تقرأ شيئا..

وسمعت همهمة بين التلميذات..

ورفعت اليهن عينين غاضبتين قاسيتين.. فسكتت الهمهمة كأن التلميذات قد أصابهن هلع من نظرتها..

وبدأت تلقى درسها، كأنها تلقى شيئا من شفتيها حفظته «صم» دون ان تفهم معناه..

ودق الجرس..

وخرجت التلميذات من حجرة الدراسة..

وسقطت عينا فايزة على تلميذتها سميرة فنادتها:

– سميرة..

وتجاهلت سميرة النداء وحاولت ان تختبىء بين زميلاتها، ورفعت فايزة صوتها كأنها تصرخ وكررت النداء..

ووقفت سميرة ثم استدارت لها ببطء وظلت بعيدة عنها..

وقالت لها فايزة فى رقة:

– مالك يا سميرة ما بتسلميش عليه ليه؟..

ولم ترد الفتاة الصغيرة..

وقالت فايزة:

– تعالى.. قربى..

ولم تتحرك الصغيرة..

وقامت اليها فايزة وهى تقول:

– مالك يا سميرة.. قوليلى مالك.. انتى خايفه منى؟.. أنا مش صاحبتك؟..

وتراجعت سميرة خطوات مبتعدة عنها، ثم مرة واحدة اجهشت بالبكاء، وقالت فايزة وهى تحاول ان تصل اليها:

- انتى سمعتى حاجة عنى يا سميرة.. قولى.. ما تخافيش..

وقالت سميرة بين دموعها:

- أيوه..

- سمعت ايه؟..

وارتفع صوت نشيج سميرة، وقالت بين دموعها:

- البنات بيقولوا على حضرتك انك بتقتلى العيال..

وأحست فايزة كأن خنجرا اخترق قلبها، وقالت فى صوت ضعيف:

- وصدقتى البنات يا سميرة؟!!

وارتفع نشيج الصغيرة مرة ثانية.. وقالت:

- لأ.. مش مصدقة.. مش مصدقة والنبى يا ابله..

ثم فرت من امامها وخرجت من الغرفة كأنها تهرب من عفريت..

وتنهدت فايزة كأنها تستجير بالله، وخرجت تجر قدميها ورأسها منكس.. ثم عادت ورفعت رأسها وحاولت ان تجمع كل مابقى لها من قوة لتنصب عودها.. وهزت كتفيها بلا مبالاة..

ان البنات معذورات.. انهن لا يفهمن شيئا..

وسميرة.. ان اخاها احمد سيقنعها ببراءتها.. سيقول لها ان فايزة بريئة، وانه يحبها ، وانه سيتزوجها..

هكذا حاولت ان تقنع نفسها..

ومرت ساعة اخرى، وساعتان، ولم يستدعها المحقق..

وبدأت تتعذب.. لم تعد تستطيع ان تستمر فى المقاومة تريد ان تنتهى، تريد ان تعرف مصيرها..

وقبل ان تنهار بلحظة واحدة جاءتها الخادمة تستدعيها للتحقيق.

كان المحقق شابا رقيقا مهذبا يضع فوق عينيه نظارة سميكة، ويبدو عليه الجد والتحفظ فى كل حركاته..

وكان يجلس وراء مكتب الناظرة، وعلى جانب المكتب يجلس كاتب امامه اوراق، وكانت الناظرة تجلس على جانب آخر من المكتب..

وقام الشاب واقفا وهو يصافح فايزة، وقال وهو يشير الى مقعد امامه:

– اتفضلى يا افندم..

وجلست فايزة وكل ما فيها مرتبك..

وبدأ المحقق بالأسئلة العادية الخاصة بالاسم والعمر وتاريخ التعيين فى الوظيفة.. الخ.. وقبل ان يلقى سؤالا فى الموضوع.. التفت الى الناظرة قائلا فى أدب:

– تسمحى يا افندم تسيبينا شوية.. أنا آسف.. انما الأمر متعلق باجراءات التحقيق!..

وقامت الناظرة غاضبة كأنها أهينت.. وخرجت..

وبدأ المحقق يسأل فايزة..

وقالت فايزة كل ما فى قلبها..

وكان المحقق يستمع اليها فى صبر وهدوء، حتى استراحت اليه وأحست بأنها القت بكل حملها على كتفيه..

وقال المحقق وهو دائما متحفظ:

- والله ياست فايزة أنا ميال لتصديقك.. لكن الشهود ضدك كتير..

وقالت فايزة فى دهشة بريئة:

- شهود؟.. شهود مين؟!..

وقال المحقق وعلى شفتيه ابتسامة مرة كأنه يتأفف من حال الدنيا:

- كل زميلاتك تقريبا.. غير الأهالى..

وجذب مجموعة الأوراق من أمام الكاتب وأخذ يقلب فيها قائلا:

- سعدية شهدت أن محمد كان بيقابلك كل يوم بجوار المصرف وانه قبلك مرة قدامها، وانك على علاقة مع أحمد أفندى شهدى. وحسنية شهدت بأن محمد كان بيقف قدام شباك حجرتك بالليل. وبقية زميلاتك شهدوا بأنك كثيرة الخروج بعد انتهاء الدراسة والناظرة شهدت بأن تصرفاتك مريبة وانك موضع أقاويل البلد وفيه شكوى ضدك من ولى أمر بعض التلميذات اسمه عبدالمقصود بيه عمدة كفر شرف وواحد اسمه الدكتور عوض صاحب الأجزخانة مقدم شكوى بيقول انك خدت منه زجاجتين عطر بطريق التحايل مما يدل على سوء سلوكك.. و.. و..

وكانت فايزة تستمع الى كل ذلك فى ذهول، كأن يدا قوية ظالمة تصفعها، ولا تكف عن صفعها..

ثم أفاقت مرة واحدة وانفجرت صارخة:

– أبدا.. دول كدابين.. كلهم مجرمين.. كلهم حاولوا يجرونى وراهم ولما ماقدروش جم يشهدوا ضدى.. الجبنا الأنذال.. تصور انهم حاولوا يدونى حشيش، واللى اسمه عوض ده بعتلى قزازة كولونيا بيغازلنى بيها.. واللى اسمها حسنية دى مجرمة عندها شذوذ.. كلهم مجرمين.. كلهم حاولوا يبوظوا أخلاقى..

وقال المحقق فى هدوء:

– حاولوا يدوكى حشيش، إزاى؟..

– عزمونى فى عزبة عبدالمقصود، وحاولوا يدونى حشيش هناك!!..

– وقبلت العزومة ليه؟..

– ماكنتش عارفة.. كنت فاكره اننا رايحين نزور الستات ما كنتش عارفه والله.. ياربى.. ليه بس ياربى.. أنا عملت ايه فى دنيتى!!..

وعاد المحقق يقول فى هدوئه الذى لا يتحرك:

– من مصلحتك انك ما تقوليش الكلام ده فى التحقيق.. على كل حال اتفضلى انتى دلوقت.

ونظرت فايزة اليه وقالت وهى لا تستطيع ان تكتم ثورتها:

– أنا عايزة أعرف نتيجة التحقيق ده..

– بعدين.. اتفضلى انتى دلوقت..

وقامت فايزة، وقبل أن تصل الى الباب، قال لها المحقق:

– على كل حال فيه واحدة من زميلاتك شهدت معاكى شهادة كويسة!!..

وقالت فايزة:

- مين؟..

وقلب المحقق أوراقه وقال:

- واحدة اسمها عيشة..

ودقت فايزة الأرض بقدمها وقالت وهى لا تزال ثائرة:

- أصلها غبيه زيى!..

ولم يفهم المحقق ما تعنيه..

●

وخرجت فايزة من حجرة الناظرة، وأخذت تجيل النظر فى أبنية المدرسة وفى عينيها شواظ من نار..

وخيل اليها انها فى سجن..

سجن كبير..

سجن سجانوه مجرمون، ومسجونوه أبرياء..

وانطلقت تفر من السجن..

خرجت تجرى..

تبحث عن احمد..

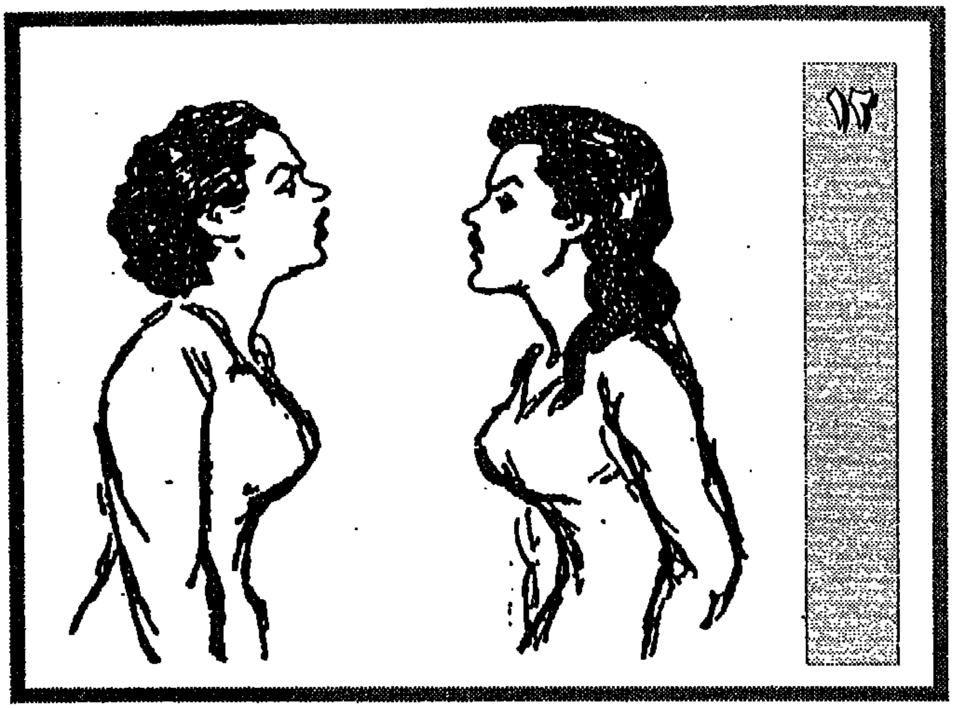

وهرولت فايزة فى شوارع المدينة..

كانت لاتسير، ولا تجرى.. انما تهرول..

كانت لهفتها أقوى من أن تدعها تسير فى خطوات متزنة.. وكان حياؤها اقوى من أن يدعها تجرى فى الشارع.. فكانت تهرول والعيون ترمقها على الجانبين.. عيون وقحة تستبيح كرامتها، وتستهين بشخصها..

وانطلقت الهمسات الى اذنيها كطلقات الرصاص.. همسات المارة والجالسين على جانبى الطريق.. سمعت أحدهم يقول لآخر:

– دول حيحققوا معاها النهاردة..

وسمعت آخر يقول:

- دى تستاهل الشنق!!

وثالث:

- شوف البت ماشية إزاى يا خويا.. ولا باين عليها انها قتلت قتيل!!

ورابع:

- والله ما حد حيودى البلد فى داهية الا نسوانها.. وآل عاملين مدرسات آل..

همسات على طول الطريق..

وخافت هذه الهمسات، وخافت هذه العيون.. وأسرعت الخطى حتى لم تعد تستطيع ان تحتفظ بتوازن جسدها فوق كعب حذائها..

انها تريد أحمد..

تريد ان تحتمى به من العيون والهمسات ومن الناس ومن المجتمع ومن نفسها.. تريد ان تختبىء فى صدره العريض من الدنيا القاسية التى تلاحقها..

ووقفت امام البيت تطرق الباب الكبير..

وانتظرت.. ثم أعادت الطرق بضربات أقوى كأنها تكاد تجن من الخوف..

وسمعت كأن نافذة من «المشربية» المطلة على الطريق قد فتحت، ثم اغلقت سريعا..

وأعادت الطرق بضربات اشد..

وطال انتظارها.. أطول مما تعودت ان تنتظر..

وأخيرا فتح الباب كأن اهل البيت قد استيقظوا من رقاد طويل.. فتح نصف فتحة أطلت منها الخادمة العجوز أم ابراهيم.

وأرادت فايزة أن تدخل كما تعودت ان تدخل بلا استئذان ولكن الباب لم يتسع لتمر منه.. ظل مفتوحا نصف فتحة تسدها ام ابراهيم بقامتها الطويلة، ووجهها جامد لا يعبر عن شيء..

وارتبكت فايزة، وقالت في كلمات متعثرة وفي لهجة مسكينة كأنها تعاقب بها ام ابراهيم:

- الست الكبيرة هنا؟..

وردت ام ابراهيم في اقتضاب وفي صوت جامد كالحجر:

- لأ..

ودهشت فايزة.. انها لم تعلم ابدا ان والدة احمد تخرج من البيت.. انها دائما فيه حتى انها لن تخرج من البيت الا الى القبر..

وقالت ودهشتها تكاد تلجم لسانها:

- خرجت!!.. خرجت راحت فين؟!!..

وقالت ام ابراهيم ووجهها لايزال صامتا كالجبل:

- أنا عارفه يا ست فايزة.. أهي خرجت والسلام!!..

ونكست فايزة رأسها الى الأرض خجلا من نفسها، وقال بعد برهة:

- وأحمد أفندي موجود؟.

وقالت ام ابراهيم وقد اصبح صوتها اكثر صراحة:

- لأ.. ما فيش حد موجود بالمرة!!..

وقالت فايزة بصوت ضعيف:

- طيب، متشكرة.. خليتك بعافية!!..

- الله يعافيكي ويسترك ياست فايزة!!..

واستدارت فايزة تسير وهى تجر قدميها كأنها طردت من الدنيا كلها..

وظل الباب وراءها مفتوحا وأم ابراهيم تسده بقامتها.. وتتبعها بعينيها.. ثم سمعت الباب يصفق، كأنه أغلق دونها الى الأبد..

ولم تعد تقوى على التفكير، أو لم تكن تريد ان تفكر.. انما سارت بلا عقل، الى ان وجدت نفسها تقترب من المحل التجارى الذى يملكه أحمد، فأفاقت قليلا.. وقفت.. ثم انحرفت عن الطريق الذى يؤدى الى المحل.. وسارت مرة ثانية متجهة الى ميدان المحطة ووضعت نفسها فى عربة حنطور وقالت للسائق فى صوت مبحوح:

- على الجسر يا أوسطى..

ونزلت من العربة فى مكان تعرفه بعيدا، ونقدت السائق أجره، وسارت على الجسر قليلا ثم انحرفت ونزلت فى احد الحقول، واخترقت الزرع الاخضر الى الساقية..

وحاولت أن تقف مستندة على عريش الساقية كعادتها، ولكن ساقيها كانتا قد اصبحتا أضعف من ان تحملاها.. كان كل شىء فيها قد تخلى عنها.. تخلى عنها عقلها فلم تعد تفكر ولم تعد تدرى ما تفعل.. وتخلت عنا أعصابها فلم تعد تحس، ولم تعد تدرى من تحب ولا من تكره، وتخلت عنها ارادتها فلم

تعد تقوى على الصمود..

وجلست على حجر كبير ملقى بجوار الساقية، كأنها تلقى بنفسها فى بطن الأرض.. وبقيت غارقة فى ذهولها..

ولم تدر كم من الزمن مر بها..

ربما لاحظت ان الشـــمس بدأت تميل، وربما لاحظت ان حـرارة النهـار بدأت تخف، وان النسيم بدأ يسـتـيـقظ طريا كسولا.. ولكنها كانت قد فقدت احساسها بالزمن.. لم يهمها الليل والنهار، ولم يعد يهمها ان تبقى او تنصرف فهى لا تشعر ببقائها ولا تفكر فى انصرافها..

ولكن شيئا واحدا بدأ ينبه احساسها..

انه تشعر بصوت أقدام تقترب..

إنها ترى هذه الأقدام امامها..

ورفعت رأسها لتجده بين عينيها.. طويلا.. قويا.. جميلا.. وصاحت صيحة ضعيفة انتزعت منها كل ما بقى من قواها:

– احمد!!..

ونظر اليها احمد صامتا، ثم ادار رأسه عنها وأرخى عينيه الى الأرض..

لم يمد يده ليرفعها من جلستها ويضمها بين ذراعيه لتختبىء فى صدره العريض، ولم يجلس بجانبها ويأخذها اليه ليحميها من مصيبتها.. انما ظل جامدا صامتا كالتمثال!!..

وتحاملت على نفسها الى ان وقفت بجانبه وهى تقول:

– أحمد.. ده أنا مستنياك من الصبح.. عرفت ايه اللى حصل لى؟..

وقال أحمد وهو لا ينظر اليها:

- عرفت..

- وحنعمل ايه.. حنعمل ايه يا احمد.. طمنى.. أنا حتجنن!؟

- والله ما انا عارف يا فايزة.. أهو ربنا عايز كده!!..

- عايز ايه .. مش ممكن ربنا يعوز الظلم.. دول ظلمونى يا احمد.. انته مش عارف قالوا عليه ايه، وعملوا فيه ايه، دول بيحققوا معايا.. تصور!!

- والتحقيق انتهى على ايه؟..

- ما اعرفش.. أنا مايهمنيش تحقيق.. أنا حستقيل من الوزارة.. أنا مش محتاجه للوظيفة!!..

- وحتستقيلى من الناس وكلام الناس.. ازاى؟..

- أنا ما يهمنيش حد الا أنت.. مادام انت جنبى مش عايزة حد!!..

- ما انا برضه من الناس يا فايزة!..

- قصدك ايه يا أحمد؟..

- قصدى انى تاجر وعايش على سمعتى بين الناس!!..

والتمعت عينا فايزة، وثارت دماؤها فجأة وتدفقت فى عروقها بقوة، فانتفض عقلها نشطا ثائرا، واستيقظت أعصابها كأنها أوتار عبثت بها أصابع مجنونة، وقالت فى حدة:

- مش فاهمه. عايز تقول ايه؟.

ونظر أحمد اليها كأنه فوجىء بصوتها الحاد، ثم عاد وأرخى عينيه الى الأرض، وقال:

- الناس اتكلمت كتير يا فايزة.. والبلد مهما كانت.. اسمها

بلد أرياف وكلام الناس عليه معول كبير!!..

- الناس اتكلمت عنك وعني.. مـا تكلمـتش عنك انت لوحدك!!..

قال أحمد وعيناه بعيدتان عنها:

- انتى غريبة عن البلد.. تقدرى تسيبيها وقت ما تحبى انما أنا عايش فيها، وأمى وأختى عايشين فيها، وأبويا مات فيها، ورزقى منها..

وقالت فايزة وهى تنظر اليه بعينين غاضبتين:

- والحل؟!!..

وسكت أحمد قليلا كأنه يخاف أن يتكلم، ثم قال بعد أن استجمع شجاعته:

- الحل اننا ننهى الموضوع ده بأى شكل..

قالت وكلامه ينزل على قلبها جامدا كالثلج:

- تنهيه إزاى؟!!..

قال فى سرعة كأنه يخاف أن يعدل عن قراره:

- ما نشوفش بعض، لغاية ما الموضوع يتنسى والكلام يبطل!!..

قالت فى مرارة:

- يعنى تتخلى عنى فى الوقت اللى كنت فاكراك راجل تقدر تقف جنبى وتحمينى.. يعنى تسيبنى وتجرى زى العيال.. يعنى ترمينى للكلاب.. يعنى تنسى حبنا وكلامك اللى كنت بتقوله ليه..

وقاطعها أحمد:

- ما تتكلميش كده يا فايزة.. أرجوكى انك تقدرى موقفى!!..

- وانت.. ما بتقدرش موقفى ليه.. انت عارف انى مظلومة ولا لأ؟!!..

- عارف!!..

- ولما انت عارف، عايز تسيبنى وتقطع علاقتك بيه ليه؟

- تأكدى أنى باضحى أد تضحيتك!!..

- تضحى بأيه؟..

- باضحى بيكى.. بسعادتى.. بحبى!!..

وتراجع غضبها وقالت فى لهجة أخف حدة:

- وايه لزوم التضحية بس؟!!..

- باضحى علشان أمى وعلشان أختى.. الكلام اللى يمسنى يمسهم.. بكره يقولوا على سميرة، دى أخت اللى بيحب المدرسة، وما حدش يرضى يتجوزها.. بكره يعايروا أمى بابنها.. بكره يطفشونا من البلد كلها، وما نلقيش حته نروحها!!..

- وأنا ذنبى ايه فى ده كله؟!!..

- مالكيش ذنب.. ده قضا!!..

- و ماليش ذنب.. وبرضه تضحى بيه؟..

- مضطر..

وثارت فايزة كأن النار قد اندلعت فيها وصرخت:

- مش مضطر ولا حاجه.. انت اللى جبان.. جبان.. جبان.. خايف تقف قدام الناس وتدافع عن نفسك وعنى.. خايف تحمى

نفسك وتحمينى.. خايف تواجه الحقيقة وتقوللهم انك صحيح كنت بتحبنى وكنت بتقابلنى وكنت بتوعدنى بالجواز..

وحاول ان يقاطعها:

- يا ....

وارتفع صراخها حتى طغى على صوته واستطردت:

- أوعى تفتكر انى حارضى بيك بعد كده.. أنا كنت بحبك لأنى كنت فاكراك راجل.. انما دلوقت باكرهك.. باحتقرك.. مش عايزه أشوف وشك!!

واختنق صوتها حتى عصر دموعها..

وبكت..

ومد يده وهو يقول فى صوت حزين:

- أنا عـازرك يا فـايزة.. انما لسـه بارجـوكى ان تقـدرى تضحيتى!!..

وصرخت من بين دموعها وهى تزيح يده عن كتفها:

- أوعى تحط ايدك على.. مـا تلمـسنيش.. تضـيحـة آل.. التضـحية مـا تكونش على حساب المظلوم، تكون على حساب الظالم.. التـضـحـية تكون فى سـبيل الحق مش فى سـبيل الباطل.. على كل حال أنا مـا يهمنيش.. الناس كلهم كلاب.. كل أهل البلد دى كلاب..

ورفعت اليه عينين تقدحان شررا وقالت:

- أنا كنت مـغشـوشـة فـيك يا أحـمـد.. انت غلبـان.. انت مسكين..

ثم ابتعدت فى خطوات ثائرة..

تركت الساقية.. وصعدت الى الجسر.. وهو واقف لا يتحرك وقد نكس رأسه الى الأرض..

وابتعدت أكثر..

وأخذت تجرى.. الى أن صادفتها عربة حنطور ركبتها واتجهت الى البلدة، وما أن اصبحت فى الشارع الرئيسى حتى صاحت فى السائق بلهجة آمرة:

– نزل الكبوت يا أوسطى:

وأطاع السائق، ودفع «الكبوت» بذراعه فسقط الى الوراء ليكشف فايزة أمام الناس، على غير ما جرت به العادة فى المدينة عندما تركب النساء عربات الحنطور..

ووضعت فايزة على شفتيها ابتسامة تحد..

وأخذت تنظر الى المارة والى الجالسين على جانبى الطريق فى عيونهم، كأنها تتحدى كلا منهم بنفسها، وكأنها تتحدى أيا منهم بأن يسمعها كلمة!!..

ونظر الناس اليها متعجبين لجرأتها، وقد عقدت الدهشة ألسنتهم حتى لم ينطقوا!!..

ووصلت الى المدرسة، وقد شعرت أنها انتصرت على الناس بمجرد تحديها لهم..

ونظرت الى البناء الكبير.. وترددت فى النزول من العربة.. ثم التفتت الى السائق تسأله:

– اكسبريس مصر بيفوت الساعة كام يا أوسطى؟.

وقال السائق وهو أيضا لا يزال واقعا تحت تأثير التعجب والدهشة:

- كمان عشر دقايق..

وقالت فايزة فى لهجة حازمة كأنها قررت أمرًا لا رجعة فيه:

- طيب ارجع على المحطة!!

●

وتركت فايزة كل شىء وراءها، فلم يكن معها الا حقيبة يدها..

تركت ثيابها.. وتركت التحقيق.. وتركت وظيفتها.. وتركت مشاكلها!.

لم يعد يهمها شىء..

ان الدنيا كلها لا تساوى شيئا..

وجلست فى القطار تغلى!!..

لم تكن ثائرة على الدنيا، بقدر ما هى ثائرة على نفسها.. انها تعيد وتكرر نفس السؤال: لماذا تتحدى الناس؟!.. لماذا لا تخضع للمجتمع؟.. لماذا تقف وحدها تقاوم كل هذه الشرور التى تغرق الدنيا؟..

ربما لأنها مغرورة!!

ربما لأنها غبية!..

هل تستمر فى نفس الطريق؟!..

هل تقاوم اكثر مما قاومت؟!..

لماذا؟..

لقد كانت تقاوم فى سبيل أمل.. فى سبيل أن تجد يوما الرجل الذى تحبه وتتزوجه.. وقد وجدته، ولكنه لم يقدر مقاومتها، ولم يتزوجها.. بل تركها عند اول صدمة؟

هل تنتحر لأنه هجرها؟..

انها لا تفكر في الانتحار، ولا تريد ان تنتحر.. ربما لأن الحب لا يكفى سببا للانتحار، أو ربما لأنها لم تحبه إلى حد أن تنتحر.

ترى لو هذا الرجل نفسه أحبته أختها خديجة أو أختها فوقية وأرادته احداهما زوجا لها.. هل كان يستطيع أن يفلت منها.. هل كان يتخلى عنها؟

مستحيل!..

ان كلا منهما تعتمد على ذكائها فى الحياة، بل ان كلا منهما تعتقد أن الفتاة الشريفة هى الفتاة الذكية.. وما دامت تستطيع أن تلعب بالرجال، وما دامت تستطيع ان تختار منهم من يعجبها.. فهى ذكية وهى شريفة.. هكذا يقول المجتمع!..

واستطردت فايزة فى تفكيرها:

ترى لو كانت ذكية.. ماذا كانت تفعل؟..

كانت تلجأ الى الدكتور عوض صاحب الاجزخانة كما نصحتها زميلتها سعدية.. وتمنحه ابتساماتها.. وتتحمل عينيه وهما يسقطان على كل قطعة من جسدها، وتدعه يتعلق بآمال كبار.. ثم تستغل نفوذه لدى أعيان البلدة وكبار موظفى الوزارة ولدى ناظرة المدرسة، حتى يلغى التحقيق، ويسكت الناس.. ثم بعد ذلك تخدعه وتفر منه وتعود الى حبيبها أحمد.. فيتزوجها لأنه لن يجد ما يحول دون زواجها، ولن يعلم ابدا بأنها لجأت للدكتور عوض لأنها ستكذب عليه.. ستكذب على أحمد.. وعلى كل الناس.. وستظل تكذب طول حياتها..

كان هذا ما يجب أن تفعله لو كانت ذكية..

وستكون ذكية ابتداءً من اليوم..

ووقف القطار فى محطة بنها.. وصعد رجل لا يتجاوز الخامسة والثلاثين من عمره يحمل حقيبة صغيرة فى يده.. أنيق تبدو عليه النعمة والعز!.

ورفعت اليه عينيها، ثم اعتدلت فى جلستها، وادارت رأسها تطل من النافذة، وقد قررت فى نفسها أمرا..

قررت أن تجرب ذكاءها..

وجلس الرجل قبالتها وهى تحس بعينيه فوق ساقيها.. وتحرك القطار، ومضت فترة من الوقت، وقامت تغلق النافذة، وتظاهرت بأن اغلاقها يستعصى عليها..

وقام الرجل يساعدها فى اغلاق النافذة..

– تسمحى؟!..

– مرسى!!..

وأغلق النافذة وهو يقول:

– الحقيقة الواحد بيحتار فى القطارات دى.. يقفل الشباك يتخنق من الحر، يفتح الشباك يتخنق من التراب!!..

– فعلا..

قالتها فى اقتضاب، ولكنها تعمدت أن تقولها فى دلال..

ومضت فترة اخرى، ثم أخرج الرجل علبة سجائره وقدمها اليها قائلا:

– تسمحى يا افندم..

– مرسى ما بدخنش!!..

– يا بختك.. تعرفى انى دكتور متخصص فى القلب..

وعارف السجاير بتعمل ايه، ورغم كده مش قادر ابطلها.

والتفتت اليه فايزة فى اهتمام مفتعل:

– صحيح حضرتك دكتور فى القلب؟..

– أيوه يا افندم.. انا الدكتور عبدالحميد وافى.. تحت امرك!!..

– مرسى.. امر ربنا سبقنا..

– خير يا افندم..

– لا أبدا.. أصل بابا الله يرحمه مات بالقلب من تلات سنين.

– الله يرحمه..

– انما صحيح يا دكتور انه مرضى وراثى؟..

– أبدًا ما تصدقيش.. وعلى كل حال اذا كان عندك أقل شك أنا مستعد أعملك رسم قلب علشان تطمنى على قلبك..

– مرسى..

– حضرتك من مصر ولا من اسكندرية؟..

– احنا ساكنين فى مصر.. انما بسافر العزبة كتير!!..

– والعزبة فين.. يمكن نطلع جيران.. احنا أرضنا فى شبين الكوم؟!..

– احنا فى كفر صقر.. انما الحقيقة ما لناش فيها الا خمسين فدان والباقى فى بنى سويف؟!

واستمر الحديث بينهما..

ووجدت فايزة متعة عجيبة وهى تكذب.. ثم وهى توجه الحديث الوجهة التى تريدها.. ثم وهى تستقصى منه أخباره ثم

وهى ترى فتنتها تنعكس فى عينيه، وتراه مقبلا عليها فى أدب يحاول أن يربط أيامه بها..

ووصل القطار الى محطة مصر، وقام الرجل يتلفت باحثا عن حقيبتها، ثم سألها:

– هيه الشنطة فين يا هانم؟!

وأجابت وعلى شفتيها ابتسامة رشيقة:

– ما فيش.. أنا عمرى ما أسافر العزبة ومعايا شنطة.. شايلة هدوم وكل حاجة هناك بدل ما أجيب وودى!!..

وصدق الرجل بسهولة..

وهنأت فايزة نفسها على ذكائها، بل خيل اليها انها لم تكتشف ذكاءها إلا اليوم!!..

ونزل عبدالحميد وراءها من القطار وهو يقول:

– تسمحى أوصلك يا أفندم؟!!..

وقالت فايزة:

– والله أنا قلتلهم فى العزبة يضربوا تليفون فى مصر علشان عربية جوز أختى تستنانى.. مش عارفة إذا كانوا لحقوا يتصلوا بمصر ولا لأ..

وسار بجانبها..

وتلفتت فايزة الى السيارات الواقفة منتظرة فى فناء المحطة ثم دقت الأرض بقدمها كأنها غاضبة، وقالت:

– آهى العربية ما جتش.. الخدامين دول حيجننونى!!..

وقال الدكتور وقد فتحت أمامه أملا كبيرا:

– عربيتى تحت أمرك!!..

وركبت بجانبه.. سيارة جميلة بيضاء اللون كأنها جناح ملاك.. واستطرد بينهما الحديث حتى وصلا الى باب العمارة التى تقيم فيها أمها بالجيزة..

ونزلت، ومد عنقه اليها يريد ان يقول شيئا..

وقالت قبل أن يتكلم:

– مرسى قوى يا دكتور.. حابقى أضربلك تليفون علشان نتفق على ميعاد تعمللى رسم قلب.. هيه مواعيد العيادة من امتى لأمتى؟..

– بكره من خامسة لتسعة!!..

– بكره بس..

– وكل يوم.. بس بكره يكون أحسن لأنى عايز أطمن على قلبك!!..

وابتسمت فايزة ابتسامة كبيرة، وقالت:

– اطمئن!!..

وأدارت له ظهرها وخطت نحو باب العمارة.. وخيل اليها ان خطواتها أرشق واكثر فتنة مما تعودتها:

وتساءلت وهى فى المصعد:

– ما اسهل ان يكون المرء ذكيا.. يكفى ان تلتقى بهذا الدكتور مرتين لتتزوجه.. انه مغفل كبير.. كل الرجال مغفلون.. وهم يستحقون كل من لا يعترف بأنهم مغفلون..

وفتحت باب الشقة بالمفتاح الذى تحمله دائما فى حقيبتها.

وابتسمت ابتسامة خفية عندما لمحت أمها واختها ومعهما رجلان يجلسون فى الصالون حول مائدة تحمل زجاجات

الويسكى والصودا وأطباق المزة..

وصاحت فوقية بمجرد ان لمحتها:

- فايزة!!..

ثم قامت اليها تحتضنها وتقبلها..

والتفتت امها ملهوفة، وقامت وفى عينيها تساؤل اقرب الى اللوعة:

- ايش جابك يا فايزة دلوقت.. خير يا بنتى؟..

وقالت فايزة وهى تقبل أمها:

- ما فيش حاجة يا نينه.. وحشتونى!!..

وتعمدت أن تفتح ابتسامتها الى آخرها حتى تطمئن امها..

وقالت الأم:

- انما النهاردة الاتنين.. والدنيا ليل.. مش ميعاد اجازة ولا سفر!!..

- مافيش حاجه والنبى.. الحقيقة انى زهقت من الشغلانه دى، وما صدقت اتخانقت مع الناظرة، ورحت سايبة المدرسة وجاية عليكم..

وقالت الأم:

- ما كنتى سمعت الكلام من الأول بدل المرمطة اللى بتتمرمطيها دى.. وكنتى قعدت وهديتى..

- أهو برضه شفت الدنيا!!..

- وفين شنطتك؟..

- قلتلهم يبعثوها لى بكره..

ونظرت الأم الى عينى ابنتها كأنها تبحث فيهما عن

الحقيقة ثم قالت:

– طب خشى يا حبيبتى على أودتك واحكيلى على كل حاجه!!

وقالت فايزة وهى تنظر الى داخل الصالون:

– مش نقعد مع الضيوف شوية!!..

وعادت الأم تنظر الى عينى ابنتها كأنها تنظر الى فتاة غريبة عنها.. ولم تدعها فايزة تتكلم بل خطت الى داخل الصالون وصافحت الرجلين وجلست بينهما ولحقت بها أمها وأختها..

وقال أحد الرجلين:

– مش تاخدى معانا كأس!!..

وردت فوقية:

– إلا دى.. دى الشيخة فايزة عمرها ما تدوقه!!..

وقالت فايزة وهى تبتسم:

– انتى حتفضلى تشنعى عليه يا فوقيه على طول. طب أدينى حاخد كأس علشان تحرمى تقولى الشيخة فايزة!!..

وصب الرجل كأسا..

وفغرت فوقية فاها دهشة وقالت:

– هيه البلاد بتعمل فى البنات كده.. دى مدرستكم لازم مدرسة أنس قوى!..

وبدت على وجه الأم سحابة من التفكير، ثم قالت:

– أنا متهيأ لى يا فايزة ان خناقتك مع الناظرة كبيرة قوى!!

وردت فايزة ضاحكة:

– ولا كبيرة ولا حاجة.. بكره تعرفى كل حاجه!!

ورفعت الكأس الى شفتيها..

وانسكبت الخمر فى الجوف الطاهر الذى لم يلوثه محرم.

وأحست بغصة كأن الشيطان يقهقه فى صدرها..

وتحاملت على أعصابها حتى لا تبدو عليها تأثير الجرعة الأولى كانت لا تزال مصرة على أن تكون ذكية..

وأعملت ذكاءها.. ولم تمض برهة حتى كانت هى الوحيدة التى تتكلم، وحتى الرجلان كانا قد نسيا أمها وأختها وركعا بكل حواسهما تحت قدميها..

ورفعت الكأس الى شفتيها مرة ثانية..

ثم لم تعد تتحمل..

تعبت من ذكائها..

وقامت مستأذنة.. وأرادت أمها ان تلحق بها، ولكنها ألحت عليها ان تبقى مع «الضيوف» وأقنعتها بأنها متعبة من السفر وتريد أن تستريح..

ودخلت حجرتها، وعلى شفتيها ابتسامة غرور كأنها معجبة بذكائها..

وخلعت ثيابها..

ورقدت فى فراشها..

وبحثت عن ابتسامتها فلم تجد، كانت قد تخلت عنها ولم تجد معها الا خيالها فوق الوسادة وعذابها تحت اللحاف..

وبدأت تستعرض قصتها من جديد كما تعودت أن

تستعرضها كلما كانت تأوى الى فراشها وهى صغيرة..
وتوقف خيالها عند أحمد.. لا يريد أن يمر..
أحمد بقامته الطويلة، وصدره العريض، ووجهه القوى...
وانقلبت على وجهها، وهى تضرب الوسادة بقبضتيها، كأنها تطعن خيالها بخنجر من عذابها، ووجدت نفسها تهمس:
- الجبان.. الجبان.. الجبان..
وأغاثتها دموعها..

١٣

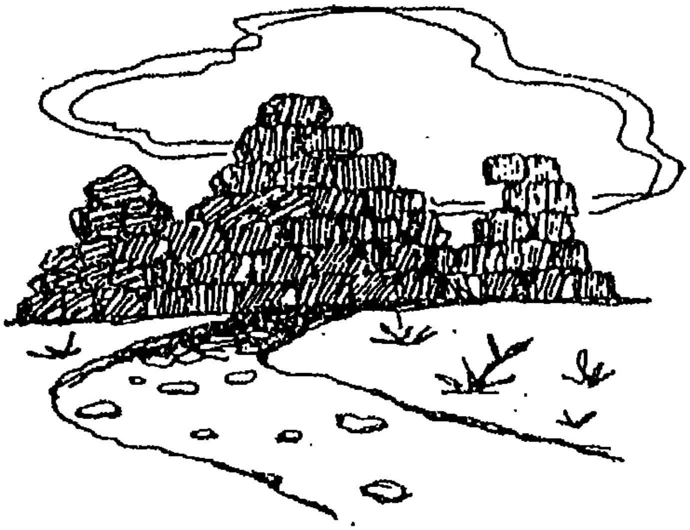

ولم يشغل صباح فايزة شيء مما تركته وراءها في البلدة..

لم تفكر في المدرسة، ولا في التحقيق الذي تجريه معها وزارة المعارف، ولا في ثيابها التي تركتها هناك..

كانت قد قررت أن تستقيل من وظيفتها فهي لم تقبلها سعيا وراء الرزق، بل قبلتها لتفر من المجتمع الذي نشأت فيه.. وقد فرت لتجد نفسها في مجتمع أسوأ منه.. الرجال هم الرجال، والنساء هم النساء، والفساد هو الفساد، والانحلال هو الانحلال..

كانت تظن انها تفر الى مجتمع ثابت مستقر له مبادئه وله

تقاليده وله احترامه، ولكنها وجدته مجتمعا كالغابة يحتاج كل من يعيش فيه الى ذكائه ليحمى نفسه من الوحوش.. من الكلاب.. من الناس.. وخير لها ان تستغل ذكاءها فى القاهرة بدلا من أن تستغله فى هذه المدينة الصغيرة.. فالصيد هنا أدسم وأسهل.. وهى هنا ليست فى حاجة الى تحمل شقاء الوظيفة، وقسوة ناظرة المدرسة ودسائس زميلاتها المدرسات..

حتى أحمد لم يشغل صباحها.. ولم تكن تفكر فيه كرجل قائم بذاته.. انما كان يطوف برأسها كمثل للرجال أجمعين.. كانت تفكر فيه كصورة للمجتمع كله..

لقد كان مهذبا، ولم يحاول ان يأخذ منها أكثر مما تعطيه، ولكنه تخلى عنها عندما وقفت وحيدة تواجه الناس كلهم.. تخلى عنها فى الوقت الذى احتاجت فيه اليه ليثبت لها حبه.

هل كان من الأفضل الا يكون مهذبا.. ان يحاول أن ينال من جسدها.. ثم يحميها بعد ذلك من الناس، ويحميها من تحقيق وزارة المعارف، ويقف بجانبها قويا ماردا يصد عنها الظلم ويصد عنها الكيد؟!..

أيهما أفضل..

أحمد المهذب الوديع، الذى ضحى بها وبحبها ليحمى نفسه وسمعته من ألسنة الناس؟.. ام الدكتور عوض صاحب الأجزخانة الذى عرض عليها ان يقف بجانبها وينصرها على ألسنة الناس، على أن يأخذ الثمن من جسدها؟!!..

انها لا تدرى؟..

ويخيل اليها أن كل الرجال الشرفاء ضعفاء!!..

وكل الرجال الأقوياء، ليسوا شرفاء!!

وكلهم.. الضعفاء والأقوياء، والشرفاء والأنذال.. كلهم لا يعتمد عليهم، انما عليها أن تعتمد على نفسها.. على ذكائها!!..

وهى ذكية والحمد لله!؟..

وابتسمت وهى تتذكر صباها وشبابها اللذين قضتهما تتخيل الحب.. الحب العف البرىء الذى ليست له نهاية الا الزواج أو الانتحار..

ان الحب – للأسف– يحتاج الى طرف ثان.. يحتاج الى رجل.. والرجال لا يتزوجون للحب، ولا يستحقون ان تنتحر من أجلهم امرأة!!

انها لن تحب..

كفرت بالحب..

وستنتقم.. ستنتقم لصباها وشبابها.. ستنتقم من الرجال كلهم.. من المجتمع كله.. وستنتقم بذكائها.. ستثبت للناس انها اذكى امرأة مرت بهم وسمعوا عنها..

من اين تبدأ الانتقام؟..

وقفزت الى عينيها نظرة قاسية ملتهبة.. وتقلصت اصابعها فوق الوسادة كأن الناس كلهم قد تجمعوا فى واحد وهى تحته، وانطبقت اسنانها فوق بعضها وانفرجت شفتاها. كأنها تتلذذ من هذه القسوة التى تشعر بها..

ومرت بها صور الرجال الذين التقت بهم فى حياتها..

الرجال الذين أقامت لكل منهم تمثالا فى قلبها ما كادت تتمه حتى تحطم.. الرجال الذين فرت منهم او فروا منها، لأنها كانت «عبيطة» غبية لا تجيد فن معاملة الرجال..

ستنتقم منهم واحدا واحدا..

ستجعلهم يعودون اليها زحفا على بطونهم.. وستجعل كلا منهم يطلبها للزواج، رغم نشأتها ورغم بيئتها.. لأنها لن تستجديهم باسم الحب، بل ستلوّح لهم بأنوثتها..

ان اولهم الاستاذ منير حلمى الكاتب الشهير الذى ملأ خيالها بقصص الحب..

ستعود اليه متجردة من خيالها..

لن يكون الحب موضوعا بينها وبينه.. انه موضوع يصلح فقط لكتابة القصص، ولقراءة القصص، ولكنه لا يصلح لخلق قصة واقعية من صميم الحياة!!

واتسعت ابتسامتها وهى تتخيل شكله عندما يراها امامه من جديد.. وعندما تعامله بأسلوبها الجديد..

الأسلوب الذى يريده المجتمع ويدفعها اليه..

اسلوب الخطيئة..

ورغم ذلك فهى ستظل امام المجتمع شريفة.. لأنها ستحرص على ان تبقى عذراء، اما ما دون ذلك فمباح.. كله مباح الا أن تفقد عذريتها.. هكذا تقول امها.. ويقرها عليه المجتمع..

●

ودخلت امها الى حجرتها تحمل صينية القهوة وهى تقول

فى صوت يبدو فيه افتعال المرح:

- صباح الخير يا فايزة.. قومى بأه يا بنتى الساعة بقت حداشر!

ووضعت صينية القهوة بجانب الفراش، ودارت تفتح نوافذ الحجرة، ثم عادت وجلست بجانب فايزة على الفراش.. وما كادت تجلس حتى قفزت فايزة من رقدتها وألقت نفسها بين احضان امها واخذت تقبلها قبلات متعددة على وجهها فى حنان وشوق، ثم قالت:

- تعرفى يا نينة انك وحشانى قوى.. عمرك ما وحشتينى اد اليومين دول!!

وربتت توحيدة هانم على ظهر ابنتها قائلة:

- إخص عليكى يا فايزة.. بأه ما وحشتكيش الا اليومين دول؟!..

وقالت فايزة فى دلال الابنة:

- مش قصدى.. انما أنا عرفت اخيرا ان الواحدة ما تساويش حاجة من غير امها.. وأنا فى الحقيقة يا نينة كنت حاسة طول عمرى انى بعيدة عنك.. ما عرفتش انى ماليش غيرك الا لما ألقيت نفسى وحيدة بين الناس...

وابتسمت الأم وإن كان لا يزال يبدو فى عينيها سحب من القلق:

- ربنا يخلينا لبعض يا حبيبتى.. هوه أنا ليه حد الا انتى واخواتك.. غير شى انتى اللى طول عمرك عنيدة وما بتسمعيش الكلام ومشحططة قلبى عليكى..

وقالت فايزة وهى تقبل امها من جديد:

- خلاص.. حرمت.. من هنا ورايح حاسمع كلامك!.

ونظرت توحيدة فى عينى فايزة نظرة ثاقبة، وقالت فى جد:

- انا قلت نشرب القهوة سوا ونتكلم.. احكى يا فايزة.. قوليلي على كل حاجه.. ما تخبيش عليه.. احسن لو جيتى للحق انا قلقانه عليكى وحالك مش عاجبنى..

وبدأت فايزة تقص على امها ما حدث لها فى المدينة!!..

روت لها كل شيء إلا قصة حبها لأحمد.. واكتفت بأن ذكرت أن أحمد شقيق لاحدى تلميذاتها وان الناس اتهموها به زورا..

وقالت الأم وهى تفكر تفكيرا عميقا بعد ان استمعت الى القصة:

- برضه انتى الحق عليكى يا فايزة.. كان لازم تعملى حساب ده كله!!..

وقالت فايزة:

- فعلا.. انا كنت غبية.. كنت مغفلة.. كانت نيتى سليمة وفاكره ان الواحدة لما تبقى كويسة الناس تحبها وتحترمها.. انما من هنا ورايح لا حابقى مغفلة ولا غبية..

وقالت الأم فى لهجة القائد الذي يبحث خطة:

- وناوية تعملى ايه دلوقت؟..

- ناوية استقيل من الشغل.. خلاص قررت اقعد جنبك فى البيت!!..

- ما كان من الأول!!..

- كنت غلطانة..

على كل حال أحسن نكفى على الحكاية دى ما جور ولا نجبش لها سيرة.. ونخللى اسماعيل جوز اختك يروح الوزارة ويوقف التحقيق.. واهو له معارف كتير هناك.. ولو ان نفسى أسافر وأمسك البتاعة الناظرة دى وأقطم رقبتها وأسيح دم الراجل المجرم اللى ضربك بالقلم.. أنا بنتى تنضرب بالقلم؟.. يا أخى قطع ايده وايد اللى جابوه.. انما معلهش.. المهم انك تكونى اتعلمت وعقلت!!..

قالت فايزة:

- اطمنى..

وقامت الأم تستدعى اسماعيل «بيه» بالتليفون لتكلفه بالذهاب الى الوزارة..

وقضت فايزة يومها بين شقيقتيها خديجة وفوقيه، تروى لهما نوادر البلدة التى تركتها، وتصف لهما الشخصيات التى التقت بها هناك وتقلد هذه الشخصيات فى حركتها ولهجتها..

كانت تضحك كثيرا وكانت تتحدث بجرأة لم تتعودها منها شقيقتاها، وكانت تتعرض لموضوعات دقيقة لم تتعرض لها فى حديث من قبل..

وقالت خديجة:

- انما لو جيتى للحق يا فايزة، البلد دى دردحتك قوى.. كان لازم تسافريلها من زمان..

وضحكت فايزة قائلة:

- ده انا لو كنت قعدت فيها كمان يومين كنت رجعتلكم وفى ايدى عمدة اد الدنيا!!..

وقالت فوقيه:

- وماله.. والنبى حق واحدة فينا تتجوز عمدة، على الاقل نضمن السمن وخزين البيت!!..

وقالت فايزة فى جرأة:

- عمدة ايه يا عبيطه.. ده انا قابلت فى القطر حتة دكتور يتاكل أكل ووقع لشوشته.. شوية شوية كان حيجيب المأذون.

وقالت خديجة فى اهتمام:

- وراح فين الدكتور ده؟!!..

وقالت فايزة:

- موجود.. واول ما شفته قلت أهو ده ينفع لفوقية.. زى ما يكون متفصل عليها!!..

وقالت فوقية:

- وما تخدهش انتى ليه؟!!..

وقالت فايزة فى استهتار:

- مش «التيب» بتاعى.. ثم أنا مش ناوية اتجوز دلوقت لسه بدرى!!..

وعادت فوقية تقول:

- على كل حال أنا مش محتاجه.. كلها يومين وعبدالعزيز حيطلبنى!!..

وقالت فايزة:

- والنبى لو شفتى الدكتور ده لترمى ألف عبدالعزيز..

وتاخديه.. تعالوا نضربله تليفون!!..

وتبادلت فوقية وخديجة النظرات كأنهما لا تصدقان أن فايزة اختهما هى التى تقول هذا الكلام.. ولكن واحدة منهما لم تبد دهشتها حتى لا تجفل فايزة من الاستمرار فى سلوكها!!..

وقالت خديجة:

- اقولك.. قوليله فى التليفون انك عيانه وخليه بيجى يكشف عليكى علشان نشوفه!!..

وقالت فايزة كأنها تلوم شقيقتها على غبائها:

- ما تبقيش عبيطه.. خليه يستنى شويه.. ده انا لسه عارفاه امبارح!!..

ولم تحتمل فوقيه أكثر من ذلك.. فصرخت ضاحكة:

- يا خرابى.. مش معقول.. بأه دى فايزة اختنا.. ما تقوللنا يا حبيبتى المدرسة اللى كنتى فيها دى تبقى فين علشان نخشها ونتعلم زيك كده!.

وابتسمت فايزة كأنها تتلقى تهنئة على ذكائها.. ثم فتحت دفتر التليفون وبحثت عن نمرة الدكتور وافى، وتكلمت فى صوت يقطر رقة ونعومة:

- آلو .. الدكتور موجود من فضلك؟..

- أنا يا افندم..

- أنا فايزة يا دكتور.. أنا آسفة قوى مش حا قدر آجى العيادة النهاردة.. ممكن تحدد لى ميعاد تانى..

- بس يا أفندم انا كنت عايز اطمن على قلبك!!..

- مرسى.. الحالة دلوقت كويسة!!..
- أنا عايز اخليها أحسن من كده!!..
- على كل حال.. أنا متأكدة انك دكتور كويس..
- علشان كده لازم اشوفك النهاردة.. الدكتور الكويس مابيقدرش يستنى على العيانين، لازم يشوفهم كل يوم.
- أصلى رايحه الأوبرا يا دكتور.
- اجيلك فى الأوبرا يا افندم.
- تكشف عليه هناك؟!..
- قصدى..
- أنا خايفة من قصدك يا دكتور.. أو رفوار!!.
- بس يا فايزة هانم.. و..

وقاطعته:
- اورفوار يا دكتور!!.

ووضعت السماعة، والتفتت الى شقيقتيها كأنها تسألهما عن ذكائها.

وعادت خديجة وفوقية تتبادلان النظرات والابتسامات، وقالت خديجة:
- ده انتى بقيتى استاذة!.

وقالت فوقيه:
- من هنا ورايح اعتبرينى تحت أمرك!.

وقالت فايزة وكأنها تتباهى بنفسها:
- ولسه، يا واش.. يا واش.. كلها يومين والدكتور الجميل يطب ويتفرتك حتت من الحب، وساعتها أعيطله واقوله

انى كنت مضطرة أكذب عليه وأفهمه انى عندى عزبه، علشان ما اخسروش.. وانى بنت مسكينة عايزة اهرب من بيتنا.. من العيشة اللى أنا عايشاها.. تروح واخداه الشهامة ومتجوزنى مش هو ده اللى بيحصل!.

وأجابت خديجة وفوقية فى نفس واحد:

– مضبوط!.

واخذت الشقيقات الثلاث يتندرن بقصص الناس.. ويتضاحكن ويتبادلن ذكرياتهن ومغامراتهن فى صراحة جريئة، الى ان احست فايزة بالتعب، التعب من ادعاء الذكاء، ومن افتعال المرح، ومن تمثيل دور الفتاة المستهترة، ومن تخيل الخطط المصطنعة للايقاع بالرجال..

ولكن فكرة الانتقام كانت لا تزال تتملكها..

الانتقام لصباها وشبابها من المجتمع والناس..

وكانت لا تزال مصرة على أن تبدأ بالانتقام من الأستاذ منير حلمى.. الرجل الذى ضرب الضربة الأولى فى صرح خيالها ومبادئها..

وكانت الساعة السابعة مساء عندما رفعت سماعة التليفون وأدارت رقم الأستاذ منير حلمى..

غريبة.. انها لم تنس ابدا هذا الرقم رغم كل ما مر بها..

وسمعت صوته.

ولم ترد.. وظلت ضاغطة بسماعة التليفون على أذنها كأنها تسمع صدى أحلام ماضيها البعيد..

ثم اعادت السماعة الى مكانها كأنها تنزع نفسها من

ماضيها.

لقد تأكدت الآن من وجوده فى بيته، وستفاجئه بزيارتها.

وكذبت على أمها وقالت أنها ذاهبة لزيارة صديقتها هدى.. زميلتها فى الدراسة..

ووضعت نفسها فى سيارة أجرة، وأعطت السائق العنوان وأحست انها عادت الى الوراء خمس سنوات.. الى اليوم الذى ذهبت فيه الى الاستاذ منير حلمى فى بيته لأول مرة.. لقد كانت يومها وجلة واجفة القلب، وكانت تحلق فى سماء طاهرة تتجاوب فيها ترانيم الملائكة.. ترانيم الحب النقى الصافى.. وكان يخيل اليها وهى فى طريقها اليه انها تصعد.. وتصعد.. وتصعد.. الى حيث يقيم فى أبراج السحاب بعيدا عن الناس.. بعيدا عن الدنيا.. بعيدا عن الشر..

ولكنها اليوم ليست وجلة ولا واجفة القلب.. انها ذاهبة اليه وهى تعلم أنه ليس ملاكًا، انه رجل.. مجرد رجل ككل الرجال.. رجل سافل.. وهى تحس فى طريقها انها تهبط، وتهبط.. وتهبط.. الى حيث يقيم كل الرجال.. فى الحضيض.. فى الطين!!..

ولكن..

انها تكذب على نفسها..

انها تحس برعشة خفيفة تنتاب قلبها.. وتحس بأطراف اصابعها باردة كالثلج.. وتحس بدمائها تسرع فى عروقها كأنها تحاول الهرب من شىء او الاختباء من شىء.

مم تخاف؟..

ما لزوم الخوف الآن؟!!..

انها تعلم بالضبط ماهى مقدمة عليه.. سيتحادثان طويلا وستلوح له خلال الحديث بأنوثتها.. وسيتقرب اليها ويتحسس جسدها بأصابعه، ويضمها، ويقبلها.. وستدعه يفعل كل ذلك، لأنه ليس من الصنف الذى يرضى بأقل من ذلك.. وسيتعلق بها بعد ذلك.. سيشركها فى كل احلامه وآماله.. فتأخذ فى خداعه وفى اللعب به الى ان تراه جاثيا تحت قدميها باكيا متوسلا، فترفسه ببوز الحذاء وتتم انتقامها!!

انها تعلم كل ذلك.. ان الخطة واضحة فى ذهنها لا تحتمل الشك.. وليس عليها خلال تنفيذها إلا ان تحرص على شىء واحد.. هو أن تبقى عذراء!

لِمَ الخوف، اذن!!..

ووقفت السيارة امام باب العمارة.. ونزلت منها وسارت فى خطى ثابتة نحو المصعد..

ان البواب لا يزال هو نفسه، ولا يزال فى جلسته لم يغيرها.. ولا تزال فى عينيه هذه النظرة التى استقبلها بها أول مرة، كأنه يعلم بإحساسه انها فى طريقها الى الاستاذ منير حلمى، وانها لذلك لا تستحق ان يقف لها احترامًا!!

وأغلقت على نفسها باب المصعد كأنها تغلق على نفسها باب زنزانة ضيقة فى سجن الخطيئة..

ووقفت امام باب الشقة، وضغطت على الجرس وهى تجمع

كل ارادتها لتحتفظ بثباتها وسيطرتها على نفسها..

وسمعت للجرس صوتًا بعيدًا داخل الشقة كأنه الفحيح.. فحيح ثعبان خبيث يكتم ضحكات ساخرة..

وفتح الخادم الباب وسألته في صوت حاولت ان يكون جادًا:

- الاستاذ موجود؟..

- نقوله مين يا افندم!!..

- هوه عارف!!

وقال الخادم وهو يبتسم ابتسامة ميتة كأنه يلعن حظه في الحياة:

- اتفضلي!!..

قالها بلا مبالاة كأنه تعود ان يفتح الباب لآلاف النساء وكلهن لهن حق الدخول!!..

ودخلت فايزة وهي تجيل عينيها فيما حولها كأنها تستعرض ذكرياتها.. ان كل شيء كما هو.. كل قطعة من الأثاث مكانها.. حتى طقاطيق السجائر والتحف الصغيرة لم تتغير ولم تزد ولم تنقض.. لا شيء يبدو أكثر قدما، ولا شيء يبدو أكثر جدة، كأن الزمن لا يمر بهذا البيت انما ينام فيه..

ودخل الأستاذ منير حلمي بخطوات سريعة ملهوفة كأنه يتسرع المفاجأة..

انه هو بعينه..

لم يتغير..

نفس الوجه الهادىء الوسيم كأنه طيف من عالم الخيال،

والعينان الصافيتان كأنهما لم تقعا أبدًا على شر يعكرهما، والشفتان الغليظتان كأنهما اكتنزتا بتنهداته، والابتسامة الحنون كأنها رسالة يحملها نبى لإسعاد البشرية..

كل ما هنالك أن الشعرات البيض قد زحفت من فوديه وصعدت الى رأسه كأنها اكليل من الفل.. وخطوط باهتة قد أحاطت بعينيه، وتجعدات ضعيفة برزت فوق وجنتيه كأنها آثار شفاه مجنونة قتلت نفسها تقبيلا..

وكان يرتدى نفس الثياب التى تعرفها.. البنطلون والقميص والسترة المنزلية.. كان هذا هو الزى الرسمى الذى يقابل به كل النساء..

ونظرت فايزة اليه.. انها لا تراه كما رأته أول مرة.. انها ترى خلف وجهه الهادىء زوبعة، وترى وراء العينين الصافيتين بريقا احمر فيه اغراء باقتحام الخطر وبمخالفة لوائح المرور، ولا تحس فى ابتسامته حنانًا، بل تحس فيها دعوة ما كرة..

وابتسمت.. كأنها تبتسم للشيطان الذى يحاول ان يبدو ملاكا..

ونظر اليها كأنه يحاول أن يتذكر شيئا..

نظر الى القوام الذى يتثنى فى رقة كأنه يتأوه من الألم، والى البشرة السمراء كأنها استار معبد مقدس، والى العينين الواسعتين وقد اجتمع فيهما الليل والنهار، فلا تكاد تغفو بينهما حتى تصحو، والى الشفتين الحالمتين وقد نامت احداهما فوق الأخرى كأنها تتدفأ بهما..

واتسعت عيناه كأنه يلوم نفسه لأنه لا يستطيع ان يتذكر اين رأى كل هذا الجمال من قبل..

وقالت من بين ابتسامتها فى صوت يضج بالدلال:

- مش فاكرنى يا أستاذ؟!

وخبط على جبينه وصاح:

- فايزة؟!.. مش!!..

- ازيك يا استاذ؟!..

قال وهو يمسك بكلتا يديها بين يديه:

- ايه ده كله.. ده انتى احلويتى قوى..

- صحيح؟!..

- إلا صحيح.. تعالى شوفى بنفسك.

وجذبها الى مرآة صغيرة ضمن المشجب الموضوع بجانب الباب، وأوقفها امامها ووقف وراءها وهو ممسك بكتفيها، وقال:

- شايفه العينين دول.. بأه كانوا كده زمان.. شايفة شفايفك.. شايفة خدودك .. مش ممكن تكونى احلويتى. كده لوحدك، لازم بتاخدى دوا مخصوص!!..

وضحكت فايزة فى مرح، وقالت:

- انت طول عمرك تبالغ يا استاذ!!

- ياريت اقدر ابالغ لغاية ما وصل للحقيقة.. ده انتى فقتى كل مبالغة.. تعالى.. تعالى احكيلى كنت فين، وعملتى ايه طول المدة دى.. بقالى أد ايه ما شفتكيش.. تلات سنين؟

- خمسة!!..

وقال منير وهو يبتسم كأنه يدارى بابتسامته طعنة:

– ما تقوليس كده.. بعدين أحس انى عجزت قوى!!..

– انته اللى زيك عمره مايعجز.. بالعكس.. كل ما قرالك قصة جديدة يتهيأ لى انك بتصغر عن الأول..

– ده يبقى مدح ولا زم؟..

– الحقيقة أنا جايالك النهارده علشان اهنيك على القصة الأخيرة.. تجنن.. انما قوللى بتعرف الحاجات دى كلها زاى.. ده انته بتوصف البنات زى ما تكون عايش معاهم.. وبتوصف الفلاحين زى ما تكون فلاح.. انما عيبك انك بتتكلم عن الحب الأفلاطونى

وقال منير وهو يجذبها من يدها ويجلسها بجانب الأريكة:

– ليه؟.. مابتؤمنيش بالحب الأفلاطونى؟!..

– مش موجود..

قال وهو لا يزال يحتفظ بيدها فى يده:

– لازم حبيتى، وعرفتى ان الحب مش ممكن يكون افلاطونى!

– ابدًا.. لسه بخيرى.. زى آخر مرة شفتى فيها!!..

قال وهو يبتسم ابتسامة تفضح غروره بنفسه:

– آخر مرة كنت بتحبنى انا..

وأرخت فايزة عينيها فى خفر، وقالت على استحياء:

– انما انت ما كنتش بتحبنى!..

وقال وهو يضغط على يدها:

– ماكنتش أقدر احبك.. يمكن كنت احبك انما ما كنتش

أقدر أعرف قيمة عواطفي.. كنتي لسه صغيرة.. ما كنش ممكن اعتبرك ست، وأعاملك على انك ست..

قالت في دلال:

- ودلوقت.. يا ترى كبرت كفاية؟!..

قال وهو يفتعل الأسى:

- بس أنا كبرت كمان!!..

قالت كأنها تدافع عنه:

- لأ.. أنا بس اللى كبرت.. انت لسه زى ما انته.. متهيأ لى انك ماكبرتش يوم واحدا..

- ياريت!..

- باكلمك جد.. ده أنا نفسى مستعجبه إزاى ما بتكبرش!

قال وهو يطوف بعينيه فوق وجهها:

- أنا من ساعة ما شفتك وأنا متهيأ لى انى رجعت لورا خمس سنين.. متهيألى انى استرديت من عمرى كل اللى ضاع منه، ودلوقت بس عرفت انى طول عمرى مبذر ومتلاف لدرجة انى ضيعت عمرى من غيرك.. لدرجة انى فرطت فيكى..

واقترب منها وقال وهو يكاد يضع خده فوق خدها:

- فايزة.. احلفيلى انك ما نستينيش طول المدة دى.. قوليلى انك مش جايه تشوفى منير حلمي كاتب القصص، انما جايه تشوفى منير حلمي الانسان.. الانسان المسكين اللى ضيع خمس سنين من عمره بعيد عنك!.

وقالت فايزة وهى تشد ظهرها فى دلال فيقفز نهداها امام

عينيه، ثم تحنى رأسها كأنها لا تستطيع أن تواجهه، وتخفض من صوتها حتى يصبح همس:

- ما كانش ممكن أنساك.. مالقتش اللى يخلينى أنساك!..

واقترب منها اكثر، ورفع ذراعيه فى صمت كأنه يبتهل بهما اليها، ثم انزلهما فوق ظهرها واخذ يطوف فوقه بكفيه كأنه يتبرك بأستار المعبد المقدس.. ثم وجدت نفسها فى أحضانه وخده فوق خدها كأنه التصق بها الى الأبد..

وجفلت قليلا.. وشهقت شهقة صغيرة.

وحاولت ان تدفعه عنها فى رفق وهى تقول:

- لأ يا منير.. خلينا نقعد نتكلم احسن!..

قال وهو يضغطها اليه ويضغط بخده على خدها:

- مافيش كلام فى الدنيا يكفينى دلوقت.. ما فيش كلام فى الدنيا يقدر يعبر عن فرحتى بيكى.. مش قادر أصدق انك رجعتيلى.. وانك حتبقى بتاعتى.. قوليلى انك بقيتى بتاعتى..

وقالت وهى تحاول ان تلهيه عن نفسها:

- الكلام ده بتقوله لبنات كتير يا منير!.

- انما عمرى ما صدقت فيه الا دلوقت.. ما تحاسبنيش على اللى فات يا فايزة، حاسبينى على اللى جاى..

وأحست بخده يتحرك فوق خدها..

وأحست بأنفاسه تزحف نحو أذنيها كأزيز العاصفة المقبلة..

وأحست بأصابعه تضغط فوق ظهرها حتى تكاد تشعر

بالألم.

ونشط عقلها..

ان الخطة دخلت فى دور التنفيذ أسرع مما قدرت لها..

عليها الآن أن تتحمل أنفاسه وقبلاته ولمسات كفيه..

ولكن لماذا؟..

لماذا تتحمل كل ذلك؟..

وتنبه عقلها الى شفتيه وهما تقتربان من أذنيها وتستقران فوقهما.. وأحست لمسة من كهرباء تسرى فى بدنها كله، وانتفض رأسها بعيدا عنه، وهى تقول كأنها تتوسل اليه:

- منير.. لا!!..

ولم يتكلم منير.. انما سقط بشفتيه فوق شفتيها.. وأحست كأن أنفاسها قد أخمدت.. وحاولت ان تقاوم.. ولكنها عدلت.. يجب.. ان تستمر فى الطريق الذى قررته لنفسها أخيرا.. الطريق الذى دفعها الى المجتمع.. انه طريق مرصوف بالقبلات وتلفح الأنفاس الملتهبة كل من يمر به..

انها ليست فى حاجة الآن إلا الى ذكائها..

ولكن أين هو هذا الذكاء؟!!.

انها تحس بالضيق.. تحس بكل عصب فيها يكاد يختنق.. تحس بدمائها تهرب منها.. تحس بقشعريرة تلف صدرها كأنها رداء الموت..

لماذا تتحمل كل ذلك؟..

لأنها ذكية .. لأنها تنتقم لصباها وشبابها من المجتمع؟

ولكنها لا تنتقم.. انها تستسلم..

تستسلم للخطيئة..

وشعرت بمنير يدفعها بصدره حتى أرقدها فوق الأريكة.. وأحست بكفه تنسحب من وراء ظهرها ثم تستقر فوق صدرها.. ثم أحست بهذه الكف تعصر النهد البكر في قسوة كأن أصابعه أنياب ذئب.. وتأوت في ضعف. وصرخت بلا صوت.. يا مجنون.. ما هذا التوحش.. ما هذا الظلم!!..

ثم لم تعد تستطيع..

ان كل شيء فيها يبرد.. شفتاها.. وخداها.. وأطرافها قطع من الثلج.. ووجهها يمتقع.. وعيناها زائغتان مفتوحتان واسعتان لا تتحركان كأنها فقدت النظر وفقدت الاحساس بهما..

ولم تعد تشعر بشيء..

ولم تحس بأصابع منير وهي تعبث بأزرار ثوبها وتقتحم لحم كتفيها..

انها جسد ميت..

وتوقفت كفا منير.. وأطلقت شفتاه شفتيها.. وأحست بثقله ينزاح من فوق صدرها..

ورأته من خلال عينيها الزائغتين يقف بعيدا عنها..

ومضت برهة..

هي في رقدتها.. وهو بعيد عنها.. وكلاهما صامت..

واستردت انفاسها، وعادت الدماء تسري في عروقها بطيئة مترددة كأنها دماء خائفة..

وقالت في صوت متنهد متهكم كأنه نقيع السم:

- سكت ليه؟!..

ولم يرد منير..

ظل صامتا..

وأحست بثورة صغيرة تتجمع فى صدرها وتتصاعد الى رأسها، وقالت ساخرة:

- ما تكمل؟!..

ولم يرد.. بقى ينظر اليها كأنه يفحصها بعينيه..

وعادت تسخر منه وقد أصبحت سخريتها كالصراخ:

- ما تيجي تبوسني.. ساكت ليه.. مش ده اللى كنت عايزه.. مش ده اللى الرجالة كلها عايزاه..

وقال منير فى هدوء:

- آسف.. ما تعودتش أبوس فريجيديرات.. انا سافل صحيح.. انما مش للدرجة دى.. مش لدرجة انى أبوس واحدة مش عايزه تبوسني!..

وقالت مستمرة فى سخريتها:

- تحب اكتب وأمضى بالسماح لحضرتك بانك تبوسنى!!

قال وهو ينظر اليها فى عطف:

- انتى مسكينة يا فايزة!!..

ورأت نظرة العطف فى عينيه، فاعتدلت من رقدتها، وأصلحت من ثوبها كأنها شعرت بنفسها أمام رجل غير الذى جاءت اليه.. رجل كأبيها.. وقالت كأنها تقاوم:

- مسكينة ليه.. مش مسكينة ولا حاجة.. انتم اللى مساكين.. الناس كلها هيه اللى مساكين.. انما أنا مش

مسكينة!!

وجلس منير حلمى فى مقعد قريب منها وأشعل سيجارة، ثم بدأ يحادثها فى صوت لم تألفه منه.. صوت هادىء وقور، كأنه صوت طبيب:

- قوليلى بالحق يا فايزة.. ما تكدبيش عليه.. انتى جيتى النهاردة ليه؟!..

وأحنت رأسها، كأن رأسها قد تعب من كثرة ما يحمله فارتمى فوق عنقها، وقالت كأنها عادت طفلة لا تحمل حقدًا لأحد:

- جيت أديلك اللى انت عايزه.. من خمس سنين جيتلك وطردتنى لأنى مارضتش انك تقربلى.. والنهارده رجعتلك وأنا ناويه انك ما تطردنيش!!

قال فى اهتمام:

- وايه اللى خلاكى تغيرى رأيك؟..

- الناس.. الناس كلهم.. كلهم زيك.. ماحدش رضى يقبلنى بشرفى وبكرامتى.. كل طريق مشيت فيه لقيته مسدود.. مسدود بالسفالة والانحطاط والأخلاق الزفت.. واخيرًا قررت انى أنا كمان اكون سافلة ومنحطة واخلاقى زفت علشان الطريق ينفتح قدامى.

قال وهو لايزال يفحصها بعينيه:

- انتى مقتنعة باللى بتعمليه.. مقتنعة بالسفالة؟..

قالت كأنها تخاطب نفسها:

- أنا حاولت كتير.. استمريت فى تعليمى علشان ما

اقعدش فى جو البيت الفاسد.. واتوظفت علشان ما احتاجش لحد.. بعدت عن الناس ما سبونيش فى حالى.. اختلطت بالناس.. الناس ضربونى على دماغى.. كان لازم استسلم من زمان علشان استريح وأريح الناس..

قال:

- ما جاوبتنيش على سؤالى. انتى مقتنعة باللى ناويه تعمليه؟!

- قصدك ايه؟!.

- يعنى مقتنعة مثلا بانك تجيلى وتدينى نفسك بالشكل ده؟!

قالت وكأنها تلوم نفسها:

- لأ..

- ده المهم.. يبقى لازم تعرفى ان مش كل واحدة تقدر تمشى فى السكة دى.. اللى تمشى المشى ده لازم تكون مقتنعة باللى بتعمله. لازم تكون مقتنعة بالخطيئة.. حاسة انها ما بتعملش حاجة غلط، انما بتعمل الحاجة الطبيعية اللى لازم تعملها والناس كلها بتعملها.. زى الحرامى، مش ممكن يقدر يكون حرامى ناجح وفالح الا إذا كان مقتنعا بأن السرقة حداقة وشطارة وفهلوة، وان من حقه ان يسرق، انما لو كان راجل صاحب مبادىء مش ممكن يقدر يسرق حتى ولو اضطرته الحاجة الى السرقة، تلاقى اللى زى ده وهو بيسرق يتردد وايده ترتعش ويتلخم لغاية ما البوليس يطب عليه.. تمام زى حضرتك لما جيتى النهاردة.. جيتى وانت مش مقتنعة

باللى بتعمليه.. جيتى غصب عنك، لأن الناس دفعوكى للطريق ده.. وكانت النتيجة انك ارتعشتى واتلخمتى وبقيتى زى لوح الثلج.. وكان ممكن تخسرى كل حاجة فى لحظة وتعيشى طول عمرك ندمانة..

وفتحت عينيها كأن السحب انقشعت من امامها، وقالت فى صوت يائس:

– واعمل ايه دلوقت؟.

– خليكى زى ما انتى.. خليكى فى الطريق اللى كنت ماشيه فيه طول عمرك!

– أرجع تانى اتعذب واقاسى شرور الناس؟!

– مهما اتعذبتى حيكون عذابك أرحم من العذاب اللى حتشوفيه لو مشتى فى سكة ثانية!!

– مش ممكن.. انت مش عارف أنا اتعذبت اد ايه.. ثم انى مش غبية.. أنا نبيهة أقدر أمشى.. فى اى سكة من غير مايجرا لى حاجة!!

– الذكاء لوحده ما يكفيش.. الذكاء دايماً يدور حول مبادئ. واذا كانت مبادئك فى ناحية وعقلك بيشتغل فى ناحية ثانية تبصى تلاقى نفسك وقعتى فى مصيبة ما تخلصيش منها.. تمام زى ما تكونى بتحبى واحد فقير وتروحى تتجوزى واحد غنى.. تلاقى نفسك خسرت الحب وما قدرتيش تعيشى مع الغنى وبقت حياتك نكد فى نكد.

قالت كأنها تبكى:

– أنا حيرانه يا منير.. حيرانه فى عيشتى.. مش عارفه

اعمل ايه.. الكلام اللى بتقوله أنا مصدقاه ومقتنعة بيه، انما اعمل ايه فى عذابى، اعمل ايه فى دنيتى!!

ونظر اليها فى حنان كأنها ابنته وقال:

– ما تعمليش حاجة ضد مبائك.. ما تعمليش حاجة يمكن تندمى عليها.. أنا أكبر منك تكتير يا فايزة، وعارف الدنيا اكتر منك.. وما تفتكريش انى سافل دايما.. أنا سافل بس مع السفلة.. انما انتى حاجة تانية.. انتى بنت رقيقة وطاهرة وكريمة.. خليكى كده على طول.. وسامحينى اذا كنت ظلمتك فى الأول.. كان لازم تفوت خمس سنين علشان اعرف انى ظلمتك وانك مش زى بقية البنات اللى باعرفهم.. وسامحى الناس كلهم اللى ظلموكى زى ما ظلمتك.. ظلموكى لأنه ما كانوش يعرفوكى.. يوم ما يعرفوكى حيعتذرو لك زى ما بعتذر لك.. لأن يوم ما يعرفوا انك اخطأت مش حيرحمكى، ولا أنا حارحمك.. حا تلاقينى رجعت بقيت سافل معاكى واسفل كمان..

ولم ترد فايزة..

وقامت فى بطء وهى تصلح من ثوبها ومن شعرها بحركات آلية..

وقالت كأنها غارقة فى الهم:

– مرسى يا استاذ.. انا آسفة!!..

وضغط منير على اليد التى مدتها اليه فى حنان، وقال وهو يبتسم كأنه يعينها على الحياة:

– توعدينى..

وقالت فايزة وكأنها ليست واثقة من نفسها:

- باذن الله.. حا حاول!!

وتبعها حتى فتح لها الباب..

ووقف معها حتى دخلت المصعد..

وقال وهو يضغط على يدها مرة ثانية:

- ارجوكى تثقى بيه.. وفى اى وقت تكلمينى فى التليفون حتلاقينى جنبك!

وهزت رأسها دون ان تتكلم..

نزل بها المصعد..

●

وسارت فى خطى زاحفة كأنها تخوض فى السحب..

سحب الحيرة..

لم تعد تفكر فى الانتقام..

ولم تعد تفكر فى ذكائها..

كانت قد عرفت شيئاً جديداً..

عرفت ان الخطيئة ليست سهلة..

انها عذاب..

وعرفت ان القبلة من رجل لا تحبه اقسى على النفس من ظلم الناس..

وعرفت ان الكف الغريب فوق جسدها، اقسى من الحرمان الطويل..

ولكنها لم تكن تدرى الى اين تفر؟..

لم تكن ترى شيئا فى طريق حياتها..

كانت حائرة..

والحيرة تستبد بها حتى تكاد تطمس عقلها..

هل ظلمت الناس؟..

هل ظلمت المجتمع؟..

هل هناك طريق آخر غير هذا الطريق المسدود؟!..

انها لا تدرى..

ووجدت نفسها تبحلق فى عجلات الترام التى تمر امامها.

ثم وجدت نفسها تبحلق فى مياه النيل عندما مرت فوق الكوبرى!!..

ووجدت نفسها ترى سطح العمارة التى تقيم فيها.. وتقيس المسافة بين السطح والأرض.

ووجدت نفسها تعد حبات الاسبرين فى الانبوبة التى تحتفظ بها بجانب فراشها..

ولكنها سارت..

سارت لتنضم الى الموكب الضخم..

موكب الحائرات!!..

رقم الإيداع ١٤٨٨٧ / ٩٧
الترقيم الدولى

I. S. B. N

977 - 08 - 0701 - 1

طبع بمطابع أخبار اليوم

Bibliotheca Alexandrina
0436630

To: www.al-mostafa.com